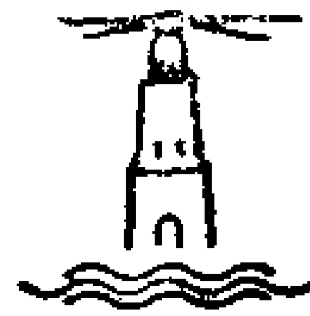
عِلْمُ اللُّغَة

نَشْأَتُه وتَطَوُّرُه

دكتور محمود جاد الرب
كلية الآداب — جامعة المنصورة

الطبعة الأولى

١٩٨٥



دار المعارف

مقـــدمة

ترجع نشأة البحث اللغوى الى قرون عديدة قبل الميلاد ، فقـد أدى اهتمام الإنسان بعقيدته ودينه الى العناية بلغة هذا الدين وتناول نصوصها المقدسة بالبحث والدراسة ، ويتضح ذلك بصورة خاصة فى دراسات الهنود اللغوية حيث اهتموا بالسنسكريتية بصفتها اللغة المقدسة عندهم • أما فى اليونان فقد نشأ البحث فى اللغة فى أحضان الفلسفة وفى مجال الشعر والنثر الأدبى •

جاءت الدراسات اللغوية منذ نشأتها فى الأمم القديمة وتطورها عبر التاريخ حتى العصر الحديث متنوعة المناهج متعددة النظريات ، فتارة تعتمد على الفلسفة ، فيكون العقل والمنطق هما أساس البحث والدراسة ، وتارة أخرى تبتعد النظريات اللغوية عنهما ، فتكون التجربة والملاحظة عماد البحث ووسيلته ، لذلك كان تأريخ هذه النشأة ورصـد حركة التطور أمرا ضروريا وهدفا علميا ثمينا •

ويحس الباحث المتخصص بمدى النقص الكبير فى مكتبتنا العربية عندما لا يجد حتى الآن ربما فى العالم العربى كله كتابا يؤرخ لنشـأة التفكير اللغوى ويرصد تنوعات المناهج العلمية فى مجـال الدراسات اللغوية عبر القرون الطويلة ، هذا على الرغم من وجود مجموعة من الكتب الأجنبية فى ذات المجال ، ربما من أشهرها كتاب روبنز الذى ترجم الى الألمانية عن المخطوطة الأصلية التى كتبت بالانجليزية ، وقـد جاءت الترجمة الألمانية بعنـوان : « تاريخ أفـكار علم اللغـة وموضوعاته Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft » ، ويعـد كتاب روبنز هذا تفصيلا لـما جاء فى كتابه السابق : « تاريخ مختصر لعلم اللغة A Short History of Linguistics » الذى ألفه عام ١٩٦٧ ، هذا بالاضافة الى وجود كتاب آخر فى هذا المجال باللغة الألمانية قام بتأليفه جماعة من

اللغويين المتخصصين وهو بعنوان : « أسس علم الأدب وعلم اللغة ، الجزء الثانى : علم اللغة Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft, Band 2 : Sprachwissenschaft » ، وألف عام ١٩٧٤ •

أقول إن هذين المرجعين كانا من المراجع الرئيسية التى اعتمدنا عليها وبخاصة فى الفترات التى تقل فيها المرجع بصورة واضحة كالعصور الوسطى أو عصر النهضة مثلا •

هكذا كان تناول نشأة الفكر اللغوى عند اليونان والرومان وعند الهنود والصينيين أمرا ضروريا وتتبع مسار البحث اللغوى فى العصور الوسطى عند العرب أولا وعند اللاتينيين ثانيا مطلبا أساسيا فى هذا الكتاب ، ولما كانت المراجع العربية التى تناولت الدراسات اللغوية عند العرب وفيرة العدد فإننى قصرت الحديث فى هذا الموضوع على الملامح النظرية الهامة التى توضح المنهج الذى استخدمه العرب فى البحث والدراسة •

أما النظرية البنائية بدءا من دى سوسير فقد نالت الجزء الأكبر فى الكتاب ، وذلك بسبب تنوع النظريات عند علمائها ووفرة المراجع التى تناولت هذه النظريات ، ثم ختمنا الكتاب بعرض أحدث المناهج اللغوية ونعنى به علم النحو التحويلى التوليدى كما جاء عند تشومسكى ، وهو المنهج الذى أحدث انقلابا كبيرا فى مسار علم اللغة •

وبعـد ، فآمل أن يسد هذا الكتاب الفراغ الموجود فى المكتبة العربية وأن يكون وافيا بالغرض الذى وضع من أجله • أما اذا بدا فيه قصور ما فى عرض نظرية من النظريات المتعددة أو فى تناول منهج من المناهج المتنوعة فإن العذر هو أنه ألف بغرض عرض الملامح الهامة التى تميز كل مرحلة من المراحل المختلفة التى مر بها علم اللغة عبر هذه القرون الطويلة ، ويكفى أن بذلت الجهد مخلصا فى إعداد هذا الكتاب وحسبى أن حاولت ، والحمد لله أولا وآخرا عليه توكلت فنعم المولى ونعم النصير •

القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٨٥

د• محمود جاد الرب

الفصل الأول

التفكير اللغوى عند الأمم القديمة

أولا : اليونان والرومان

يرجع اهتمام الانسان باللغة الى زمن بعيد ، « فقد كان القدماء — حتى عصر التوراة — على وعى باللغة ومشكلاتها ، كما هو ثابت من الفصل الخاص ببرج بابل الوارد فى سفر التكوين .... ، ومن الأمثلة القديمة للاهتمامات اللغوية البدائية استخدام المترجمين فى بلاط الفراعنة ، والنقوش القديمة المكتوبة بلغتين أو ثلاث المحفورة على الحجارة فى المناطق التى كانت تستخدم أكثر من لغة ، وحتى كذلك معجم الأنواع المزدوج اللغة الموضوع باللغتين السومارية (١) والأكادية (٢) » .

أما فى اليونان فمن المعروف أن التفكير اللغوى نشأ فى أحضان الفلسفة ، وبقى زمنا غير قصير جزءا منها ، فان الفلاسفة اليونانيين هم الذين بدأوا البحث فى اللغة ومشكلاتها ، وكان التساؤل عن أصل اللغة وطبيعتها مثار جدل كبير بين الفلاسفة آنذاك ؛ كما كانت طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول محل نقاش استمر عدة قرون حتى عصر أفلاطون وأرسطو ، وهل هى علاقة طبيعية ضرورية أم اصطلاحية عرفية ؟ وقد ذهب الى الرأى الأول بروديكوس Prodicus وسوفسطائيو القرن الخامس قبل الميلاد .

ويصادفنا فى مجال التفكير اللغوى أول نقد عند بارمينيدس Parmenides (حوالى ٥٠٠ ق.م) حيث وضع حدا فاصلا بين الحقيقة من جهة والادراك واللغة من جهة أخرى .

---

(١) اللغة السومرية هى لغة السوماريين الذين كانوا يعيشون فى منطقة ما بين النهرين قبل أن تهاجر اليها القبائل السامية من شبه الجزيرة العربية فى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد والتى كانت تتكلم اللغة الأكادية ، وقد عاش الساميون الوافدون مع الشعب السومرى وتعلموا منهم كتابة لغتهم بالخط المسمارى .

(٢) ماريو باى : أسس علم اللغة ص ٢٢٥ ، ترجمة د . أحمد مختار عمر (عالم الكتب الطبعة الثانية ١٩٨٣) .

وساهم فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد فى تقدم الدراسات اللغوية ، فقد اهتموا بالتطبيق الصحيح والكامل للغة فى كثير من التحليلات اللغوية ، والتى جاءت عادة مرتبطة بتفسيرهم لشعر الشعراء ، وقد أشار بروتاجورس Protagoras مثلا الى الاختلاف بين الاستعمال اللغوى عند هوميروس والتركيب المنطقى ، كما قسم الأسماء بالنظر الى الجنس الى ثلاثة أنواع : مذكر Masculinum مؤنث Femininum ومحايد Neutrum (١) .

واذا كانت الدراسات اللغوية ازدهرت عند اليونان فى أحضان الفلسفة فإنها اعتمدت اعتمادا كبيرا على الأدب ، وقد نادى سقراط وأفلاطون وأرسطو بحق المتكلم فى استعمال لغته (٢) ، وكانت اللغة المقصودة بذلك إنما هى اليونانية . أما المستوى الذى قصده فلاسفة تلك القرون فهو مستوى النماذج الأدبية الممتازة من شعر ونثر ؛ إنه مستوى الإلياذة والأوديسيا لهوميروس ، حيث كانتا نموذجا للتعليم خلال التاريخ اليونانى كله .

هـذا وقد تنوعت وجهات نظر فلاسفة اليونان فى دراسة اللغة ؛ فعلى حين يرى أفلاطون مثلا أن اللغة إلهام وموهبة نشأت مع الإنسان ومن ثم ينبغى أن يدور البحث حول الألفاظ الأولى فى اللغات المختلفة ، لأنها هى التى تمثل هذه الموهبة الفطرية فى أكثر أطوارها بكورا ، ثم يدرك صعوبة المحاولة ويقرر أن السبيل إليها إنما هو معرفة لغات الشعوب الأخرى يمثل أرسطو النزعة الأخرى حين اتجه بالدراسة اللغوية اتجاها

---

(1) J. Pinborg : Antike Grammatiktheorie S. 91. im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft, Band 2 : Sprachwissenschaft, Nov. 1974.

وانظر ايضا د . عبد الرحمن بدوى : الخطابة لأرسطو : الترجمة العربية القديمة ص ٩١ (١٩٥٩) .

(٢) عاش سقراط من ٤٧٠ حتى ٣٩٩ ق.م وافلاطون من ٤٢٧ حتى ٣٤٧ ق.م وأرسطو بين عامى ٣٨٤ ، ٣٢٢ ق.م .

مختلفا عن اتجاه أفلاطون حيث يرى أن اللغة ليست إلهاما من الله أو موهبة إنسانية ، بل نظاما لفظيا محددا نشأ نتيجة اتفـاق بين أفراد جمـاعة بعينها ، ولم يقف أرسطو عند القول بذلك ؛ بل أخذ فى دراسة هـذا النظام اللفظى •

وكان من نتيجة الخلاف بين أفلاطون وأرسطو نشـوء مدرسـتين هما : مدرسة الشذوذيين anamaliste ويتزعمهـا كراتيس Krates (عاش حوالى سنة ١٢٠ ق•م) وتتبع أفلاطون ، ومدرسة القياسيين analogists ويتزعمها الرياض أرستراخوس Aristrachos (عاش فى الاسكندرية بين عامى ٢١٦ — ١٤٤ ق•م) وتتبع منهج أرسطو • وقد ظلت نتائج هذا الخلاف بين أفلاطون وأرسطو عهدا طويلا ، فتبعت الأول منهما طائفة الرواقيين بينما تبعت الثانى طائفة الأبيقوريين (١) •

ويرى بعض المتخصصين أن تفرع الفلاسفة الى مجموعتين : الرواقيين والأبيقوريين يرجع الى الخلاف بين أتباع أرسطو وعجزهم عن تفهم مذهبـه الشامخ ، « فتفرع مذهبه الى مذاهب ، تبنى زينو + ٢٧٠ ق•م Zeno فكرة الطبيعة الناطقة ، ومضى فيها حتى نهايتها ، فاستحالت عنده الى ضرورة العمل على قمع الأهواء ووأد الشهوات ومحاربة اللذات والإشادة بحياة الزهد والحرمان ، تحقيقا للسعادة السلبية التى كانت سمة العصر كله ، وأنشأ مدرسة تبشر بمذهبه هى مدرسة الرواقية Stoic school ، أما أبيقور + ٢٧٠ ق•م Epicurus فقد راقه القول باللذة ووحد بينها وبين السعادة ، فمضى فى الفكرة حتى تحولت عنده الى دعوة للتمتـع باللذات ، ابتغاء الحصول على طمأنينة النفس ، وأنشـأ مدرسة تبشر بدعوته هى مدرسة الأبيقورية Epicurian school ومـرد الاتجـاهين

---

(١) د • عبد الرحمن أيوب : اللغة والتطور ص ١٠ ، ص ١١ (معهد البحوث والدراسات العربية طبعة ١٩٦٩) •

المتضاديين آخر الأمر الى سقراط ثم هما متفقان بعد هذا فى جعل السعادة السلبية غاية قصوى للحياة » (١) .

ويتضح فى محاورة أفلاطون المسماة Cratylos أن اللغة ثابتة ومتغيرة فى الوقت نفسه ، ويشير الى أن الجملة — وليست الأسماء — يمكن أن توصف بأنها صحيحة أو حقيقية ، وقد واصل أرسطو هذا التحليل ، ولكن بالنظر الى الاستعمال المنطقى والشعرى والبلاغى للغة (٢) .

ويفرق أفلاطون بين الاسم والفعل وتابعه أرسطو فى التفريق بين التركيب الاسمى والتركيب الفعلى ويرى أن التركيب الفعلى يرمز الى أشكال الزمن فى الفعل اليونانى كما ذكر بالإضافة الى الاسم والفعل قسما ثالثا سماه الرابطة ، وذلك لأنه شعر أن الأفعال والأسماء تؤدى دلالات مستقلة فى حين أن سائر الكلمات ليس لها إلا الوظيفة النحوية فقط (٣) .

واعترف الرواقيون بأهمية الدراسات اللغوية ، وتناولوا بصفة خاصة الدراسات الفوناتيكية والنحوية والدلالية ، ووجهوا جل اهتمامهم الى النحو ، يرى كثير من الباحثين أن هذه الدراسات تعد البداية الحقيقية للدراسات النحوية العلمية عند علماء الغرب .

واستطاع الرواقيون فصل الدراسات اللغوية عن الفلسفة ، واعتبروها فرعا مستقلا ، ولما كان الراقيون يردون كل شىء الى المنطق

---

(١) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ، نشأتها وتطورها ص ٧٣ ، ص ٧٤ (طبعة ١٩٦٠) .

(2) J. Pinborg : Antike Grammatiktheorie S. 91 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(٣) د. أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب ص ٤٥ (طبعة ١٩٧١) وانظر أيضا :

Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 8. (Frankfurt am Main 1973).

فقد رأوا أن النحو ينبغى أن يطابق المنطق • وينبغى أن تطابق الفصائل أو الأقسام النحوية أقسام المنطق أو مقولاته (١) •

وعلى الرغم من اختلاف الرواقيين مع فلسفة أرسطو فانهم اعتمدوا فى كل أعمالهم على آرائه فى قواعد اللغة ، فعينوا الحالات الإعرابية المختلفة التى قال بها أرسطو ، ووضعوا لكل منها اسما لايزال يستعمل حتى اليوم ، كما اهتموا اهتماما خاصا بدراسة الأفعال (٢) •

ويمكن القول بأن دراسة النحو المنظم بدأت عند الرواقيين حوالى ٣٠٠ ق•م ، وقد توجت تلك الدراسات بدراسة الفيلسوف الاغريقى ديوجينيس Diogenes (حوالى ١٥٠ ق•م) وإن كانت هذه الدراسة قد وصلت إلينا منقوصة غير كاملة (٣) •

وتشير تعريفات اللغة عند أرسطو وعند الرواقيين الى أن الفلاسفة يرونها ترديدا خارجيا لأفكار ومعارف المتكلم ، فالأسبقية تكون أولا للتصور ثم يتبعه الفهم الذى يمثل الكفاءة والمقدرة على النطق والذى تعلنه الكلمة المنطوقة (٤) •

أراد الرواقيون فى دراساتهم اللغوية من خلال علم الاشتقاق Etymology تتبع الأسماء حتى أصولها الأولى (مثلما نادى بذلك أفلاطون) ويمتد ذلك بالطبع الى تتبعها فى اللهجات واللغات الأجنبية ، وإن كانت مقارنة اللغات لم تحظ باهتمامهم أو باهتمام النحويين اللاتينيين

---

(١) د • محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٤٨ (دار المعارف ١٩٦٢) •

(٢) د • عبد الرحمن أيوب : اللغة والتطور ص ١١ ، ص ١٢ •

(3) J. Pinborg : Antike Grammatiktheorie, S. 91, 92 im Buch : Grundzüge der Literatur-und Sprachwissenschaft.

(4) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 8, 9.

بعدهم ، وذلك لصعوبة الدراسة فى هذا المجال ، حيث يحتاج الأمر الى معرفة لغات أجنبية • أما فى مجال النحو أو التركيب فقد تصور الرواقيون مفهوما معينا للجملة المركبة ، وناقشوا فى هذا المجال وظيفة الروابط ، كما ميزوا أيضا بين أنواع مختلفة من الجمل (المبتدأ فى حالة الرفع وكذلك الحالات التى تنحرف عن هذه الحالة ، والخبر المتعدى واللازم) ، كما أنهم توصلوا الى مفهوم التطابق (١) •

وابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد جدت أسباب هامة دعت علماء اليونان الى الاهتمام بدراسة اللغة ومشكلاتها ، وكانت أهم هذه الأسباب امتداد الحكم اليونانى بقيادة الإسكندر الأكبر وانتشار الثقافة اليونانية فى مناطق كثيرة من الشرق فى مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى ، وأصبحت اليونانية لذلك لغة منطوقة بين شعوب تلك البلاد التى تتحدث لغات أخرى غير اليونانية ، ونتج عن ذلك بالضرورة فروق لغوية بين نطق اليونانيين للغتهم ونطق تلك الشعوب لذات اللغة •

ونشأت حركة علمية تهدف الى المحافظة على اليونانية الكلاسيكية والاهتمام بلغة المؤلفين الكلاسيكيين وضرب الأمثلة من شعرهم ونصوصهم ، ودرست الإلياذة والأوديسيا لهوميروس نماذج تعليمية فى هذا الاطار (٢) •

ومن هذا المنطلق كان علم اللغة فى تلك الفترة وصفيا معياريا ، وصفيا لأن لغويى هذا العصر وصفوا الواقع اللغوى كما هو فى المناطق التى تتحدث اليونانية ومعياريا لأنهم اتخذوا النماذج الأدبية الكلاسيكية أمثلة ينبغى أن تحتذى فى خصائصها اللغوية وتركيباتها النحوية •

---

(1) J. Pinborg : Antike Grammatiktheorie S. 92.

وانظر أيضا :

Bloomfield : Language, thirteenth impression 1976 pp. 4, 5.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 9.

وبزغت فى مثل هذه الدراسات الوصفية المعيارية مدرسة الإسكندرية ابتداء من عام ٣٠٠ ق٠م ، ويشار فى هذا المقـام الى أريستراخوس (٢١٦ — ١٤٤ ق٠م) وهيروديان Herodian ابن أبولونيوس ، وحفظت بذلك مدرسة الاسكندرية التراث الأدبى اليونانى القديم ، حيث كثرت الشروح فى القرن الثالث قبل الميلاد لأشـعار هوميروس وغيره من الشعراء ، كما اهتموا بشرح المفردات الصعبة أو الكلمات غير المفهومة فى أشعار الأدباء الكلاسيكيين أو الألفاظ التى تنتمى الى لهجات خاصة (١) ٠

ولم يبق من تلك الأعمال اللغوية إلا عمل واحد هو كتاب ديونسيوس تراكس Dionysios Thrax (عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد) وهو كتاب صغير الحجم يتناول نحو اللغة الاغريقية ، وقـد ترجم الى الأرمنيـة والسوريانية ، ومن المرجح أنه ترجم الى العربية عن السوريانية (٢) ٠

ويمكننا أن نلخص فيما يلى من الصفحات أهم ما توصلت اليـه دراسات الفلاسفة وعلماء اللغة اليونانيين فى الفروع اللغوية المختلفة : الفنولوجيا — الصرف — النحو ، المعجم (٣) ٠

أما فى مجال الفنولوجيا فقد درست الأبجـدية اليونانية وحللت الفونيمات ، وقسمت الحروف (الأصوات) فى محاورة أفلاطون كراتيلوس الى سواكن حركات وأنصاف حركات ، كما ميز الرواقيون والنحويون اسم كل حرف ورمزه الكتابى وقيمته الصوتية ، هذا بالإضافة الى تمييزهم فى تلك الفترة الظواهر الصوتية الأخرى كالنبر والمقطع ودرسوها دراسة

---

(١) د ٠ محمد السعران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربى ص ٣٥١ وانظر أيضا : Bloomfield : Langnage p. 5.

(٢) د ٠ عبد الرحمن أيوب : اللغة والتطور ص ١٢ ٠

(٣) اعتمدنا فى كل هذه المعلومات على البحث القيم الذى كتبه جان بينبورج J. Pinborg المسمى : Antike Grammatiktheorie S. 94 - 97. فى كتاب : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

دقيقة الى حد كبير ، وأدركوا أن المقطع يتكون إما من حركة أو من ساكن وحركة ، وأشاروا الى توزيع الحروف وإمكانيات وقوعها فى الكلمة ، فهناك حروف تتمتع بحرية كبيرة فى موقعيتها فى الكلمة بداية أو وسطا أو نهاية على العكس من الحروف الأخرى التى تلزم موقعا واحدا فى الكلمة .

وكان الصرف جوهر الدراسة اللغوية فى علم القواعد القديم ، فكان هدفه الرئيسى التمييز بين أنواع الكلمات ، وتسجيل مجموعة من الخصائص النحوية والصرفية والدلالية لكل نوع من هذه الأنواع ، وقد ميز أفلاطون بين ما يمكن ترجمتها بالمبتدأ والخبر ، ويرى أرسطو أن أجزاء الحديث ينبغى أن تدرك على أنها أجزاء من السلسلة اللغوية ، فهى أنواع خاصة من الكلمات ، كما يذكر الحروف والمقطع والاسم (أو بتعبير أدق المبتدأ) والخبر ، والجملة والحالات التى تدخل ضمن الأشكال التى لا تندرج تحت الجملة التى يكون فعلها المضارع مرفوعا أو يشير فعلها الى حقيقة من الحقائق من أمثال : تطلع الشمس من الشرق .

أما الرواقيون فقد أشاروا الى أنواع أخرى من الكلمات كأسماء الذوات ، المنادى ، الفعل ، أداة التعريف ، أداة الربط (العطف) ، كما ميز النحاة المتأخرون أداة التعريف من الضمير والحرف من حرف العطف ، وعرفوا اسم الفاعل والظرف وحرف النداء كأجزاء من الحديث أو الكلام .

ويمكن القول بأن هذا النظام صنف الكلمة الى أنواع ثمانية معتمدا فى ذلك على معايير متعددة لغوية وفلسفية ومنطقية ، والأنواع الثمانية هى :

١ ــ الاسم (سواء أكان اسم ذات أم منادى أم صفة) .

٢ ــ الفعل .

٣ ــ اسم الفاعل واسم المفعول .

٤ ــ الضمير .

٥ ـ أداة التعريف •

٦ ـ الحروف •

٧ ـ أدوات الربط •

٨ ـ الظروف •

ويضاف فى اللاتينية الى هذه الأنواع الثمانية حرف النداء ، وقد حاول بعض علماء اللاتينية مثل فارو Varro (القرن الأول قبل الميلاد) ضم هذه الأنواع الثمانية فى مجموعات ، حيث ميز بين الكلمات المعربة (الاسم والضمير) ووضعها فى مجموعة واحدة والكلمات التى لها زمن (الأفعال) ووضعها فى مجموعة أخرى ، والكلمات التى جمعت بين الاثنين (اسم الفاعل واسم المفعول) ووضعها فى مجموعة ثالثة • أما الكلمات الخالية منهما فوضعها فى مجموعة رابعة والتى نطلق عليها اسم المبنيات •

وتعرض العلماء أخيرا فى مجال هـذه الدراسة الى بعض الظواهر العارضة التى تختلف عن أصلها تماما مثل النظر الى الصفة ودرجاتها من حيث التفضيل أو العـدد وأقسامه (مفرد — جمع) أو الاعراب وأشكاله (الرفع — النصب — الاضافة — الجر ••• الخ) أو الزمن فى الفعل وأنواعه (حاضر — ماض — قبل الماضى — الماضى المستمر — الحاضر القريب — المستقبل •• الخ) •

وفى مجال الدراسات النحوية خطا فلاسفة ومفكرو اليونان خطوات كبيرة فى هـذا المضمار ، فقد كانت أكثر الدراسات تنظيما ودقة عند علماء الاسكندرية البحث فى النحو وتركيب الجملة ، وبدأ أبولونيوس وبريسكيان Priscian (القرن السادس بعد الميلاد) تفسيراتهم النحوية بتصورهم لشكل اللغة ، ويتلخص هـذا الشكل فى أن أصغر عناصر اللغة هى الحروف ، ومنها تتركب المقاطع حسب نظام معين ومن المقاطع تتركب الكلمات ثم تتكون الجمل من هذه الكلمات •

ويرى أبولونيوس وبريسكيان أن هناك مشابهة بين صلة الحرف بالمقطع وصلة الكلمة بالجملة ، فكما أن الحروف تتتابع فى إطار نظام عقلى معين فإن الكلمات تخضع هى الأخرى لنظام محدود فى توالیها ، ولم يأت التتابع الذى ورد عند هؤلاء المفكرين ، وهو : الاسم ـــ الفعل ـــ اسم الفاعل ـــ الضمير ـــ أداة التعريف ـــ الحرف ـــ الظرف ـــ حرف النداء ـــ حرف العطف ، صدفة ؛ بل هو تمثيل صادق للجملة الكاملة .

حقيقة لا يغنى هذا التتابع عن موقعية الكلمة فى الجملة ، لكنه يشير الى عدد أغضاء الجملة ، ويمكن للإنسان من خلال تفسيرات مشابهة أن يصل الى مكان الكلمة فى الجملة ، فالاسم قبل الفعل ، واسم الذات قبل الصفة ، والفعل قبل الظرف ، هذا على الرغم من أن دراستهم هذه عن موقعية الكلمة فى الجملة يشوبها بعض الغموض وتنقصها دقة المنهج الحديث .

لكننا نلاحظ ـــ بما لا يدع مجالا للشك ـــ أن مثل هذه الدراسات اللغوية لا تقل كثيرا عن نتائج البحوث اللغوية المعاصرة ، فإن تقسيم الكلمات الى أنواعها المختلفة ونظرتهم الى شكل اللغة وعلاقة الحرف بالمقطع وتشبيهها بعلاقة الكلمة بالجملة عمل يقرب كثيرا من الدراسات اللغوية الحديثة .

وأشرنا فيما سبق الى أن الدراسة اللغوية عند اليونان اعتمدت أساسا ـــ فى البداية على الأقل ـــ على شعر الشعراء وأدب الأدباء ؛ أى أنها قامت على اللغة الأدبية المكتوبة وبخاصة نصوص أدباء المرحلة المتقدمة من أمثال هوميروس وغيره ؛ ومن ثم كتب ديونيسيوس تراكس فى بداية وصفه اليونانية قائلا : « إن القواعد عبارة عن معرفة مبنية على خبرة ما قاله الشعراء وكتاب النثر » (١) .

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 9.

وقد عارض هذا التعريف المفسرون والمفكرون الذين جاءوا بعده ، حيث رأوا أن النحـو ليس مجرد ملاحظة أو معرفة تعتمد على ما قاله الشعراء أو الأدباء ، ويشار الى أريستراخوس مفسرا هاما لهوميروس ودارسا أساسيا فى مجال البحث الوصفى للنحو اليونانى •

أما النحو اللاتينى فإنه يعد امتدادا للدراسات النحوية عند اليونان ؛ بل إن كثيرا من النحاة الذين ينتمون الى الفكر اليونانى يعدون مؤسسى النحو اللاتينى ، ويشار فى هذا المقام الى بريسكيان على أنه أحسن من نقل منهج الأنواع والأجناس الموضوعة للغة اليونانية الى اللاتينية مع تغييرات قليلة جـدا •

وظل منهجا الدراسات اللغويـة : النظرة الفلسفيـة التى تهتم باستخراج ما يكمن داخل المتكلم والدراسة الأدبية التى تهتم بالنص الخارجى صالحين كأساسين هامين فى العصور القديمة كلها سـواء عند اليونان أو عند اللاتينيين •

واعتبر المنهج الاسكندرى (ممن سار على هذا المنهج النحويان تراكس وأبولونيوس) الذى اهتم بدور علم اللغة على أنه دراسـة تجريبية للنص لخدمة أهداف وضرورات النقد الأدبى أساسا هاما عند معظم علماء اللاتينية ونحاتها المتأخرين من أمثال بريسكيان ودوناتوس Donatus (حوالى ٤٠٠ بعد الميلاد) (١) ، وقد رأينا تعريف تراكس للنحو بأنه : عبارة عن معرفة مبنية على خبرة ما قاله الشعراء وكتاب النثر •

وقد أثرت فكرة علماء اللاتينية عن النحو على الطريقة التى جاءت

---

(١) المرجع السابق ص ١١ وانظر ايضا :
Bloomfield : Language p. 6.

بها مؤلفاتهم ، وإن بحث بريسكيان الطويل : قوانين النحو institutiones grammaticae يمتلىء بتفسيرات وشروح تمثل أقواله النحوية مستخلصة غالبا من الأعمال النثرية والشعرية للأدب اللاتينى فى العصر الكلاسيكى أو من النموذج الذى حدده علماء اللاتينية المعاصرون له والذى نجده فى مثل إنجيل فولجاتا Vulgata - Bibel وهو الترجمة اللاتينية للإنجيل وقد ترجمه هيرونيموس Hieronymus فى القرن الرابع الميلادى (١) ٠

ويشار الى فارو Varro فى القرن الأول قبل الميلاد على أنه أشهر نحاة اللاتينية المتقدمين ، وكان منهجه متسلطا فى القوانين التى وضعها عن اللاتينية فى دراسته التى جاءت بعنوان De lingua latina (عن اللغة اللاتينية) ، كما يشار فى هذا المقام الى دوناتوس فى القرن الرابع بعد الميلاد والى كتابه القيم فى النحو Artes Grammatica (٢) ٠

ولم يقدم علماء اللغة اللاتينيون كنظرائهم اليونانيين تماما دراسات تاريخية دياكرونية بجانب بحوثهم الوصفية فى اللغتين على السواء ، حيث لا نجد دراسة تاريخية للصلات اللغوية بين اللاتينية واليونانية ، هذا بالإضافة الى عدم اهتمامهم بلغات أخرى غير هاتين اللغتين ؛ ومن ثم بقيت دراسة اشتقاق الكلمات عند هؤلاء العلماء دون جدوى ٠ حقيقة قد نعثر أحيانا على دراسات متناثرة تناولت الصلة بين هاتين اللغتين كالتى نجدها عند فارو حيث أشار الى أن الأبجدية اللاتينية مأخوذة من اليونانية ، كما اعتبر أن اللاتينية مشتقة مباشرة من اللهجة اليونانية الغربية التى امتزجت بالبربرية (٣) ٠

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 11.

(٢) د ٠ محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٥٢ وانظر أيضا :

J. Pinborg Antike Grammatiktheorie im Buch : Grundzüge der Literatur-und Sprachwissenschaft S. 94.

(3) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 11.

وفى تأليف المعاجم كان لليونان باع طويل فى هذا المضمار ، ويشار الى أفلاطـــون أبوقراطس Hippocrates الطبيب (عاش من ٤٦٠ حتى ٣٧٧ ق٠م) مؤلفين لقواميس يونانية ، كما وضع أرسطو فانس البيزنطى (٢٥٧ — ١٨٠ ق٠م) أمين مكتبة معبد الاسكندرية قائمـــة الكلمات اليونانية الصعبة ثم شرحها وحدد معانيها ، كما ألف بامفليوس السكندرى (٥٠ بعد الميلاد) قاموسا فى خمسة وعشرين مجلدا استوعب فيه كل القواميس التى سبقته • ثم ألف ديانيسيوس Alelius Dianysius (١٢٠ بعـــد الميـــلاد) قاموســـا للكلمات الأثينيـــة attic words جـــاء فى عشرة مجـــلدات ، وألف يوليوس بولكس Yulius Pollax معجما معنويا •

أمـــا فاليريوس فلاكـــو Valerius Flaccu فقد وضع قاموســـا اسمه « فى معانى الألفاظ » فى عهـــد الامبراطور أغسطس ، ومايزال موجزه باقيا حتى الآن ، كما صنف أريون الطيبى (نسبة الى طيبـــة المدينة المصرية القديمـــة ، وعاش فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى) قاموسا فى اشتقاق الكلمات •

وألف هسكيوس السكندرى Hesychius of Alexandria (عاش فى القرن الخامس الميلادى) أعظم القواميس اليونانية القديمـــة ، وقد تنوعت القاميس اليونانية تنوعا كبيرا ، فهناك قواميس خاصة بأوانى الطبخ والشرب وأخرى تهتم بشرح الكلمات الغامضة وكلمات اللهجات وثالثة تهتم بالأشعار الدرامية tragic ورابعـــة بالهزليـــة comic ، وقد اتبعت هذه القواميس فى تنظيم مادتها اللغوية الترتيب المعنوى أو الموضوعى •

أما التأليف فى القواميس اللاتينية فقد بدأ متأخرا جدا عن التأليف فى المعاجم اليونانية ، وأول مؤلف تصلنا أخباره هو ماركوس فيريوس فـــلاكوس Marcus Varrius Flaccus الذى عاش فى القـــرن الأول

الميلادى • ثم توالى بعـد مـدة ليست بالقصيرة التأليف فى المعاجم اللاتينية ، وكان هدفها شرح الكلمات الصعبة فى هذه اللغة •

ومن المهم أن نشير الى أن القواميس اللاتينية تأثرت فى طريقـة ترتيبها للمادة اللغوية بالقواميس اليونانية ، ويقال دائما — إن القواميس اليونانية لا تعد الأساس للقواميس اللاتينية فحسب ؛ بل لكل القواميس فى اللغات الأوربية الحديثة كالفرنسية والألمانية والإيطالية (١) •

ثانياً : الصينيون

إن المعلومات التى وردت للباحثين عن التفكير اللغوى عند الصينيين ليست بالوفرة التى جاءت بها المعلومات عن التفكير اللغوى عند اليونان لضياع كثير من المـادة العلميـة التى ألفهـا الباحثون اللغويون فى الصين القديمـة •

نشأ البحث اللغوى عند الصينيين استجابة لدراسة الأدب الكلاسيكى والنصوص القديمة ورغبة فى تدوين نظام الكتابة التصويرية التى كانت تكتب بها اللغة الصينية القديمة ؛ ولم تؤد دراسـة نطق الرمـوز فى تلك اللغة الى بحث منظم للتركيب الفوناتيكى فى المقاطع •

انتعشت الدراسات الفنولوجية الصينية فى العصر المتأخر بتأثير التعليم اللغوى للرهبان البوذيين الذين كانوا يتكلمون السنسكريتية حيث أثروا على الصينيين منذ القرن الخمس قبل الميلاد ؛ ومن ثم دون علماء اللغة الصينيون نحو اللغة الكلاسيكية بتراكيبها المتنوعة وأشكال كلامتها المتعـددة (٢) •

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية مجلد ٩ مادة : Dictionary

(2) Robins : Ideen - und Problemgeshichte der Sprachwissenschaft, S. 6.

أما فى المجـال المعجمى فنجـد أول محاولة فى القاموس المسمى Erhya الذى يرجع تاريخ تأليفه الى القرن الثانى قبل الميلاد • وأما المحاولة التالية فكانت المعجم الشهير المسمى Shwo Wang والذى ألفه هوشن Hu-Shin عام ١٥٠ قبل الميلاد ، ويعد المعجم المسمى يوبيان Yu Pien الذى ألفه كويى ونج Kuye Wang فى القرن السـادس الميلادى أشهر المعاجم الصينيـة على الاطلاق ، ويقع هذا المعجم فى اثنى عشر مجلدا •

ومن المهم أن نشير الى أن المعاجم الصينية رتبت المـادة اللغوية ترتيبا صوتيا تبعا لنطقها ، فكل الكلمات ذات الصوت الواحد تعالج معا فى باب واحد بغض النظر عن الاختلاف فى طريقة كتابتها ، وكان ذلك ابتداء من أواخر القرن السادس الميلادى (١) •

ثالثا : الهنـود

ترجع الدراسات اللغوية فى الهند الى قرون عديدة قبل الميلاد ، وكان الدين البراهمى the Brahmin religion سببا فى الاحتفاظ ببعض مجموعات من التراتيل القديمـة جدا كنصوص سرية لهذا الدين ، وترجع أقدم هذه النصوص والتى تسمى Rig - Veda الى حوالى ١٢٠٠ قبل الميـلاد (٢) ؛ كما يطلق على هذه المرحلة اسـم المرحلة الفيدية Vedische Periode (٣) (= Vedic Period بالانجليزية) ، ولمـا كانت لغة مثل هذه النصوص مهجورة فإن الالتزام بشرحها وتفسيرها أصبح واجب مجموعة خاصة من المتعلمين ، وقد اهتمت جماعة الهندوس بهذه النصوص المقدسة ، فدرسوا أصواتها وقننوا القواعد الخاصة

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية مجلد ٩ مادة : Dictionary

(2) Bloomfield : Language p. 10.

(3) Robins : Ideen - und problemgeschichte . . . S. 6.

بظواهرها النحوية ، ووضعوا قوائم من كلماتها لشرحها وتفسيرها وأصفين نموذجا صحيحا سموه اللغة الفصحى أو السنسكريتية ، وذلك للاحتفاظ بنقائها وصفائها حتى لا تتغير بمرور الزمن أو تفسد بمخالطتها لهجات أخرى (١) .

وكانت هذه الدراسات اللغوية مقدمات لأعظم دراسة لغوية هندية قديمة التى تنسب الى أعظم النحاة القدماء ليس فى الهند وحدها وإنما فى العالم القديم كله ونعنى به النحوى الشهير بانينى Panini (٢) .

يرجع الفضل لبانينى فى أنه وصف بدقة كبيرة الخصائص النحوية اللغوية للسنسكريتية ، وربما كان هذا التقنين الممتاز سببا فى أن السنسكريتية صارت بمرور الوقت اللغة الرسمية والأدبية لكل الهنود البراهمة واللغة التى تنطقها الطبقة العليا التى تعيش فى الشمال الغربى من بلاد الهند حوالى القرن الرابع قبل الميلاد (٣) . ونال كتابه المسمى الأقسام الثمانية Ashtàdhyàyi شهرة عظيمة حيث بذل فيه جهدا كبيرا ; وجاء وصفه للظواهر اللغوية وصفا دقيقا الى حد كبير (٤) ; كما جاءت الدراسات اللغوية عند الهنود القدماء فى إطار فروع لغوية ثلاثة : الأصوات والنحو والمعجم .

أما فى الأصوات فقد أدرك الهنود القدماء الأسس العضوية (الفسيولوجية) فى تكوين الصوت ، واذا كان اليونانيون لم يفطنوا الى دور الأوتار الصوتية فى تقسيم الأصوات الى مهموسة ومجهورة فإن

---

(١) المرجع السابق ص ٧ .

(٢) اختلف العلماء فى تحديد الفترة التى عاش فيها ، فعلى حين يرى بلومفيلد مثلا أنه عاش من ٣٥٠ الى ٢٥٠ قبل الميلاد (ص ١١ من كتابه Language) لا يحدد روبنز فترة معينة لحياته ويرى أنه عاش خلال الفترة من ٦٠٠ الى ٣٠٠ قبل الميلاد (ص ٧ من كتابه (Ideen - und Problemgeschichte ..

(3) Bloomfield : Language p. 63.

(٤) د . أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب ص ٤٢ .

قدماء الهنود أدركوا وظيفة الأوتار فى تقسيم أصوات لغتهم الى هذين النوعين من الأصوات ، كما صنفوها الى أنواع حسب المخارج معتمدين على الأسس الفسيولوجية أيضا دون الاعتماد على الآثار السمعية كما فعل اليونان فى تصنيف أصوات لغتهم ؛ ولذا جاء التصنيف الهندى أدق من نظيره عند اليونان (١) .

ولما تشابه تصنيف الهنود القدماء لأصوات السنسكريتية مع تصنيف العرب لأصوات لغتهم بالنظر الى المخرج ولما كانت الدراسات الهندية تسبق فى الزمن نظيرتها العربية فقد دعا ذلك كثيرا من المفكرين واللغويين الى القول بأن العرب اعتمدوا اعتمادا كبيرا على التصنيف الهندى وخاصة فيما يتصل بترتيب الأبجدية الصوتية عند الهنود من الحلق الى الشفاة ، وهو ذات الترتيب الذى اتبعه الخليل بن أحمد فى تصنيفه وفى تنظيم أبواب معجمه « العين » . والحق أن هذه القضية وهى تأثر اللغويين العرب بالهنود القدماء يحتاج الحكم فيها الى دراسة مستقلة حيث لا توجد حتى الآن أدلة قاطعة تثبت مثل هذا التأثر .

وأما فى النحو فقد امتازت الدراسات النحوية الهندية بأنها ابتعدت عن الاعتماد على المنطق كما فعل علماء اليونان ، وجاء وصف الهنود القدماء للظواهر النحوية وصفا مجردا من أى اعتماد على الأسس الفلسفية المنطقية ؛ بل على حقائق اللغة ذاتها ، كما أنه سبق النحو اليونانى فى تحديد أنواع الكلمة (اسم — فعل — حرف .. الخ) . وميز بين الجذر او الأصل والزيادة أو الحروف التشكيلية ؛ ثم عرف النحو الهندى بالإضافة الى ذلك الأعداد الثلاثة : المفرد والمثنى

(١) د . محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٩٢ — ص ٩٦ .

والجمع منذ عصر مبكر ، وقسم النحاة الهنود الفعل فى اللغة السنسكريتية الى ثلاثة أقسام بحسب الزمن : ماض وحاضر ومستقبل (١) .

وفى مجال الدراسات المعجمية شرح اللغويون الهنود ألفاظ نصوصهم الدينية المقدسة ، فقاموا بعمل قوائم للكلمات الصعبة الموجودة فى هذه النصوص ثم بينوا معانى هذه الكلمات ، وتم ذلك فى المرحلة الفيدية . أما بداية التأليف فى المعاجم الهندية فإننا لا نعثر على معاجم ترجع الى ما قبل الميلاد كما فى مجال الدراسات الصوتية أو النحوية ، وأول معجم تصلنا أخباره هو ما يسمى بالأماراكاكا the Amarakacca الذى ألف فى القرن الخامس الميلادى ، ورتبت فيه المادة اللغوية حسب معانى الكلمات (٢) .

(١) د . أحمد مختار معر : البحث اللغوى عند العرب ص ٤٢ ، ص ٤٣ .

(2) Encyclopedia of Eslam, Vol. II, p. 887.

الفصل الثانى

الدراسات اللغوية فى العصور الوسطى وعصر النهضة

أولا ــ عنــد العرب

لا نود فى هذا المقام أن نعرض بالتفصيل للنظريات المنهجية فى دراسة اللغة عند علماء العربية القدامى ، فقد قام بهذه المهمة أساتذة أجلاء عرضوا بالنقد والتحليل للملامح الفكرية فى الدراسات اللغوية عند علماء العربية (١) ، إنما نود أن نلم إلمــامة سريعة بأهم الملامح البارزة فى فكرهم اللغوى .

من المعروف أنه لم تؤثر عن العرب أى نوع من الدراسات اللغوية قبل الاسلام ، أى أن البداية عندهم جاءت متأخرة زمنيا عن البدايات فى الأمم الأخرى التى سبق الحديث عن جهودها اللغوية والتى يرجع بعضها الى ما قبل الميلاد بعدة قرون .

كان النبى عليه الصلاة والسلام المرجع الأساسى لكل ما يعن للمسلمين من ألفاظ غامضة أو معان صعبة فى القرآن الكريم ، وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى قام بهذه المهمة الصعبة صحابة اشتهروا بالعلم والمعرفة كأبى بكر وعمر وعلى وابن عباس وغيرهم ، وتتحدث الروايات عن ابن عباس مؤلفا فى غريب القرآن ، ولعل هذا المؤلف كان أقوال ابن عباس وتفسيراته لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، كمــا فهمها من النبى الكريم ، ولعله كان شاملا لأقوال بعض الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله عليهم فى شرح بعض هذه الألفاظ أو القضايا التى وردت فى القرآن الكريم .

---

(١) أنظر على سبيل المثال : اللغة العربية معناها ومبناها ، الأصول : دراسة ابيستيمولوجية لأصول الفكر اللغوى العربى (د . تمام حسان) ، دراسات نقدية فى النحو العربى (د . عبد الرحمن أيوب) ، من أسرار اللغة (د . ابراهيم أنيس) ، دراسات فى علم اللغة ، القسم الثانى ، علم اللغة العام : لأصوات (د . كمــال بشر) ، البحث اللغــوى عند العــرب (د. أحمد مختار عمر) .

وتتابعت بعد ذلك كتب غريب القرآن وغريب الحديث مثل كتاب أبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ١٢٠ هـ) فى غريب الحديث وكتاب أبى سعيد بن تغلب بن رباح البكرى (ت ١٤١ هـ) فى غريب القرآن •

وعلى هذا المنوال فى جمع المادة اللغوية وجدنا كتبا فى النوادر والهمز وكتبا فى الحيوان وخلق الانسان ، وتتبع كلها منهجا واحدا وهو جمع المادة اللغوية وشرح مفرداتها وتنظيمها دون وضوح فى المنهج أو فى الطريقة ، ويمكن القول باختصار بأن الاهتمام بجمع المادة اللغوية ومفرداتها والذى يندرج تحت ما يسمى بمتن اللغة سبق الاهتمام بالفروع اللغوية الأخرى من نحو وأصوات وصرف •

وبعد تلك المرحلة الأول فى جمع المادة اللغوية دون ترتيب أو تنظيم بدأ اللغويون المرحلة التالية بتبويب وتصنيف هذه المادة حسب المعنى أو حسب الموضوعات التى تدور حولها الألفاظ والمفردات ، ثم توجت هذه الجهود بظهور المعاجم العربية وبتأليف أول معجم شامل فى اللغة العربية ألا وهو معجم العين للخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) •

ويربط كثير من العلماء التأليف فى الفروع اللغوية المتنوعة كالنحو والأصوات والصرف والمعاجم بأغراض دينية وأخرى دنيوية ؛ فبعد أن تم فتح بلاد الفرس فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل غير العرب فى دين الله أفواجا ، وأخذ الوافدون الجدد فى تعلم لغة دينهم الجديد محاولين اتقانها واكتساب نظامها النحوى ودلالات ألفاظها . ولكن جاء الاتقان غير كامل ؛ فليس الغريب كابن اللغة الذى تعلمها منذ الصغر واستوعبها فهما وطبقها استعمالا فى المواقف المختلفة ؛ ومن ثم شاع اللحن وانتشر على ألسنة هؤلاء الوافدين •

ومن الضرورى الإشارة الى أن اللحن ظهر فى كلام غير العرب قبل ذلك بمدة طويلة ويروى أن رجلا من هؤلاء المتعربين لحن بحضرة النبى عليه الصلاة والسلام فقال عليه السلام : « أرشدوا أخاكم فقد

ضل » (١) ، وإن كان لم ينتشر اللحن أو يصبح ظاهرة عامة تلفت أنظار الغيورين على الإسلام واللغة العربية إلا بعد الفتوحات الإسلامية فى بلاد فارس والشـــام •

وكان اللحن أشد ما يكون على المسلمين فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومن الطبيعى أن يتنوع اللحن ويتوزع بين المستويات اللغوية المختلفة ، فهناك خطأ فى نطق بعض الأصوات وبخاصة الأصوات العربية التى لا نظير لها فى لغاتهم الأصلية كصوت الضاد مثلا وجاء الخطأ إما فى المخرج أو فى الصفات كالجهر والهمس أو الانفجار والاحتكاك أو فى الاثنين معا • وهناك لحن فى مجال الصرف كاشتقاق الصيغ أو فى التذكير والتأنيث أو فى غيرها من الظواهر الصرفية الأخرى •

أما فى مجال النحو فقد شاع اللحن فى الإعراب وفى تركيب الجملة وبالطبع فى علاقات الكلمات النحوية بغيرهـــا من الكلمات الأخرى فى المطابقة أو المخالفة فى التذكير والتأنيث أو فى التعريف والتنكير أو فى غيرهما من أنواع المطابقات •

وإن الرواية التى تتحدث عن قراءة واحد من المسلمين قوله تعالى « أن الله برىء من المشركين ورســـوله » بكسر لام رسوله مخطئا فى إعرابها لتدل دلالة قاطعة على أن اللحن شاع وانتشر فى النحو بصفة عامة وفى مجال الإعراب بصفة خاصة ، وسواء أصحت هذه الرواية أم لا فإن هذا لا يمنع من القول بانتشار اللحن فى اللغة وشيوعه لوجود روايات أخرى عديدة تشير الى المعنى نفســـه •

ومن المهم أن نشير الى أن هذا اللحن لم يعد قاصرا على الأعاجم فقط ؛ بل تعداهم الى بعض أبناء العربية أنفسهم ؛ ومن ثم كانت الطبقة

---

(١) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ص ٢٣ (تحقيق : محمـــد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية ١٩٧٤) .

العليا من حكام وأمراء أيام الأمويين أحرص الناس على عدم وقوعهم فى مثل هـذه الأخطاء ، وكان عبد الملك بن مروان يقـول : « شيبتنى خشبتان : النعش والمنبر ، وشهد يحيى بن يعمر على الحجاج باللحن فى كتاب الله أثناء الصلاة فنفاه الحجاج ؛ لهذا رأينا أبا الأسود ينهض لنقط المصحف ضبطا لإعرابه ، فكانت هذه هى البداية التى لا جدال حولها للنحو » (١) .

ويقصد بالأهداف الدنيوية التى ساعدت على التأليف اللغوى هو أن العربية أخذت تحتل تدريجيا المكانة التى كانت تحتلها الفارسية فى فارس والآرامية واليونانية فى بلاد الشام ومصر ، فكانت هى الوسيلة الضرورية الى تقلد المناصب العليا فى الدولة . حقيقة ظلت الفارسية فى شرقى الدولة واليونانية فى غربها قرنا كاملا لسان الحكم والادارة(٢) . لكن كانت العربية لغة القرآن ولغة الدولة ، فهى عـدة فى يد العربى للتفوق والتسلط ؛ ومن ثم لم يكثر بين الموالى فى العهد الأموى من وصل الى مكان على فى الدولة ... ولعل اللغة كانت الحاجز الأول الـذى يحول بين معظم الموالى وبين الوصول الى هذه المناصب الرفيعة ، ولذا نجـد أن الموالى انتزعوا الراية النحوية من أيدى الطبقة الأولى من النحاة العرب كأبى الأسود وغيره ، فكانت جمهرة النحاة منهم ، فلا ترى بعد الطبقة الأولى نحاة عربا إلا قلة لا تكاد تذكر كأبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمـد » (٣) .

هكذا أصبحت معرفة اللغة العربية ضرورة لأغراض الإدارة وإنجاز

---

(١) د . تمام حسان : الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوى عند العرب : نحو . فقه لغة . بلاغة ص ٢٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .

(٢) يوهان فيك : العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ص ١٤ ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، مطبعة دار الكتاب العربى ١٩٥١

(٣) د . تما محسان : الأصول ص ٢٦ .

الإجراءات القانونية والسياسية ووسيلة للمناصب العليا فى الدولة الإسلامية (١) .

ونوجز فيما يلى أهم الملامح الفكرية فى الدراسات اللغوية عند العرب . فى مجال الأصوات قدم اللغويون العرب القدماء دراسات جديرة بالتقدير والاعجاب ؛ يعاب عليهم أنهم لم يدرسوا الأصوات مقدمة لدراسة الصرف والنحو والدلالة كما هو الحال فى الدراسات اللغوية الحديثة . فمن المعروف أن كثيرا من الظواهر اللغوية فى المستويات المختلفة تعتمد اعتمادا كبيرا على الدراسات الصوتية ، فمباحث الصرف مبنية فى أساسها على ما يقرره الأصوات من حقائق وما يرسمه من حدود ، وكل دراسة صرفية تهمل هذا النهج لابد أن يكون مصيرها الاخفاق والفشل ، كما هو الحال فى كثير من مباحث الصرف فى اللغة العربية » (٢).

كذلك لا يقل النحو عن الصرف فى اعتماده على الأصوات ، وإنه لن الخطأ أن يهمل النحاة الحقائق الصوتية فى إجراء بحوثهم وتحليل مادتهم . فهذه المادة بكل بساطة إنما تتألف من عناصر صوتية وأخرى صرفية . وهذا يعنى من الناحية المنهجية ضرورة ربط النحو ربطا وثيقا بعلم الأصوات والصرف (٣) ..

ويعد الخليل بن أحمد أول من درس أصوات العربية وصنفها تصنيفا علميا دقيقا يقوم على أسس عضوية فسيولوجية ، ومن الملاحظ أن المأثور عن اليونان والرومان القدماء فى الدراسات الصوتية يقوم فى جملته على بيان الآثار السمعية التى تتركها الأصوات فى أذن السامع على حين نرى أن الهنود والعرب أدركوا الأسس الفسيولوجية فى تكوين

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte . . . S. 7.

(٢) د . كمال بشر : علم اللغة العام ، الأصوات ص ١٨٤ ، ص ١٨٥ (دار المعارف : الطبعة السابعة ١٩٨٠) .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٧ .

الأصوات المختلفة وذلك بفحص عمليات أعضاء النطق وتحديد مواضعها بالنسبة لكل صوت ودرجة اتصالها وغير ذلك من المواضيع الصوتية الأخرى » (١) .

ويشير كثير من الدارسين الى احتمال تأثر الخليل بن أحمد فى ترتيب مخارج الأصوات من الحلق الى الشفاة بما ورد عن الهنود من ترتيب أصوات لغتهم من العمق الى الفم ، وسبق أن أشرنا الى عدم وجود أدلة قاطعة تؤكد مثل هذا التأثر (٢) .

ميز الخليل بن أحمد بين النوعين الرئيسيين فى الأصوات : السواكن والحركات ، فالنوع الأول وهو ما سماه بالحروف هى التى أولاها علماء العربية جميعهم عناية خاصة وبذلوا جهدا كبيرا فى تصنيفها وتقسيمها . أما الحركات فلم تحظ بمثل هذه العناية باعتبارها مساعدة للحروف فى تشكيل الكلمة وبنائها .

ومن مظاهر هذه العناية توزيع الحروف أو السواكن على مخارجها ونسبة كل واحد منها الى حيز من أحياز النطق المعروفة ، فيقول الخليل : « فى العربية تسعة وعشرون حرفا ، منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا . لها أحياز ومخارج ، وأربعة هوائية ، وهى الواو والياء والألف اللينة والهمزة » ، ويذكر الخليل مخرج كل حرف منها ، ولكنه لا يسلك هذا المسلك مع الألف والياء والواو حيث ينص على أن الألف اللينة والواو والياء هوائية ، أى أنها فى الهواء (٣) .

ويأتى ابن جنى بعد ذلك ويربط بين هذه الحروف الهوائية والحركات

---

(١) د . خليل يحيى نامى : دراسات فى اللغة العربية ص ٧ (١٩٧٤) وأنظر أيضا : د . محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٩٤ (دار المعارف ١٩٦٢) .

(٢) أنظر ص ٢٢ من هـذا الكتاب .

(٣) الخليل بن احمد : كتاب العين جـ ١ ص ٦٤ ، ص ٦٥ (تحقيق د . عبد الله درويش) .

القصيرة قائلا — « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهى الألف والياء والواو ، فكما أن هـذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحـة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة ، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة » (١) .

حقيقة لم يضع اللغويون العرب تعريف محددا لكل نوع منهما ، فلا نجـد تعريفا للسواكن يبين أهم خصائصها الصوتية التى تميزها من الحركات كالذى نجده عند علماء اللغة المحدثين من حبس كلى أو جزئى للهواء ... الخ عند نطقها أو تعريف الحركات يوضح خواصها النطقية وهـو خروج الهواء بحرية أثناء النطق ؛ إلا أنهم على الرغم من ذلك يدركون الفرق بين النوعين .

وجاء تقسيم اللغويين العرب القدماء للأصوات الساكنة بالنظر الى المخرج أو الى طريقة خروج الهواء خلال أعضاء النطق أو الى الجهر والهمس أو التفخيم والترقيق دقيقا الى حـد كبير ، هذا على الرغم من وجود بعض الخلافات بينهم وبين المحدثين فى وصف بعض السواكن كالقاف والضاد والطاء ، والتى يمكن إرجاع معظمها الى تطور فى نطق هذه الأصوات فى اللغة العربية عبر القرون (٢) .

أما فى النحو فإن معظم الروايات تشير الى أن أبا الأسود الدؤلى أول من وضع أبوابا فى النحـو لعصمة الألسنة من الخطأ (٣) . وتشير

(١) ابن جنى : سر صناعة الاعراب جـ ص ١٩ (تحقيق : مصطفى السقا وآخرين) .
(٢) لتوضيح نقاط الخلاف بين اللغويين العرب القدامى والمحدثين فى وصف أصوات اللغة العربية وتصنيفها انظر كتب الدكتور كمال بشر : علم اللغة العام ، الأصوات ص ٧٥ — ص ١٤٤ . وكتاب الدكتور أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب ص ٧٥ — ص [illegible] .
(٣) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ص ٢٤ .

بعض الروايات الى أن الذى فعل ذلك على بن أبى طالب نفســه أو أن أبا الأسود وضع أبوابا فى النحو بتكليف من الإمام على ، وتؤكد هذه الروايات على الرغم من الخلافات الواضحة بينها أن بداية التفكير فى وضع دراسات نحوية لمحاربة مثل هذا اللحن نشأت مبكرة فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى •

وكان من الطبيعى أن يكون عدم التخصص فى فرع لغوى الطابع المميز للدراسات اللغوية عند الطبقات الأربعة الأولى من اللغويين من أمثال أبى الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر ، وعبد الله بن إسحاق الحضرمى (ت ١١٧) الذى قيل عنه : إنه أعلم أهل البصرة وأنقلهم ، ففرع النحو وقاسه وتكلم فى الهمز حتى عمل منه كتاب مما أملاه (١) • وأبى عمرو ابن العلاء وعيسى بن عر الذى ألف كتابين سمى أحدهما الجامع والآخر الإكمال ، وقد قيل فيهما :

ذهب النحــو جميعا كلــه غــير ما أحدث عيسى بن عمر
هــذا إكمــال وذلك جــامع فهما للنــاس شمس وقمــر

إن المؤلف فى هذا العصر كان يشتمل على أبواب فى النحــو وأخرى تدخل فى مجال الصرف وثالثة تندرج تحت ما يسمى بمتن اللغة • هكذا كان الكتاب يتضمن أبوابا يمكن إلحاقها — حسب التقسيم الدقيق لفروع علم اللغة الحديث — بعدة مستويات أو بفروع لغوية متنوعة •

وظل هذا الطابع — عدم التخصص — ساريا الى أن جاء الخليل ابن أحمــد وسيبويه ، فبدأ فرعان لغويان ينفصلان : فرع المعجمة الذى تميز واضحا فى معجم « العين » وفرع النحــو والصرف (القواعد) الذى وضحت معالمه فى كتاب سيبويه •

---

(١) السيوطى : المزهر جـ ٢ ص ٢٠٠ .

ويعد كتاب سيبويه أساس الدراسات النحوية التى تلته حتى لقد سماه الناس قرآن النحـو ، ويشير أبو الطيب اللغـوى الى سيبويه قائلا : « أخذ النحو عن الخليل جماعة لم يكن فيهم ولا فى غيرهم من الناس مثل سيبويه وهو عمرو بن قنبر ، وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل ، وألف كتابه الذى سماه الناس قرآن النحو ، وعقـد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل » (١) •

ويرجع الفضل لسيبويه فى أنه وضع الإطار الشامل للنحو العربى ، هذا على الرغم من تناول الكتاب لموضوعات أخرى يندرج بعضها فى إطار علم الصرف والبعض الآخر فى الأصوات أو فى البلاغة •

أما المنهج الذى اتبعه سيبويه فى دراسته النحوية فهو منهج ينحو منحى الفطرة والطبع بعيدا عن المنطق اليونانى ، يدرس أساليب الكلام فى الأمثلة والنصوص ليكشف عن الرأى فيها صحة وخطأ (٢) ، فلم يعلل التعليلات الفلسفية أو يقدر التقديرات التى شاعت عند اللاحقين له ، وذلك لأن سيبويه عاش فى عصر لم تكن فيه الفلسفة اليونانية أو المنطق اليونانى تسربا الى النحـو العربى ، ولا يعنى ذلك بالضرورة خلو الكتاب من أى تأثير فلسفى ، ولكنه يعنى قلة التأثر بالمنطق اليونانى فى المؤلفات الأولى ؛ حيث إنه من المعروف أن الفلسفة اليونانية تسربت الى الثقافة العربية بكثرة فى عصر الخليفة المأمون الذى كان يميل الى مذهب المعتزلة والذى يعتمد ــ كما نعلم ــ على الأدلة العقلية فى المقام الأول ، هذا بالاضافة الى الأدلة النقلية • ومن هنا بدأ الطور الثانى فى الثقافة العربية الاسلامية ، ورأينا النحاة منذ ذلك الوقت يعتنقون مذهب الاعتزال فيخالطون الفكر اليونانى الذى جاءت به جهود الترجمة ، ولا نكاد نظفر بسيرة واحد من كبار أئمة النحـو فى عهد المـأمون وبعده

---

(١) أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ص ١٠٦ .

(٢) على النجدى ناصف : سيبويه امام النحاة ص ١٦٣ (الطبعـة الثانية ١٩٧٩) .

حتى نهاية القرن الرابع تقريبا إلا وجدناه على مذهب الاعتزال ، أو تأثر بالبيئة فأولع بالنظر العقلى فى النحو ، بدءا بالفراء فى القرن الثالث ، وانتهاء بأبى على الفارسى وابن جنى فى نهاية الرابع .. » (١) .

ولذا نجد بعض الباحثين المحدثين من يشبه نهج سيبويه فى التحليل اللغوى بالمدرسة التحليلية الشكلية الحديثة التى تعتمد فى التحليل على الشكل دون المضمون ، فلم يتورط فى مشكلة التعريفات التى وقع فيها النحاة من بعده من ذكر أركان معينة للتعريف ثم استثنائها ركنا ركنا فيما بعد مما يتعارض ومبدأ التعريف ذاته ، ومن أوضح الأمثلة على هذا تعريف الحال الذى قيل بأنه وصف فضلة مفهم فى حال ثم وجدنا أنه من الممكن أن يكون جامدا وألا يستغنى عنه الكلام وأنه يأتى من الوصف اللازم ... » (٢) .

ومن الأمثلة الواضحة على تخلص سيبويه من التعريفات التى ازدهرت عند النحاة بعد عصره أنه لا يعرف النوع النحوى وإنما يذكر أمثلته وتقسيماته ، ويمكننا الوقوف على هذه الظاهرة من تناوله باب الكلام وتقسيمه الكلم الى اسم وفعل وحرف دون تعريف أو تحديد لأى نوع منها ، يقول سيبويه :

« فهذا باب علم ما الكلم من العربية ، ويبدأ الباب بالتقسيم قائلا : « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل ، فالاسم رجل وفرس وحائط ، وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولما يقع وما هو كائن لم ينقطع ، فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحمد ، وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك آمرا : اذهب واقتل واضرب . ومخبرا يقتل ويذهب ويضرب ويقتل

---

(١) د . تمام حسان : الأصول ص ٥٢، ٥٣ .
(٢) د . عبد الرحمن أيوب : سيبويه والمذهب الشكلى ، بحث قيم فى العدد الثانى من مجلة كلية الشريعة .

ويضرب ، وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن اذا أخبرت ، فهذه الأمثلة التى أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، ولها أبنية كثيرة ستبين إن شاء الله ، والأحداث نحو الضرب والحمد والقتل • وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو : ثم وسوف وواو القسم ولام الاضافة وغيرها » (١) •

وعلى الرغم من الاعتراف بقيمة هذه الدراسات النحوية التى وردت عن العرب فإن هذا لا يمنع من القول بوجود أخطاء منهجية فى تقعيدهم للمادة اللغوية • ومن هذه الأخطاء أنهم اعتمدوا — وبخاصة البصريين — على عدد من القبائل ، ولم يقصروا استقاء المادة على قبيلة واحدة ، وتحديد القبائل المأخوذ عنها بعدد معين فيه نوع من تحديد البيئة وهو ما ينادى به علم اللغة الوصفى الحديث ، ولكنه كان تحديدا واسعا وبخاصة أن بعض القبائل ينتمى الى مناطق بعيدة مترامية الأطراف ، ومن الواضح أن هذا الاختلاف الجغرافى لابد أن يتبعه حتما اختلاف فى العادات اللغوية • أما الكوفيون فكانوا يجيزون الأخذ عن أى عربى بغض النظر عن منطقته الجغرافية ومنزلته الثقافية أو بيئته التى ينتمى اليها » (٢) •

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عدم اقتصارهم فى التقعيد على مستوى لغوى واحد كمستوى الشعر أو مستوى النثر ، وإنما خلطوا المستويين معا ، ومن المعروف أن الشعر قد يجيز من الظواهر اللغوية مالا يجيزه النثر مما يؤدى الى الاضطراب فى وضع بعض القواعد اللغوية •

وفى مجال الصرف اهتم العرب ببيان أنواع الكلمة من اسم وفعل

---

(١) سيبويه : الكتاب جـ ١ ص ١٢ (تحقيق وشرح عبد السلام هارون ١٩٧٧) •

(٢) د• كمال بشر : دراسات فى علم اللغة ، القسم الثانى ص ٦٣ (دار المعارف ١٩٦٩) •

وحرف أو مشتق وجامد ، وبيان اللواحق والزيادات والإعلال والإبدال .. الخ ، قدموا دراسات جيدة فى هذا المجال ، وهذا الفرع من دراسة اللغة وإجادة القول فيها أفردت الصرفيين العرب بمكان لايدانيه أى مكان آخر فى عالم اللغويين قديما أو حديثا ، ولا يزال كشفهم عن النظام الصرفى العربى موضع الإعجاب والاحترام وسيظل دائما كذلك فى نظر اللغويين فى مختلف أنحاء العالم » (١) .

وبعد ، فإن العرب على الرغم من ذلك كله قدموا دراسات لغوية شاملة فى مجال الأصوات والصرف والنحو والمعاجم ، ولا يستطيع أى باحث أن ينكر ما قدمه العرب من دراسات قيمة للغتهم ؛ بل إنهم أثروا على الأعمال اللغوية والتفكير النحوى عند اليهود فى دراستهم عن العبرية (٢) . وذلك بعد اختلاطهم بالعرب بعد انتشار الاسلام وبعد بداية التأليف العلمى العربى ، وكان النموذج النحوى للغة العربية هو النموذج الذى احتذاه اليهود فى وضع قواعد العبرية ، كما كان المعجم العربى مثالا يحتذى فى وضع المعاجم العبرية ، ومن أشهر العلماء العبرانيين الذين اعتمدوا على الدراسات العربية سعيد الفيومى (ولد فى مصر عام ٨٩٢ ميلادية ، وتوفى عام ٩٤٢) الذى ألف معجما يسمى أجرون Agron ، كما جمع رسائل نحوية بلغت اثنتى عشرة رسالة تحت عنوان « كتب فى اللغات » ، هذا بالإضافة الى أنه ناقش الأصوات الحلقية فى سياقاتها المتعددة فى مؤلفه « كتاب الخليقة » . أما العالم العبرى الثانى الذى تأثر بالنحو العربى فهو يهودا بن حيوج اللغوى ، وله دراسات قيمة فى اللغة العبرية ومن أشهرها ثلاث رسائل كتبت باللغة العبرية (٣) .

---

(١) د . تمام حسان : الأصول ص ١٥ .

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte . . . S. 7.

(٣) فى توضيح مدى تأثر اللغويين العبرانيين بالعرب انظر كتاب الدكتور أحمد مختار عمر : البحث اللغوى عند العرب ص ٥٠ — ص ٥٧ .

ثانيا : فى الغرب (١)

كان النحو الذى ألفه بريسكيان ودوناتوس الأساس الذى اعتمد عليه فى تعليم النحو اللاتينى خلال العصور الوسطى • وقد عثر على مالا يقل عن ألف مخطوطة من تأليف بريسكيان فى نحـو اللاتينية الذى كان جزءا من سبعة فنون ينبغى تعلمها فى تلك العصور ، هذا بالإضافة الى أن اللاتينية ذاتها كانت لغة الدرس العلمى ولغة الاتصال بين الدول فى أوربا كمـا كانت لغة الكنيسة فى الغرب •

وظل التصور التجريبى للنحو الذى جسده بريسكيان باتجاهه الى دراسة النص سائدا خلال المرحلة الأولى فى العصور الوسطى حيث لم يقدم لغويو الغرب فى تلك المرحلة إلا شروحا وتفسيرات لأعمال بريسكيان ودوناتوس ، كما نظم البعض هذه القواعد النحوية شعرا ليسهل حفظها •

ومن مظاهر سيادة نحو بريسكيان على الدراسات النحـوية خـلال المرحلة الأولى من العصور الوسطى أنه اتخـذ نموذجا فى وضـع قواعد اللغات الأخرى غير اللاتينية كالإنجليزية والإيرلندية القديمة ، وكان ذلك فى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد تقريبا •

أما فى النصف الثانى من العصور الوسطى ، أى ابتداء من عام ١٠٠٠ ، فقد حدث تطور هام فى موقف الدراسة النحوية حيث ازدهرت الأفكار اللاهوتية ، فازدهرت الموسيقى الكنائسية والرسم والعمـارة

---

(١) اعتمدنا فى كل المعلومات التى وردت هنا عن الدراسات اللغوية عند الغرب فى العصور الوسطى على مرجعين أساسيين هما :

1. Mittelalterliche Grammatiktheorie, S. 98-104 von J. Pinborg.
وهو بحث قيم فى كتاب :
Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.
2. Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 12-15. von Robins.

القوطية ، كمـا أثر إعادة اكتشاف الأعمال الفلسفية لأرسطو من خلال ترجمتها الى اللاتينيـة وشروحها العربية ومن خـلال اكتشاف بعض المخطوطات اليونانية ، أثر ذلك كله على تطور الفكر اللاهوتى ، وتحددت اللاهوتية لذلك على أنها خليط من علم اللاهوت الكاثوليكى والفلسفة الأرسطية ، وقد ساهم فى ذلك الى حد كبير توماس الإكوينى (القرن الثالث عشر) •

وابتداء من القرن الحادى عشر لم يعد المؤلفون يقنعون كثيرا بشرح نحو بريسكيان وتفسيره أو وضع قواعده فى منظومات شعرية ، لكنهم بذلوا جهدا كبيرا فى إعطائه تسويغا فلسفيا منطقيا ؛ ومن ثم أصبحت الدراسات اللغوية وبخاصة النحوية منها تحت إشراف الفلاسفة مرة أخرى •

وكان من الصعب فى تلك الفترة التمييز بين الدراسـات النحوية والمنطق وبخاصة عند أنسـلم Anselm (عاش بين عامى ١٠٣٣ — ١١٠٩ ميلادية) وأبيـلارد Abaelard (عاش من ١٠٧٩ — ١١٤٢ ميلادية) ، « ويعتبر بطرس أبيلارد زعيم نهضة تحرير الفكر فى القرن الثانى عشر ، وهو صاحب فلسفة الشك والتشكك فى كل شىء حتى فى طبيعة المسيح نفسه ، وله كتاب معروف باسم « نعم ولا Sic et Non » ، وقد ضمنه فلسفته الشهيرة فى الشك والتشكك ، أما أنسلم فهو أحـد رؤساء أساقفة كانتربرى ، وقامت فلسفته على أساس تقبل الإيمـان دون جدل أو مناقشة » (١) •

وسميت مثل هذه الدراسات النحوية الفلسفية بتمنطق النحو أو بعبارة أخرى تسويغ القواعد النحوية منطقيا ، وأنكرت هذه الدراسات

---

(١) د. جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصـور الوسطى الأوربيـة وحضارتها ص ٣٤٥ — ص ٣٤٨ (مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤) .

البحوث التى كانت تعتمد على النصوص أو ما تسمى بالتجريبية التى كانت توصف بها الدراسات اللغوية فى العالم القديم •

وفى القرن الثانى عشر ظهرت نهضة علمية سميت باسم نهضـــة القرن الثانى عشر ، وبدأت هذه النهضة من المؤسسات الدينية ، فاهتمت الأديرة بالكتابة والأدب ، وخصصت أمكنة بها للمهتمين بشئون الكتابة والنسخ والقراءة والتأليف ، ثم استمرت حركة الاصلاح هذه حتى نمت وانتعشت فى مجالات كثيرة فى الفلسفة والقانون ، وقامت على أكتاف بعضهم نهضة القرن الثانى عشر والتى استمرت خلال القرن التالى •

أما تأثير اللاهوتية على الدراسات النحوية فكان واضحا فيما سمى بنظرية النحـــو التأملى grammaticae speculativae ، وسمى لغويو النصف الثانى من القرن الثالث عشر باسم Modistae ، وهم أصحاب نظرية لغوية لا تقنع بطبيعة اللغة بصفة عامة بل تحاول عرض أجزاء اللغة من وجهة نظر واحدة • وأشهرهم مارتينوس دى دكيا Martinus De Dacia (ت ١٢٧٠ م) وبوتيوس دى دكيا Boethius De Dacia (ت ١٢٧٠ م) ورادولفوس بريتو Radulphus Brito (ت ١٢٩٠) ، وتوماس فون ارفـــورت Thomas von Erfurt (ت ١٣٠٠) ، وسيجر فون كورتراى Siger von Courtrei (ت ١٣٠٠) ، وقـــد لعب هؤلاء العلماء دورا كبيرا فى تاريخ المنطق أيضا ، واستمرت هـــذه النظرية النحوية حتى عصر النهضة حينما هاجمها علماء الأدب واللغات •

وبجانب هذه النظرية النحوية التأملية وجدت نظرية نحوية أخرى سميت بنظرية النحو الإيجابى أو التطبيقى frammatica positive ، وأنهت هذه النظرية التصورات القديمة وحافظت على الغرض التربوى من النظرية وهو التعريف بلغة التعليم فى تلك الفترة وهى اللاتينية ؛ ويمثل النحو المنظم الذى وضعه الإسكندر فون فيلا داى Alexander von Villa Dei (توفى فى بداية القرن الثالث عشر تقريبا) ، وقد اتخذت

النماذج النحوية التى وضعها الإسكندر مثالا احتذته القواعد الأولى للغات الشعبية •

وفى مجال الدراسات المنطقية نشـأ فى القرن الثالث عشر المنطق الاصطلاحى التعريفى terministische Logik (= terministic logic بالإنجليزية) ، ويهتم التحليل المنطقى باللغة فى إطار سياق وصفى مع الاهتمام بالصفات الدلالية والتركيبية للخواص التعريفية Proprietates terminorum ، وألف بتروس هيسبانوس Petrus Hispanus كتابا فى هذا المجال عام ١٢٣٠ ، ثم بدأت تظهر شروح هامة للنظرية خلال القرن الرابع عشر عند المنطقيين الإنجليز وبخاصة عند وليم فون أوكهام William von Ochham (عاش فى الفترة من ١٢٨٥ حتى ١٣٥٠) (١) •

وفى التحليل المنطقى للغة يكون التركيز فى المقام الأول على إدراك المعنى الأساسى للجملة الوصفية ؛ أى على التركيب المنطقى العميق فى الجملة ، فكل جملة تتضمن معنى أو مفهوما مركبا conceptus connotativus الذى يمكن ارجاعه الى معان أساسية عديدة ؛ ومن ثم يمكن تقسيم الجملة المركبة الى جمل بسيطة ، هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن تحويلات المعنى المركب فى الجملة الى معان أساسية تتم فى المقـام الأول بالرجوع الى المنطق ، حيث يتم إبعـاد العناصر غير الرئيسية كالظواهر الصرفية الفوناتيكية الخالصة ، ولا تبقى إلا العناصر التى تلعب دورا هاما فى حقيقة الجملة •

ويتضح الخلاف فى التحليل بين النحوى والمنطقى فى تناول الترادف مثلا ، حيث لا يعترف النحوى به اذا اختلف الشكل اللغوى بين الكلمتين

---

(1) J. Pinborg : Mittelalterliche Grammatictheorie S. 99 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft . .

فقراءة ويقرأ مثلا على الرغم من أنهما يدلان فى الحقيقة على معنى دلالى واحد وهوّ مفهوم القراءة إلا أنهما يختلفان فى الشكل والصيغة ؛ ومن ثم فهما مترادفان منطقيا وإن كان النحوى لا يراهما كذلك •

إن الملامح الهامة فى نحو العصور الوسطى (وبخاصة عند Modistae) يمكن تمثيلها فى النموذج التالى :(١)

Vox		dictio	pars orationis	const-ructio
ratio	significandi	modus	significandi	

إن ratio significandi ليست إلا الصلة بين Vox (الصوت) و res (الشىء) ، ولا يدرك الشيء (كما هو الحال فى نظرية المعنى عند أوكهام Ockham) على أنه شىء يرمز له فرديا ؛ بل كمحتوى غير محدد النوع ويرمز لهذا المحتوى من خلال الوحدة القاموسية dictio أى قبل أن يتحدد فى صفة أو فعل مثلا •

ويتطابق هذا التحليل مع المفهوم العام للاشتقاق ، حيث يبدأ الانسان من الشكل الأساسى المسمى بالشكل الأولى المنطقى ، وتدرك حينئذ كل التغييرات من خلال التصريف والاشتقاق بصفتها إضافات للشكل الأساسى •

أما الجديد فى نظرية العصور الوسطى فهو أن هذا الشكل الرئيسى لا يتحدد كشكل لغوى ثابت ؛ بل كشكل موجود قبل أن يتحدد فى صيغة لغوية ثابتة أو كحجم تجريدى ، وتتحقق الوحدة القاموسية دائما كجزء من الكلام Pars Orationis ، ويحدث هذا التحقيق من خلال التسمية حيث يصاحب شكل الرمز modus significandi التعبير ، وهذه هى الصلة والتى تنبع أساسا من العقل بين الوحدة القاموسية من جهة والعلامات أو الصفات التى تتحدد تصنيفيا والخاصة بالأشياء المرموز اليها • وينبغى

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ •

الإشارة الى أن كل عنصر حامل للمعنى يتحقق فى سلسلة الكلام يجب أن يتمتع بمثل هذه الشكلية أو ما يسمى بطريقة التكوين modus significandi •

وتنقسم طريقة أو شكل التكوين الى نوعين : جوهرية modus significandi essentiales وهى التى تعطى للوحدات القاموسية غير المحددة تحديدا واضحا ، وذلك مثل التى تصنف الأنواع كالاسم مثلا الى مبتدأ وصفة ، عارضة modus significandi accidentales كالمكونات الأخرى مثل الإعراب والعدد والشخص ••• الخ •

ويبدو من ذلك كله أن النظرية التى كانت سائدة فى نحو العصور الوسطى هى نظرية الأهمية ، فالنظرة الى الصفة فى تلك العصور على أنها نوع أقل من الاسم تدل دلالة واضحة على نظرية الأهمية هـذه • وتتطابق نظرية الأهمية فى نحو العصور الوسطى تماما مع النظرية النحوية التى كانت سائدة فى النحو القديم من تقسيم الأنواع الى أنواع أساسية ثمانية وهى التى تتكون منها السلسلة اللغوية وأنواع أخرى عارضة •

كما أن هناك شبها آخر بين التحليل النحوى فى العصور الوسطى وبخاصة عند Modistae والتحليل النحوى عند القدماء ، وهو أن التحليل لا يبدأ من أعلى فى الجملة أو بعبارة أخرى من الكل ؛ بل من أعضاء التركيب ، ثم تتجمع هذه الأعضاء فى وحدات أكبر ، وإن كان يختلف عنه فى أنه يبرز الصلات بين هذه المكونات •

ويتكون هذا التحليل من ثلاثة أركان أساسية هى : الارتباط أو التركيب Constructio والمطابقة Congruitas والتكامل Perfectio ، فالتركيب هو تأليف الكلمات من خلال المكونات ، والتطابق هو أن العلاقة بين الكلمات ليست مجرد ارتباط فقط ، بل تصل الى حد التطابق ، ويصل الإنسان أخيرا الى التكامل حيث تنتج جملة كاملة الفهم •

كذلك يتكون كل تركيب أو جمـلة من مكونين فقط وهمـا المكونان

الرئيسيان فى الجملة ، ثم ترتبط المكونات الأخرى بهما ، فالجملة العربية « ينجح الطالب المجتهد فى الامتحان » تتكون بهذا الاعتبار من العنصرين الأساسيين : ينجح ، الطالب ، على حين ترتبط العناصر الأخرى بهذين العنصرين ، فترتبط « فى الامتحان » بالفعل « ينجح » وترتبط كلمة « المجتهد » بالطالب .

وبعد ، فإن التحليل النحوى فى العصور الوسطى وبخاصة عند Modistae يستحق النظر والاهتمام ، فقد حاول أن يصف الصلات النحوية بين أعضاء الجملة أو التركيب ؛ وإن كان لم يصل هذا التحليل الى درجة من النضج والتماسك ، كما هو الحال عند المحدثين ؛ بل يمكن القول بأنه تحليل فطرى خالص (١) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

ثالثا : عصر النهضة

لا يمكن القول بأن عصر النهضة بدأ فجـأة فى أوربا حيث يؤكد منطق الأحداث التاريخية خلال تلك الفترة أن هناك إرهاصات ظهرت فى نهاية العصور الوسطى أشارت بوضوح الى أن رياح التغيير بدأت تهب معلنة عن ظهور عصر جديد فى أوربا ألا وهو عصر النهضة •

تميز الفكر فى نهاية العصور الوسطى (القرن الثالث عشر والرابع عشر) بنوع من التحرر والانطلاق من أوضاع تلك العصور ومن قيودها وأنظمتها التى صبغت بها فى مراحلها المبكرة ، فقد بدأ سلطان البابوية فى التدهور والانحلال نتيجة عوامل عديدة ، كما قامت محاولات جريئة لإصلاح الكنيسة اللاتينية والعودة بها الى عصورها الأولى ؛ ومن ثم بدأ رجال الفكر والعلم والأدب والفن الخروج على الكنيسة وأوامرها •

ولاشك أن من بين العوامل التى أدت الى هذا التغيير فى القرن الرابع عشر والخامس عشر الاتصال المستمر بين الشرق والغرب ، فكان العرب يمثلون قوة كبيرة تجاور أوربا وتعلن عن ثقافة جديدة وعلم مبتكر ، وإن أول احتكاك بين العرب وأوربا كان فى أعقاب الفتح العربى لصـقلية وجنوب إيطاليا والأندلس ، ثم بلغ الاحتكاك ذروته أثناء الحـروب الصليبية •

بدأالغربيون يستفيدون من الشروح العربية للفلسـفة اليونانية وتحليلات العرب للمنطق الأرسطى منذ تلك الفترة ، هذا بالإضافة الى ازدياد النشاط التجارى الذى أعقبه التقدم والرخاء ، حيث تجمعت الثروة المـادية فى أيدى الامارات التى اشتغلت بالتجارة مثل جنـوه وبيز والبندقية وفلورنسا ، وقد ساعدت تلك الثروة الى حد كبير على تقدم العلوم والفنون والآداب وبزوغ شمس الاصلاح وظهـور النهضات

الأوربية فى أخريات العصور الوسطى التى كانت بشـيرا ببداية عصر النهضة » (١) •

أما فى مجال الدراسات اللغوية فقد بدأ الاهتمام بإعادة دراسة النصوص اليونانية القديمة واللاتينية الكلاسيكية وجعلها أساسا هاما من أسس التعليم فى أوربا ، هذا بالإضافة الى إعادة اكتشاف لغات أخرى غير الأوربية كالعبرية (لغة العهد القديم) ، والعربية أو لغات شعوب غير معروفة تعيش فى أنحاء من الأرض كالصينية واليابانية أو لغات لم تكن قد كتبت بعد كلغة الهنود الحمر حيث يرجع أول كتاب نحوى لها الى القرن السادس عشر (٢) •

ونتيجة للاهتمام الزائد باللغات الأوربية الأخرى غير اليونانية واللاتينية الكلاسيكيتين بدأت الدراسات النحوية تتناول مثل هذه اللغات والتى ظلت قرونا طويلة مهملة ؛ ومن ثم ظهر أول نحو للأسبانية والإيطالية فى القرن الخامس عشر للفرنسية فى القرن السادس عشر ، وحدث مثل ذلك تماما فى إنجلترا وألمانيا • وظهرت بجانب هذه الدراسات النحوية قواميس عديدة لتلك اللغات خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر •

وخلق الاهتمام باللغات القومية فى أوربا والذى اعتمد على ملاحظة نصوصها اتجاها تجريبيا جديدا يخالف الاتجاه الفلسفى العقلى الذى كان سائدا فى العصور الوسطى وكان سمة واضحة فى الدراسات اللغوية فى

---

(١) د• جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسـطى الأوربية وحضارتها ص ٣٧٧ — ص ٣٨٨ (مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤) •

(٢) اعتمدنا فى كل المعلومات التى وردت عن عصر النهضة على مرجعين أساسيين هما :

١ — بحث قيم لفينفريد ليندرز بعنوان :

Universalgrammatiken des Rationalismus von Winfried Lenders im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft S. 105-117.

٢ — كتاب روبنز :

Ideen-und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 16-27.

تلك العصور • هذا وينبغى الإشارة الى أن هذا المنهج الفلسفى العقلى لم ينته تماما بانتهاء العصور الوسطى ؛ بل ظهر خلال عصر النهضة وإن كان بصورة أخرى • كذلك ينبغى الإشارة مرة أخرى الى أن الاتجاه التجريبى الذى ظهر خلال عصر النهضة يخالف ما كان سائدا فى العصر القديم ، ففى القديم كان نحاة اليونان واللاتينيين يعتمدون فى المقام الأول على اللغتين الكلاسيكيتين فقط ، أما فى عصر النهضة فكان الاعتماد أساسا على اللغات القومية فى أوربا •

ويمكن ملاحظة الاتجاه التجريبى أو التجريبية .. Empiricism فى مجال الدراسات النحوية فى المؤلفات التى كتبت عن قواعد اللغات الأوربية الحديثة واللغات الأخرى غير الأوربية ، وذلك مثل إعادة تصنيف أنواع الكلمة عند بتروس راموس Petrus Ramus (القرن السادس عشر) وتأكيد ج • رويشلين J. Reuchlin على أن النحو العبرى لا يستعمل أنواع الكلمة نفسها التى تستعملها اللاتينية فى مؤلفه — عن أصل العبرية De rudimentis hebraicis عام ١٥٠٦ ، ورفض حالة إعراب اسم الذات فى الإنجليزية وكل درجات الزمن حتى الماضى والحاضر فى فعل اللغة عند ج • واليس J. Wallis فى مؤلفه : نحو اللغة الإنجليزية Grammatica linguae anglicanae عام ١٦٥٣ • ويمكن مقارنة ذلك كله فى مجال الدراسات اللغوية بما كان موجودا عند علماء آخرين من أمثال جاليليو Galilei وكوبرنيكوس Kopernikus فى مجال اللاهوتية •

وكانت السمة المميزة لتلك الدراسات التجريبية هو القول بأن لكل لغة خصائصها التىتفترق عن خصائص غيرها من اللغات الأخرى ، وعلى هذا الأساس رأينا مثل هذه الدراسات التى تميزت بها كل لغة عن اللغات الأخرى ، « كما ظهرت مناقشات وخلافات كان يشوهها فى الغالب

جهل العلماء بالحقائق المتعلقة بتصنيف اللغات وقراباتها اللغوية » (١) •

وقد رحب أنصار التجريبية بنمو العلوم التى اتخذت المنهج التجريبى أساسا لها كالطبيعة وغيرها • وإنه مما يلفت النظر أن عددا من العلماء الذين اهتموا بعلم الطبيعة فى إنجلترا من أمثال واليس Wallis وبريستلى J. Priestley الكيميائى مكتشف الأوكسجين كتبوا عن القواعد النحوية للإنجليزية ، فيقول بريستلى عن النحو : إنه يمكن أن يقارن بالبحث فى الفلسفة الطبيعية ، ويقصد بالفلسفة الطبيعية علم الطبيعة أو الفيزياء •

وزاد الاهتمام بكتابة أبجدية اللغات القومية ونطق أصواتها ، حيث تضمنت الكتب النحوية التى بحثت قواعد تلك اللغات فصلا خاصا عن نطق الأصوات وطريقة الكتابة ، كذلك ينتقل هذا الاهتمام الى أصوات اللغات الكلاسيكية : اليونانية واللاتينية ، حيث جذبت اللاتينية بصفتها لغة منطوقة الانتباه الأكبر ، وقد مثل إراسموس Erasmus (١٤٦٦ — ١٥٣٦) والذى ولد فى روتردام وكان ممثلا للنهضة فى شمال أوربا (٢) النطق الصحيح للكاف والجيم [c , g] فى اللاتينية الكلاسيكية كحروف انفجارية تنطق من الحنك اللين قبل كل الحركات ، وهذا يخالف طرق نطقها المتعددة فى اللغات الرومانية الحية ، وجاءت دراسة إراسموس للنطق الصحيح لأصوات اللاتينية فى مؤلفه : De recta Latini Graecique sermonis pronuntione (عن أساس النطق الصحيح أو السامى لليونانية واللاتينية) •

وبرز بجانب هذا الاتجاه التجريبى فى بداية القرن السابع عشر الاتجاه اللغوى الآخر الذى عرف باسم النحو العالمى العقلى Grammaire générale et raisonnée وقد ارتبط أساسه النظرى بالمنهج العقلى أو

---

(١) ماريوباى : أسس علم اللغة ص ٢٣١ .
(2) Deutsches Wörterbuch «Erasmus» (Südwest Verlag München).

الفلسفة العقلية Rationalism التى أسسها الفيلسوف رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠)، وقد سمى النحو العالمى فى الفلسفة العقلية باسم النحو الفلسفى Philosophical Grammar فى البحوث اللغوية الانجليزية .

أسس المنهج العقلى — كما سبق القول — الفيلسوف والرياضى رينيه ديكارت فى القرن السابع عشر ثم واصل أتباعه وتلاميذه من بعده هذا الاتجاه فتوسعوا فى أفكاره ودراساته حتى وصلت البحوث الى درجة لا بأس بها عام ١٧٣٠ عند الفلاسفة الأعلام من أمثال سبينوزا Spinoza (توفى ١٦٧٧) فى هولندا وجوت فريد فيلهم لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz (توفى ١٧١٦) فى ألمانيا ومالبرانش Malebranche (توفى ١٧١٥) فى فرنسا وكريستيان فولف Christian Wolff « وأصحاب المذهب العقلى يرون أن العقل قوة فطرية فى الناس جميعا ، هو مصدر كل معرفة يقينية تتميز فى المذهب العقلى الدجماطيقى بالضرورة والصدق المطلق ، فأحكامها صادقة دواما وبصورة محتومة تتخطى الزمان والمكان ، والظروف والأحوال ، ففى العقل مبادىء فطرية لم تكتسب من خبرة حسية ولا تأمل عقلى ، كمبدأ عدم التناقض الذى يقول إن الشىء لا يمكن أن يكون موجودا وغير موجود فى آن واحد ، وكالبديهية الرياضية التى تقول إن المساويين لثالث متساويات » (١) ؛ أى أن نظرية المعرفة تقوم أساسا على أن التفكير المنطقى أو العقلى عند الانسان هو مصدر كل المعارف .

ويكون الانسان فى حقيقته جوهرا مفكرا res cogitans ، ولا ترى النظرية العقلية مانعا من وصول معرفة عن طريق آخر غير الطريق العقلى كالحواس مثلا ، فالانسان يمكنه أن يكتسب كل المعارف الممكنة عن طريق إدراكه الخاص ، وتكمن هذه المعارف فى شكل محتويات

---

(١) د. توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية . نشأتها وتطورها ص ١٢٠ (الطبعة الأولى ١٩٦٠) .

فى الوعى الباطن perceptiones ، كما تسمى أيضا أفكارا مختفية ideae innatae فى الذهن .

أما كيف تصل هذه المعارف المختفية فى ذهن الانسان أو فى الوعى الباطن الى الادراك ؟ ، وبعبارة أخرى كيف تتحقق محتويات الوعى ؟ . إن الانسان ينبغى أن يستعين فى ذلك بالنماذج الرياضية التى تسمى بالمناهج التحليلية ، حيث تساعد هذه المناهج على تحليل المفاهيم المستورة الى مفاهيم جزئية واضحة ، وذلك بإدراك تراكيبها ، فالمعرفة إذن إدراك التركيب المستور للمفاهيم من خلال المفاهيم الجزئية التى تكون هذا التركيب ، وقد وردت فلسفة هذه النظرية عن المعرفة عند ديكارت فى مؤلفه المسمى : بحث عن المنهج Discours de la Méthode عام ١٦٣٧ .

أما فى مجال اللغة فإن الانسان بصفته الكائن الحى الوحيد الذى يمتلك المقدرة اللغوية فى التعبير عن أفكاره يمكنه أن يبلغ الآخرين أفكاره ومعارفه ، وهذه المقدرة هى التى تميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ؛ حيث إنه يستطيع أن يترجم أفكاره ومعارفه فى جمل منطوقة أو مكتوبة .

وتقوم اللغة بهذا الاعتبار بوظيفة الاتصال حيث يعتبر تنفيذ اللغة نظاما لها ، ولهذا يمكن القول بأن معظم النظريات اللغوية فى المذهب العقلى إنما هى فى الحقيقة نظريات للكلام parole أو ما يسمى art de parler ؛ فالنطق أو التكلم فى هذه النظرية له غرضان — أولا لإبلاغ أفكار الانسان الى الآخرين وهذا معناه استحضار الأفكار المستورة الى الوعى ، وثانيا التعرف على أفكار الآخرين لاستكمال معرفة الانسان الخاصة .

وقد عبر جيرولد دى كورديموى Gerauld de Cordemoy الذى أكمل فلسفة ديكارت عن ذلك فى بحثه عن فيزيقيا الكلام Discours physique de la parole، حيث يؤكد ثانية على أن مقدرة إيصال

الرمز اللغوى دليل على أن الانسان بعكس الحيوانات الأخرى التى لا يمكنها الكلام يمتلك نفسا ، وكما أن الانسان وحدة واحدة تتكون من نفس وجسد فينبغى أن تظهر هذه الصفة فى الموضوعات التى تدرك فيزيائيا وهى الرموز اللغوية.

إن الارادة الانسانية — كأساس فعال — سبب فى أن الانسان يعبر عن أفكاره برموز لغوية بغرض الاتصال بالآخرين ، وكما أن نظرية المعرفة فى الفلسفة العقلية ترى أن اللغة تتصل بتراكيبها ووظيفتها الى جوهر الانسان ككائن مفكر فإنها تنقل مرآة فكره وعقله ، وبذا تكون كلمات اللغة رموزا للمحتوى الفكرى لأنها فى الأساس تركيب للكلمات أو الرموز .

واذا كان العلم الذى يتناول قوانين اللغة هو النحو أو القواعد فان العلم الذى يتناول قوانين الفكر هو المنطق ، وكما أن نظم الفكر متشابهة عند كل الناس فإنه لا يوجد إلا منطق واحد فقط . وحيث ترتبط اللغة بالمنطق عندهم فان هناك لغة عالمية ، كما يمكن أن يوجد نحو عالمى يتضمن قواعد اللغات .

هكذا تنوعت الدراسات فى إطار نظرية اللغة عند العقليين فى اتجاهين : الاتجاه الأول ويرمى الى ايجاد لغة فنية تتطابق نظمها وقواعدها مع نظم الفكر ، كما تتحرر من كل التناقضات والغموض فى اللغات الطبيعية ، وتكون لذلك سهلة فى الفهم وأداة عامة لابلاغ المعارف العلمية . إن تصور مثل هذه اللغة العالمية lingua universalis أو اللغة العقلية lingua rationalis يقوم بناء على الاعتقاد العقلى فى وجود نحو يشبه المنطق فى عالميته . أما الاتجاه الثانى فإنه يهدف الى وصف القواعد التى يحتاج اليها بناء على الأساس العلمى المنطقى فى اللغة ، حيث يتخذ التركيب المنطقى المتشابه فى كل اللغات أساسا فى وصف كل للغات الطبيعية ويستغنى فى الوقت نفسه عن كل الخلافات الأخرى التى تعوق عمل هذا النحو العالمى .

وتأثر الاتجاه الأول بتفسيرات الفيلسوف اللاهوتي ريموندوس لولوس Raymundus Lullus (١٢٣٥ — ١٣١٥) حيث أثر منهجه مباشرة على تطور النظم الرمزية المجردة في الرياضة والمنطق الرمزى ، كما كانت لمساهمة الانجليزى جورج دالجارنو George Dalgarno (١٦٢٦ — ١٦٨٧) في عام ١٦٦١ بمؤلفه المسمى « فن الرمز Ars Signorum أثر كبير على مجريات الأمور في الاتجاه الأول •

وكان هدف دالجارنو انشاء ما يسمى باللغة العالمية lingua universalis أو باللغة الفلسفية lingua philosophica ، وهدف هذه اللغة العالمية تسهيل الاتصال المتبادل بين الناس على أسس فلسفية منطقية ، وتقل بهذا البلبلة الناشئة من استعمال اللغات الطبيعية •

ونجد مثل هذه الفكرة عند أسقف مدينة شستر الذى كان معاصرا لدالجارنو وهو جون ويلكنز John Wilkins (١٦١٤ — ١٦٧٤) في مؤلفه المسمى «An Essay towards a Real Character and philosophical Longuage» والذى صدر في لندن عام ١٦٦٨ ، ويكمل بهذا ويلكنز التصور التام عن لغة فلسفية فنية وعن نحو منطقى •

وكان لولوس ودالجارنو وويلكنز روادا مباشرين للايبنتز Leibniz الذى شكل نظرياتهم عن اللغة العالمية والنحو العقلى الفلسفى ، وقد جاءت أفكاره مرتبطة بالمشروع الذى سمى بفن الخواص العالمية والذى لم ينشر منه إلا بعض أجزائه •

وتتلخص فكرة لايبنتز في أن كل المحتويات الفكرية أو بعبارة أخرى الأفكار المتضمنة في وعى الانسان يمكن أن تحلل الى محتويات فكرية بسيطة باستخدام المناهج التحليلية في الرياضة ، ويمكننا بناء على ذلك تصور أفكار الانسان من خلال رموز تشبه الرموز المستعملة في التصور الحسابى وهى رموز الأعداد ، فكما أننا نستعمل نظاما معينا في العمليات الحسابية نستطيع بالمثل أن نستغل النظام نفسه في استنباط

المعارف والأفكار الانسانية ، ويمثل هذا النظام عند لايبنتز اللغة العالمية الجديدة التى تكون صعبة فى تخطيطها ولكنها سهلة فى تعلمها •

وتتطابق قواعد هذه اللغة الرمزية الفنية العالمية عنده مع قواعد الفكر ؛ ومن ثم تسمى هذه القواعد أو النظم الفكرية النحو العقلى grammatica rationalis الذى يعد أساسا لكل اللغات الطبيعية •

وربما كان أهم الكتب النحوية فى هذه النظرية هو ما يسمى بنحو بورت رويال Port - Royal الذى ورد تحت عنوان « النحو العالمى والعقل Grammaire Générale et Raisonnée ، وكان الفيلسوفان أنطونى أرنولد Antoine Arnauld (١٦١٢ — ١٦٩٤) وكلود لانسيلو Claude Làncélot (١٦١٦ — ١٦٩٥) مؤلفين ومعلمين فى مدارس الدير الباريسية « بورت رويال » ، وكان مركزها يسمى « Jansenismus (= Jansenism بالانجليزية) وهى حركة كانت ضد توغل اليسوعيين وتنسب الى رئيسها كورنيليوس جانسين Cornelius Jansen (١٥٨٥ — ١٦٣٨) (١) •

ظهر نحو بورت رويال عام ١٦٦٢ مرتبطا فى تصور أفكاره بالمنطق الذى سمى بمنطق بورت رويال والذى ظهر تحت عنوان « المنطق أو فن الفكر » La Logique ou L'Art de Pensor عام ١٦٦٠ وألفه أنطونى أرنولد وبيير نيكولا Pierre Nicole (١٦٢٥ — ١٦٩٥) ، وجاءت أفكاره متأثرة الى مدى بعيد بأفكار ديكارت •

وليس هدف نحو بورت رويال دراسة قواعد اللغة ونظامها كما هو الحال فى العصر الحديث ؛ بل هو فن الكلام ، وإن أول جملة وردت فيه

---

(1) Deutsche Wörterbuch : Grammatik, Rechtschreibung, Stil, Wörterklärung, Fremdwörter «Jansenismus» (Südwest Verlag München).

إنمـــا هى : النحو فن الكلام La Grammaire est l' art de Parler ، فهو لا يتحدث عن نظام لغوى اجتماعى أو عن كلام فردى تنفيذى بالمعنى الذى ورد عند دى سوسير •

وتتحول الأفكار من خلال الرموز عند أصحاب النحو العالمى الى تعبيرات منطوقة فى الكلام الانسانى ، وتتدرج هذه الرموز تحت جانبين : الجانب الفيزيائى الطبيعى حيث تتناول الرموز حينئذ كأصوات Sons منطوقة أو كرموز مكتوبة Caracteres de l'écriture يستعملها الانسان ليرمز بها الى أفكاره ، والجانب الثانى هو الكيفية أو الطريقة التى يسلكها الانسان بمساعدة هذه الرموز فى التعبير عن تلك الأفكار •

وكما أن المنطق يميز بين المفاهيم أو موضوعات التفكير (محتويات الوعى أو الأفكار) وشكل أو طريقة manieve التفكير فان نحـــو بورت رويال يميز أيضا بصفة عامة بين مجموعتين من أنواع الكلمات : الأولى تعبر عن الأشياء أو موضوعات التفكير كالأســماء والضـــمائر والأدوات ، وتقوم الثانية بالربط بين هذه الأشياء وأخبارها أو بعبارة أخرى تربط المبتدأ بالخبر أو بين الأفعال وملحقاتها •

وأثر نحو بورت رويال فى مجموعة من المؤلفات النحوية التى ظهرت بعد ذلك ، فقد نشأ فى فرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر مجموعة من مؤلفات النحو العالمى تعد امتدادا لنحو بورت رويال منها على سبيل المثال : النحـــو العـــالمى الذى ظهر فى مجلدين وألفه نيكولاس باوزى Nicolas Baauzée (١٧١٧ — ١٧٨٩) ، كتاب الأسس المنطقية للنحو الذى ألفه مارساى C. Ch. Du Marsais (١٦٧٦ — ١٧٥٦) ، كتاب أسس النحو العالمى الذى ألفه سيلفسترى دى ساكى Silvestre de Sacy (١٧٥٨ — ١٨٣٨) •

وينبغى أن نشير الى أنه بجانب الاتجاه الفرنسى فى مجال النحو العالمى ظهر أيضا اتجاه ألمانى فى تلك الفترة منها مثلا كتاب النحو العالمى

الذى ألفه يوهان فرنر ماينر Johann Werner Meiner (١٧٢٣ — ١٧٨٩) عام ١٧٣٧ وكان عنوانه : الأسس الدقيقة للنحــو العــالمى • Grammaticae universalis tenuia rudimenta

وكان للنحــو العالمى وفلسفته العقلية تأثير كبير على مجموعة من المدارس النحوية فى القرنين الثامن عشر والتاســع عشر ، كذلك كان تأثيرهما كبيرا على إدراك اللغة رومانتيكيا فى العصر الحديث ، هــذا بالاضافة الى أنه يعد أساسا تاريخيا لمجموعة كبيرة من نظريات علم اللغة الحــديث •

لقد وجد تشومسكى فى نظرية النحو العالمى والفلســفة العقلية جوانب أساسية اعتمد عليها فى صياغة نظريته النحوية التى وردت فى كتــابه «Aspects of the Theory of syntax» عام ١٩٦٥ ، فوجد فى فكرة فعالية الكائن المفكر (الانسان) التى تعد ركنا هاما فى نظرية اللغة العالمية أساسا لإدراكه الخاص بمقدرة الخلق أو التوليد عند الانسان ، حيث يمكنه انتاج عدد غير محدود من جمل لغته وأن يفهمها بناء على عدد محدود من الوحدات اللغوية وبناء على نظام معروف ، كما اعتمد تشومسكى على المقابلة بين التعبيرات اللغوية الفعلية والتركيب المنطقى الكامن فى نظرية نحو بورت رويال فى تمييزه بين التركيب السطحى والتركيب العميق •

واذا كانت الفلسفة العقلية ونظرية النحــو العالمى أثرتا على تشومسكى فى تفكيره اللغوى فإن التجريبية أثرت على بلومفيلد فى منهجه اللغوى ، حيث يرى أن التعميم الوحيــد الذى يعتــد به هو التعميم الاستقرائى الذى يستشفمن مجموعة من الملاحظات فى اللغات المختلفة ، كذلك نجد التأثير نفسه على بلوخ B. Bloch وتراجر G. L. Trager •

الفصل الثالث

علم اللغة التاريخى المقارن فى القرن التاسع عشر

الدراسات التاريخية المقارنة فى ألمـانيـا

لا يمكن القول أن بحث الصلات بين اللغات المتعددة نشأ فجأة فى نهاية القرن الثامن عشر حينما اكتشف سيروليام جونز اللغة السنسكريتية ، وتابعه اللغويون فى الكشف عن علاقتها باللغات الأوربية ؛ بل إن دراسة مثل هذه الصلات اللغوية ترجع الى القرون الأولى فى عصر ميلاد المسيح عليه السلام ، فقـد لاحظ الباحثون الصـلات التاريخية بين كثير من الظواهر اللغوية فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، وقام كثير منهم بمقارنة هذه الظواهر اللغوية المتشابهة ، وإن كانت هذه الملاحظات لم تتعـد هاتين اللغتين فقط ؛ هذا بالاضافة الى أن هذه الظواهر فسرت تفسـيرا خاطئا مما جعـل البعض ينادى بأن اللاتينية ليست سـوى لهجة من اليونانية الغربية ، ثم دخلتها ظواهر لغوية بربرية (١) .

وفى العصور الوسطى سيطرت فكرة تقسيم اللغات على أذهان العلماء فى تلك العصور ، وترجع هذه الفكرة لغات العالم كلها الى سيدنا نوح عليه السلام ، حيث كانت كل هذه اللغات لغة واحدة قبل أن تتنوع بافتراق أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث ، فانتسبت كل مجموعة منها الى واحد من هؤلاء (٢) .

وقبل ذلك بعدة قرون وجدنا الفكرة نفسها عند علماء العربية ، حيث نسبوا جميع اللغات الى آدم عليه السلام (لا الى نوح كما جاءت فى العصور الوسطى) الذى علمه الله سبحانه وتعالى أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات ، فها هو ابن جنى فى كلامه عن أصل اللغة حيث يتساءل أإلهام هى أم اصطلاح ، ثم يرجح قـولا ورد عن أستاذه أبى على

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 24.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

الفارسى وعن أبى الحسن الأخفش ، وفيه أن اللغة تواضع واصطلاح ، يقول ابن جنى :

« على أنه فسر هذا [التواضع] بأن قيل إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات ، بجميع اللغات : العربية ، والفارسية ، والسريانية ، والعبرانية ، ، والرومية وغير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم إن ولده تفرقوا فى الدنيا ، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات ، فغلبت عليه ، واضمحل عنه ما سواها ، لبعد عهدهم بها » (١) .

وفى بداية القرن الرابع عشر يضع دانتى Dante (١٢٦٥ — ١٣٢١) الشاعر الايطالى العظيم صاحب الكوميديا الالهية «Divine Comedy» (٢) لغات الأم الرومانية التى اكتسبها فى طفولته فى مقابل اللغة اللاتينية التى تعلمها فى المدرسة ، وقسم هذه اللغات الجديدة بالنظر لكلمة « نعم » الى ثلاث مجموعات : الايطالية — جنوب فرنسا — شمال فرنسا ، وقد استمرت مثل هذه الدراسات المقارنة بين لغات اللاتينية بالنظر الى ظواهر لغوية أخرى كأشكال الفعل أو الضمائر أو حالات الاعراب ، ومنها المقارنات التى قام بها سكالجر J. J. Scaliger (١٦١٠) ، والتى جمع فيها الكلمات التى تعبر عن لفظ الجلالة فى كل عائلة من اللغات الرومانية واليونانية والألمانية والسلافية ، وإن كان لم يتم بتتبع الصلات بين هذه العائلات (٣) .

وفى عام ١٧٨٦ اكتشف سيرويليام جونز Sir William Jones اللغة السنسكريتية والقرابة بينها وبين اليونانية واللاتينية ، ومنذ تلك

---

(١) ابن جنى : الخصائص جـ ١ ص ٤١ .

(2) Anthony Thorlby : European Literature «Dante Alighieri».

(3) Robins : Ideen-und problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 25.

اللحظة بدأ عهد جديد فى تاريخ الدراسات اللغوية المقارنة ، فقد واصل العلماء هـذه البحوث المقارنة ، وكان للعلماء الألمـان الفضل الأكبر فى الوصول الى نتائج باهرة فى هذا المجال •

بداية الدراسات التاريخية المقارنة فى ألمـانيا :

إن بداية علم اللغة التاريخى المقارن ترتبط فى ألمانيا ببداية الثورة الوطنية أثناء الانتقال من القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر ، حيث كان هدف البرجوازية التغلب على الدول الألمانية الصغيرة وخلق دولة قومية واحدة ، وكانت الثورة الديمقراطية عامى ١٨٤٨ ، ١٨٤٩ أخطر مرحلة فى تلك المسيرة الانتقالية ، كما أن الصناعة الألمـانية بدأت فى منتصف القرن التاسع عشر ، وظل النظام الأرستقراطى من الناحية السياسية سائداً ، أما من الناحية الاقتصادية فقد بدأت سيادة رأس المـال الوطنى (١) •

أما فى مجال المعرفة والثقافة العلمية فإن كانت Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) حاول التغلب على التراث العقلى عند ديكارت ولايبنتز وفولفه والتراث التجريبى عند بيكون F. Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦) ولوكى J. Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) وهومى D. Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) وذلك بنظريته عن المثالية والعالم الحقيقى وهو العالم التجريبى •

وأشار كانت الى « أن التجربة هى نقطة البداية فى كل مالدينـا من معارف : لأن ماينبه الملكة العارفة الكامنة فينا إنما هـو الموضوعات التى تؤثر على حواسنا فتولد فى أذهاننا بعض التمثلات Representations أو تبعث قوانا العاقلة على تحقيق بعض أوجه النشاط ، ولكن على الرغم

---

(1) Rolf. Dietrich : Sprachwissenschaft im 19. Jahrhundert in Deutschland S. 117,118 im Buch : Grundzüge der Literatur-und Sprachwissenschaft.

من أن كل معرفتنا إنمـا تبدأ بالتجربة إلا أن هـذا لا يعنى أن تكـون كل معارفنا مستخلصة بالضرورة من التجربة • وآية ذلك أن هناك معرفة مستقلة تمام الاستقلال عن التجربة • وغير مرتبطة أصلا بأى انطباع حسى ، وتلك هى المعرفة الأولية الخالصة المتقدمة على كل تجربة • وكانت يفرق بين هذه المعرفة الخالصة التى يعتبرها أولية ، وبين المعرفـة التجريبية التى يقول عنها إنها لاحقة أو متأخرة • والمعرفة الأولية هى — بطبيعتها — معرفة ضرورية لا تحتمل أدنى إمكان أو احتمال أو ظن ••• ومثل هذه المعرفة الأولية متمثلة بصفة خاصة فى القضايا الرياضية ، كما أنها موجودة أيضا فى بعض قضايا الفيزياء • ويضرب كانت مثلا لذلك بالقضية القائلة بأن « لكل تغير علة (عملت على حدوثه) » (١) •

إن كانت لم يأخذ بنظرية فولف المثالية التى نادى بها فى أول القرن الثامن عشر ، تلك المثالية التى تنكر الوجـود الواقعى للأجسام والعالم الخارجى ؛ بل نادى كانت بمثالية تجمع بين العقلية والتجريبية وهى ما سماها المثالية المتعالية أو الصورية والتى تقـول إن المكان والزمان والمقولات إطارات قبلية موجودة فى العقل بفضلها يدرك العقل مضمون التجربة وتتضمن المتعاليـة Transzendental كل معرفـة لا تتناول الموضوعات بقدر ما تتناول معرفتنا بالموضوعات ، فهى لا تدل على شىء يتجاوز كل تجربة ؛ بل تدل على شىء يسبق التجربة حقا (قبليا) ، لكن لا يقصد منه أكثر من أن يجعل من الممكن قيام معرفة بالتجربة ، فالمتعالى إذن هـو الموجود قبليا فى العقل ، ولكنه يستخـدم لإدراك مضمون التجربة ؛ فالمبادىء التى تدرك بهـا ووفقا لها معطيات الحس تسمى المبادىء المتعالية » (٢) •

---

(١) د • زكريا ابراهيم : كانت او الفلسفة النقدية (دار مصر للطباعة الطبعة الثانية ١٩٦٣) ص ٦٣ ، ولمزيد من الايضاح أنظر من ص ٦٢ — ص ١٢١ من المرجع نفسه •

(٢) د • عبد الرحمن بدوى : المثالية الألمانية ١ شلنج (التصدير العام ص ح) دار النهضة العربية ١٩٦٥ وانظر ايضا من ص ٢٩٠ — ص ٣٠٩ من المرجع نفسـه •

كانت الأعمال العلمية فى بداية القرن التاسع عشر إما نقدا لنظرية المثالية عند كانت وإما تشكيلا لها عند فشته Fichte (١٧٦٢ — ١٨١٤) الذى يقرر صراحة أن مذهبه ليس شيئا آخر غير مذهب كانت ، وإن كان كانت يتبرأ منه ومن مذهبه ، فمذهب فشته محاولة جريئة لاعادة تلك الميتافيزيقيا التى سعى كانت طوال حياته الى هدمها ، ويؤكد فشته وجود مبدأ واحد مطلق هو الأساس لمادة المعرفة وشكلها ، كما أنه يعتمد على الاستنباط القبلى . أما من حيث الغاية التى يمضى إليها فشته فنجد أنه ينتهى الى العودة الى هذا المبدأ الواحد المطلق . إن مذهبه يقوم على أساس ديالكتيكى يدعى أنه يستطيع أن يبنى العالم كله استنباطا من مبدأ واحد مطلق على العكس من نقد كانت وفلسفته »(١).

أما شلنج F. W. J. Schelling (١٧٧٥ — ١٨٥٤) فيرى أن الفلسفة السابقة كانت فلسفة سلبية ، ولا يرى بذورا وارهاصات للفلسفة الايجابية إلا عند أفلاطون وفى الأفلاطونية المحدثة وعند أسبينوزا ، ويشرح الدكتور عبد الرحمن بدوى هذه الفلسفة الايجابية قائلا :

« والفلسفة الايجابية عند شلنج تنطوى على عدة أمور : إرادة الخروج من الذاتية الى الموضوعية ، وذلك ما قام به ضد فشته بأن أنشأ أولا فلسفة الطبيعة ثم فلسفة الفن حتى وصل الى فلسفة الأساطير والوحى ثم فلسفة التاريخ وإرادة الحرية وتوكيد الوعى المسيحى ، وإرادة إيجاد دين جديد حق ، دين فلسفى ، والفلسفة السلبية هى فلسفة ماهية ، أما الايجابية فهى فلسفة وجود ، السلبية تتطلع الى المثل الأعلى أما الايجابية فتتطلع الى الواقع » (٢) .

وسواء اتفق العلماء أو اختلفوا فى مدى ارتباط النظريات الفلسفية عند فشته وشلنج بنظرية المثالية عند كانت فإن ما تجدر الاشارة اليه

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ ، ص ١٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٠١ .

فى هذا المقام هو أن مثل هذه الأفكار الفلسفية كانت السائدة فى نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر كله ، هذا بالاضافة الى أن محاولة الجمع بين العقلية والتجريبية اللذين ورثهما علماء وفلاسفة تلك الفترة عن العصور الوسطى وعصر النهضة كانت المسيطرة على أذهانهم منذ كانت فى ألمانيا بصفة خاصة وفى أوربا بصفة عامة من أمثال جون ستورت مل J. St. Mill (١٨٠٦ — ١٨٧٣) ولاس E. Laas (١٨٣٧ — ١٨٨٥) وأفيناريوس R. Avenarius (١٨٤٣ — ١٨٩٦) وماخ E. Mach (١٨٣٨ — ١٩١٦) (١) •

هكذا وجدت منذ منتصف القرن التاسع عشر الاتجاهات العلمية التاليــة :

١ — نقد المثالية الديالكتية ، وتتمثل فى الفلسفة الموضوعية والمادية الديالكتية من أتباع هيجل اليساريين وعند فايرباخ Feuerbach وماركس Marx وفى الفلسفة الوجودية عند كيرك جارد Kierkegard وفى فلسفة التاريخ عند بورك هاردت Burckhardt ورانكه Ranke •

٢ — التراث العقلى أو الأفكار والنظريات التى تنتمى الى العقلية •

٣ — التراث التجريبى ونظرياته المتعددة •

٤ — محاولات التوفيق بين العقلية والتجريبية •

أما فى مجال الدراسات اللغوية فقد تطور البحث تطورا هائلا منذ نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر كله وبخاصة فى مجال الدراسات التاريخية المقارنة التى كانت تقوم أساسا على منهج فلسفى • وفى ألمانيا كان النحاة ينتمون الى تراث العقلية ، ومن أشهرهم جوت شيد

---

(1) Rolf Dietrich : Sprachwissenschaft im 19. Jahrhundert in Deutschland S. 118 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

J. Chr. Gottsched الذى ألف كتابه المسمى « أساس فن اللغة الألمانية Grundlegung einer deutschen Sprachkunst الذى نشر عام ١٧٤٨ وفرنرماينر J. Werner Meiner وكتابه « محاولة وضع المنطق فى اللغـــة الانسانية أو علم اللغة الفلسفى والعام

«Versuch einer an der menschlichen Sprache abgebildeten Vernunftlehre oder philosophische und allgemeine Sprachlehre».

أما أهم عمل نحوى ألمـــانى ظهر فى تلك الفترة فهو كتاب « علم اللغة الألمـــانى Deutsche Sprachlehre » لأديلونج J. Chr. Adelung وظهر له من عام ١٧٧٤ حتى عام ١٧٨٦ كتابه الرئيسى فى خمسة أجزاء وهو محاولة قاموس نقدى نحوى كامل للفصحى الألمانية مع مقارنتها باللهجات الأخرى وبخاصة فى الجنوب ، وقد ظهرت الطبعة الثانية بين عامى ١٧٩٣ ، ١٨٠١ وجاء بعنوان « القاموس النقدى النحوى للفصحى الألمـــانية (١)

Grammatisch - Kritisches Wörterbuch der hochdeutschen Mundart

ويمكن القول إن هـــذه الأعمال العلمية من دراسات نحوية أو قواميس لغوية كانت المـــادة التى استخدمت بعد ذلك فى مقارنة الظواهر اللغوية المتشابهة فى اللغات التى تنتمى الى عائلة الهند أوربية ، وقـــد حدث مثل هذا الأمر فى كثير من البلاد الأوربية الأخرى حيث كانت هذه الروح هى الســـائدة والمسيطرة على أذهـــان كثير من علمـــاء القرن التاسع عشر .

وبالاضافة الى ذلك كانت التفسيرات المتضادة للظواهر اللغوية عند العقليين والتجريبيين ميراثا أدى الى الاهتمام بالأشكال القاموسية والتراث النحوى الذى كان المـــادة العلمية الوحيدة الصالحة فى الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٩ .

أما العامل الذى كان له تأثير كبير فى منهج البحث اللغوى التاريخى المقارن ؛ بل وفى كثير من أفكار وتصورات لغويى القرن التاسع عشر فهو النزعة التطورية والنظرة الطبيعية التى توجها دارون فى منتصف القرن بنظريته المسماة بنظريـــة النشـــوء والارتقاء Evolutionstheorie التى نشرها عام ١٨٥٩ •

سبقت نظرية دارون محاولات عديدة لعلماء اللغة فى تشبيه اللغة بالكائن الحى وعلم اللغة بعلم الأحياء ، فقد كتب بــوب Bopp عام ١٨٣٦ « إن اللغات ترى كأجسام طبيعيــة عضوية تتشكل حسب قوانين محددة ، إنها نظام حياة داخلى تتطور ثم تموت بعد ذلك » (١) •

ونجــد تأثير دارون واضحــا على لغويين آخرين من أمثال بوت وشليشر ؛ بل إن تأثير نظريته كان عاما فى كثير من مناهج العلوم والفلسفة السائدة آنذاك • نظر اللغويون الى اللغات على أنها كائنات حية تنشأ ثم تتطور وتنتهى حياتها أخيرا بالموت ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هناك صلات قرابة بين بعضها والبعض الآخر كالصلات التى تربط بين أعضاء الكائنات الحية كما فى التاريخ الطبيعى •

وكان تأثير المناهج الطبيعية الفزيائية أكثر وضوحا فى الدراسات الصوتية ، وفى عام ١٨٧٦ ينشر سيفرز E. Sievers بحثا بعنوان « أسس علم وظائف الأعضاء الصوتية Grundzüge der Lautphysiologie » وقد طبق دراسته تلك على أصوات اللغات الهندجرمانية • واذا عــد شليشر اللغوى ممثلا للنظرة البيولوجية فى الدراسات اللغوية فإنه يمكننا أن نعــد نظرية النحــاة الشبان نموذجــا لتمثيل المنهج الفيزيائى فى الدراسات اللغوية التاريخية •

---

(1) Robins : Ideen-und problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 41.

ولا نبالغ اذا قلنا إن نظرية التطور هذه أثرت الى حد كبير فى النظريات النفسية السيكولوجية خلال القرن التاسع عشر ، فقد حاول هيلمهولتس Helmholtz أن يؤسس بحثا فى علم النفس يقوم على العلوم الطبيعية ، وكان هيلمهولتس ضـد التصور الرومانسى فى علم النفس وضد اعتباره جزءا من علم الروح ، ويمكن القول باختصـار إن المنهج السلوكى أو التفسير الآلى لكل جوانب الحياة الانسانية ليس إلا أثرا من آثار النظرة الطبيعية الى الظواهر أو الأشياء والتى ترجع بالطبع الى نظرية دارون السابقـة •

أما المراحل التى مرت بها مقارنة اللغات فى أوربا فهى ثلاث :

المرحلة الأولى :

تشمل هـذه المرحلة محاولات العلماء تفسير ظاهرة التشابه بين الخصائص اللغوية فى بعض اللغات ، وقد أشرنا سابقا الى تلك الملاحظات التى أبداها كثير من العلماء على التشابه بين اليونانية واللاتينية منذ عصر الميلاد ، وقد استمرت تلك النظرة خلال العصور الوسطى وحتى اكتشاف اللغة السنسكريتية •

كما وجدت مثل هذه المقارنات فى أنحـاء متفرقة فى العالم وبين مجموعات لغوية أخرى ، ومن ذلك المقارنة بين أشكال الكلمات فى الفنلندية والمجرية نهاية القرن الثامن عشر فى بحث ب • سينوفيك p. Sajnovic (١٧٧٠) وبحث س • جيارمـاثى S. Gyarmathi (١٧٩٩) ، ثم استفادت هـذه الدراسات المقارنة فى مجال اللغات الفلندية والمجرية من التطور الذى حدث فى مقارنة اللغات الهندجرمانية •

أمـا فى مجـال العائلة الهندجرمانية فقـد ألف فرانس بوب Franz Bopp (١٧٩١ — ١٨٦٧) كتابه : عن نظام التصريف فى اللغة السنسكريتية بالمقارنة مـع نظام التصريف فى اليونانيـة واللاتينيـة

والفارسية والألمـــانية «
«Uber das Conjugationssystem der Sanskritsprache in Vergleichung mit einem der griech., lat., pers. und german Sprache».
والذى ألفه عـــام ١٨١٦ ، هذا وتنبغى الاشـــارة الى أن بوب لم يكن أول مؤسس للقرابة بين لغات العائلة الهندجرمانية حيث سبقه جونز فى هـــذا الأمر ، وإن كان يرجع الفضل الى بوب فى أنه أكد على أن كلّ هذه اللغات تنتمى الى أسرة لغوية واحدة .

ولميكن نجاح بوب فى اكتشافه قرابة السنسكريتية للغات أوربية وآسيوية ؛ ولكن لأنه أكد على أن مثل هذه الصلات اللغوية أصبحت موضوعا من الموضوعات التى يهتم بها علم اللغة ، وإن كان تطبيقه لهذه القرابة جاء فى المقام الأول فى المجال الصوتى .

وقد أفـــاد العلماء فائدة كبيرة من اكتشـــاف السنسكريتية حيث اكتملت بها سلسلة المقارنة بين اللغات الثلاث (اليونانية ــ اللاتينية ــ السنسكريتية) ، ويكفى أن نلقى نظرة على أشكال كلمـــة genos فى اللغات الثلاث حتى نعرف مدى الصلة والقرابة بينها ، وفيما يلى أشكال الكلمة وتصاريفها فى هذه اللغات :

اللاتينية :	genus, generis, genere, genera, generum
اليونانية :	génos, géneos, génei, génea, genéön
السنسكريتية :	ganas, ganasas, ganasi, ganassa, ganasäm

وكما يقول دى سوسير : « إن نظرة على ذلك تكفى لمعرفة الصلة بين الجدول اليونانى واللاتينى ، واذا كانت genos تمثل الحالة الأصلية فإنه من المفيد القول بأن (S) فى الشكل اليونانى géne (s) os وفى الأشكال الأخرى بالطبع سقطت حيث جاءت بين حركتين ، أمـــا فى

اللاتينية فإن (S) تحت الشروط نفسها تتحول الى (r) » (١) •

وقد اقتحم مجال البحث ياكوب جريم J. Grimm (١٧٨٥ — ١٨٦٣) الذى ألف كتابا هاما فى النحـو الألمانى بعنوان «Deutsche Grammatik» ، ويبـدو من مقدمـة الكتـاب ميل جريم الى منهـج التجريبية فى البحث حيث يقول : « إننى ضد المفهومات المنطقية العامة فى النحو ، فهى وإن كانت تقود الى ضبط واضح والى توحيد تعريفاتها إلا أنها عرقلت الملاحظة التى اعتبرها روح البحث اللغوى » (٢) •

وفى عام ١٨٤٨ طبع لجريم فى جزئين « تاريخ اللغة الألمـانية » ، وقد جاءت مقارنة جريم للأصـوات والصيغ الألمانيـة مطابقة لمقارنة التصريف فى اللغات الهند أوربية عند فرانس بوب عام ١٨١٦ •

أما بوت A. F. Pott (١٨٠٢ — ١٨٨٧) فإنه يعد من أكبر مؤسسى النحو الهند أوربى المقارن ، وذلك من خلال دراساته الاشتقاقية التى تعطى للباحث مجموعة قيمة من المـادة اللغوية ، كما أكد بوت على أن اللغات تشبه الأجسام الطبيعية العضوية فى تطورها ثم موتها فى نهاية الأمر •

وفى منتصف القرن التاسع عشر حـاول شليشر A. Schleicher (١٨٢١ — ١٨٦٨) لأول مرة تدوين نتائج الدراسات التفصيلية ، وكان كتابه المختصر عن قواعد اللغات الهندأوربية Sprachvergleichende Untersuchungen الذى صدر بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٥٠ نوعا من تنظيم العلم المقارن الذى أسسه بوب (٣) ، حيث وضح بالتفصيل شجرة العائلة

---

(1) F. De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft S. 2,3 (2. Auflage).

(٢) نقلنا نص جريم عن روبنز فى كتابه :
Ideen - und problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 31.

(3) F. De Saussure : Grundfragen der allgemeinen .. S. 4.

التى تنتظم لغات الهند أوربية ، ومايزال النموذج الذى وضعه شليشر مستعملا حتى اليوم ، وإن كان صححه فى المرحلة التالية النحاة الشبان الذين ظهروا فى نهاية القرن التاسع عشر فى ألمـانيا .

إن وضع شليشر السنسكريتية فى قمة شجرة العائلة اللغوية فى أسرة الهند أوربية على حين أنه وضع لغة الهند الأصلية فى مكان أسفل الشجرة بسبب احتفاظ السنسكريتية بنظام الحركات الثلاثى الخـاص باللغة الأم ليدل دلالة قاطعة على مدى تأثير اللغة السنسكريتية علـى علم اللغة الهندجرمانية ، وقد صحح هذه الفكرة ويتنى Whitney عا ١٨٦٧ حيث لم يتناول السنسكريتية على أنها اللغة الأم لهذه العائلة ؛ بل على أنها الأخت الأقدم (١) .

ولا ننسى أثناء الحـديث عن شليشر ربطه نظام اللغة بالنظام التاريخى ، ويمكننا أن نقول إنه وضع النمطية التاريخية فى الدراسات اللغوية ، حيث كان يعتقد أن المعرفة التاريخية ضرورية لعلماء اللغة ، وأن النظم التاريخية وحدها هى التى يمكنها تقديم توضيح مناسب للحقائق اللغوية الملاحظـة ، يقول شليشر : « اذا لم نعرف كيف كان الشىء فإننا لن نعرفه أبدا » (٢) .

وينبغى عنده أن تخضع كل القوانين اللغوية (وبخاصة القوانين الصوتية فهى التى كانت سائدة فى عصره) لقوانين الطبيعة ، كما أنها تتبع التصنيف الأساسى فى التاريخ ، حيث توجـد مرحلة ما قبل التاريخ فى نشأة اللغة ثم تعقبها مرحلة التطور والارتقاء وتأتى فى النهاية مرحلة

---

(1) Romins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S 35.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩ ، وقد نقل روبنز نص شليشر عن كتابه : نظرية دارون وعلم اللغة .

Die Darwinsche Theorie und die Sprachwissenschaft S. 10 (Weimar 1863).

الانحلال التاريخى ، ويحاول شليشر فى كتابه « تلخيص النحو المقارن • للغات الهندجرمانية » والذى توصل فيه الى وضع السنسكريتية فى قمة شجرة العائلة تطبيق المنهج التاريخى فى نشأة اللغات وأصولها البعيدة •

وينبغى أخيرا أن نشير الى بعض العلماء الذين قدموا جهدا لا ينكر خــلال تلك المرحلة فى مجــال الدراسات التاريخية المقارنة ، هــؤلاء العلماء هم :

١ — ماكس موللر Max Müller الذى ولد عام ١٨٢٣ وتوفى بأكسفورد عام ١٩٠٠ ، ومن أشهر أعماله « محاضرات فى علم اللغة » عام ١٨٦١ ، ثم كتاب « دروس حديثة فى علم اللغة » الذى ظهر عام ١٨٦٤ ، ويذكر لموللر تصنيفه لغات العالم الى ثلاث عائلات أو فصائل هى : الهند أوربية — السامية الحامية — الطورانية ، وقضى بذلك على تصنيف اللغات عند شليجل August Wilhelm von Schlegel (١) الى ثلاثة أنواع :

(أ) اللغات الانعزالية Isolierende Sprache ، وهى اللغات التى لا تقبل كلماتها التصريف لا بتغيير البنية ولا بلصق حروف أخرى •

(ب) اللغــات الإلصاقية agglutinierende Sprache ، وفيها يتغير معنى الكلمة وعلاقتها بغيرها من الكلمات الأخرى بلصق حروف بها •

---

(١) ولد اوغسط شليجل بمدينة هانوفر فى المانيا عام ١٧٦٧ وتوفى ببون عام ١٨٤٥ ، وكان شاعرا وناقدا ادبيا درس اللغات الشرقية حتى اصبح عام ١٨١٨ الأستاذ الأول للدراسات الهندية فى المانيا وله مؤلفات عديدة فى الآداب والترجمات منها كتابه « محاضرات عن الفن والأدب الدرامى » عام ١٨٠٩ ، وهو الأخ الأكبر لفريدريش شليجل الذى ولد عام ١٧٧٢ وتوفى عام ١٨٢٩ بدرسدن والذى درس اللغات الشرقية ايضا بالاضافة الى دراسته اللغة السنسكريتية ومن اشهر اعماله « عن لغة الهنود وحكمتهم » انظر :
European Literature «Schlegel» by Anthony Thorlby (2. Edited).

(جـ) اللغات المعربة flektierende Sprache ، وتمتاز كلمات هذه اللغات بأن معانيها تتغير بتغير أبنيتها ، كما أن أجزاء الجملة يتصل بعضها بالبعض الآخر بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات (١) .

ولا نهدف هنا الى بيان فساد نظرية شليجل فى تصنيف اللغات الى هذه الأنواع الثلاثة ، أو عدم دقة تصنيف ماكس موللر اللغات الى ثلاث أسر أو عائلات ، إنما نهدف فى المقام الأول بيان الدور الذى أداة ماكس موللر فى حركة تطور الدراسات التاريخية المقارنة .

٢ — ولهلم فون هومبلدت Wilhelm Von Humboldt (١٧٦٧ — ١٨٣٥) ، وألف كتابا هاما بعنوان « تنوع بناء اللغة الانسانية Die Verschiedenheit des menschlichen Sprachbaues » الذى ظهر عام ١٨٣٦ ، ويتأرجح فيه رأى هومبلدت بين الأخذ فى تصنيف اللغات بالنظام الثنائى بمعنى تقسيمها الى : لغات انعزالية ، وأخرى معربة ، وتنتمى الإلصاقية فى هذه الحالة الى المعربة ، أو الأخذ بالنظام الرباعى ، حيث تصنف اللغات حينئذ الى أربعة أقسام : انعزالية ، معربة ، إلصاقية ، انضمامية inkorporiende (٢) ، كما يعد هذا البحث أول كتاب كبير فى علم اللغة العام (٣) .

٣ — هيمان شتاينتال H. Steinthal (١٨٢٣ — ١٨٩٩) ، وله عدة كتب أسهمت الى حد كبير فى إرساء أسس تصنيف اللغات ووضع قواعد علم اللغة التاريخى المقارن ، ومنها كتابه « قصة علم اللغة عند

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte .. S. 38.
وانظر أيضا كتاب د . على عبد الواحد وافى « علم اللغة » ص ١١٥ ، ص ١١٨ (الطبعة السابعة) .

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 38.

(٣) د . محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربى ص ٣٦٩ (دار المعارف ١٩٦٢) .

اليونان والرومان Geschichte der Sprachwissenschaft bei den Griechen und Römern » الذى ظهر عام ١٨٩٠ ، أما كتابه الذى طبع عام ١٨٥٠ تحت عنـوان « تصنيف اللغـات المثـل لتطـور الأفكار اللغـوية Die Classification der Sprachen, dargestellt als Entwicklung der Sprachidee » فهـو توضيح لتقسيم هومبلدت ، وقد حاول شتاينتال أن يدلل على عدم استخراج نموذج تصنيفى واحـد للغات العـالم كما يزعم الفلاسفة ، ثم يشير الى أن تطور اللغات ينبغى أن يقـارن بتطور الطبيعة (١) •

٤ — وليلم دويت ويتنى William Dwight Whitney (١٨٢٧ — ١٨٩٤) ، وهو لغوى أمريكى له عدة مؤلفات عديدة كان لها أكبر الأثر فى تأسيس فقه اللغة المقارن ، وهو فى الحقيقة عالم فى السنسكريتية ، وقـد ترجم من السنسكريتية الى الانجليزية بعض المقالات الخاصـة بالأصوات اللغوية ، ومن أشهر كتبه « اللغة ودراسة اللغة Language and Study of Language, 12 Lectures in Linguistics » ويتضمن كما يبدو من العنوان اثنتى عشـرة محاضرة فى علم اللغة • أما كتابه الثانى فهـو « حياة اللغة ونموها The Life and Growth of Language » وقـد ألفه عام ١٨٧٥ (٢) ، وفيـه يرى أن اللغـة عبـارة عن نظام اجتماعى (٣) •

---

(1) Rolf Dietrich : Sprachwissenschaft im 19. Jahrhundert in Deutschland S. 126 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(٢) يذكر بلومفيلد انه الف عام ١٨٧٤ وأن كتبه ترجمت الى لغـات اوربيـة عديدة أنظر :

Bloomfield : Language p. 16.

(3) F. De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft S. 12,89.

المرحلة الثانيـــة :

ونقصد بهذه المرحلة جهود علماء القرن التاسع عشر فى مجـــال الدراسات الرومانية والتى أسهمت الى حد كبير فى إرساء قواعد علم اللغة التاريخى المقارن ، وكانت الموضوعات التى بحثها هؤلاء العلمـــاء ملاحظة اللاتينية ولغاتها العامية وبحثها فى إطار اللغات النهدأوربية ، وقد تمثل ذلك فى كتاب ديتز F. Diez المسمى « نحو اللغات الرومانية Grammatik der romanischen Sprachen الذى ألفه بين عامى ١٨٣٦ ، ١٨٣٨ » (١) ٠

ويرى دى سوسير أن علماء الدراسات الرومانية وجدوا فى ظروف علمية أفضل من علماء الدراسات الهند أوربية ، حيث عرفوا اللاتينية (الشكل الأصلى لهذه اللغات الرومانية) من خـــلال تتبعهم بالتفصيل لتطور اللهجات ، هذا بالإضافة الى اطلاعهم على ثروة الوثائق اللغوية ٠ وقد ساعدت هذه الظروف العلماء فى دقة نتائجهم بالنسبة لأصل الفرع الجرمانى (٢) ٠

وينبغى أن نشير الى أن ديتز سبق بدراسات فى هذا المجال ، فقد قارن دانتى قبل أكثر من خمسة قرون بين اللاتينية المكتوبة وبين لغات فرنسا الحية المنطوقة ولغات إيطاليا ٠ كذلك يشار فى هذا المجال الى الدراسات التاريخية لهذه اللغات الرومانيـــة التى قام بهـــا راينووارد F. Raynouard بعنوان « Grammaire de la langue romane » عام ١٨١٦ ٠

وكانت السنسكريتية أو بعبارة أدق نحـــو السنسكريتية نقطـــة

---

(١) يذكر دى سوسير انه الفه بين عامى ١٨٣٦ ، ١٨٣٨ على حين يذكر روبنز أنه الف بين عامى ١٨٣٦ ، ١٨٤٤ انظر :

F. De Saussure : Grundfragen der allgemeinen .. S. 5,6, Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 33.

(2) F. De Saussure S. 6.

الانطلاق التى كان يبدأ منها علماء المقارنات بحوثهم التاريخية ، وقد تم ضم دراسة السنسكريتية الى علم اللغة فى الجامعات ، حيث كان الأستاذ يمثل فى هذا المجال أستاذية الأدب الشرقى وعلم اللغة العام مثل بوب فى برلين عام ١٨٢٢ (١) .

مدرسة النحاة الشبان :

(Die Junggrammatiker) Die Jungrammatische Schule

فى نهاية القرن التاسع عشر تكون فى جامعة لايبزج Leipzig بألمانيا اتجاه جديد فى علم اللغة التاريخى المقارن ، وقد أسس هذا الاتجاه من العلماء الألمان : بروجمان K. Brugmann ، أوستهوف H. Osthoff ، ديلبروك Delbrück ومن علماء الدراسات الألمانية براونى W. Braune وسيفرز E. Sievers وباول H. Paul بالاضافة الى عالم الدراسات السلافية ليسكين Leskien ، وكان أول من أطلق عليهم هذا الاسم عالم الدراسات الألمانية زارنكى F. Zarncke ، لأنهم كانوا ينتمون الى علماء اللغة من الجيل الجديد ، هذا بالاضافة الى أنهم صغار السن ، كما كان يطلق عليهم أحيانا مدرسة لايبزج ، وكان لتشجيع أستاذهم شيرر Scherer (١٨٤١ — ١٨٨٦) أثره الكبير فى انتشار آرائهم الجديدة الثورية فى ذلك الوقت .

وفيما يلى أهم الأفكار والنتائج التى توصل اليها هؤلاء العلماء الشبان :

أولا : دعا هؤلاء اللغويون الى تطبيق منهج التطور الصارم فى علم الطبيعة على الظواهر اللغوية وبخاصة الظواهر الصوتية ، وقد أطلق ليسكين لأول مرة تعبيرا أصبح شائعا فى منهج نظريتهم وهو عدم

---

(1) Robins : Ideen - und problemgeschichte .. S. 33.

شذوذ القوانين الصوتية وشبهها بقوانين علم الطبيعة ، فإذا ثبت أن صوتا من الأصوات فى لغة ما تغير الى صوت آخر فى ظل شروط معينة فى زمن محدد من تاريخ اللغة فإنه ينبغى أن ينطبق هذا التغير علـى كل الأصوات المشابهة فى كلمات ذات اللغة وفى اطار الشروط نفسها (١) •

إن الجانب الفيزيائى فى اللغة هو نقطة انطلاقهم ، وقد طبقوا ذلك تماما على الظواهر الصوتية ، وسبق أ نأشرنا (٢) الى دراسات سيفرز الفوناتيكية التى كانت بعنوان « أسس علم وظائف الأعضاء الصوتية » عـام ١٨٧٦ •

وقد هاجم هذه الفكرة من ينتمى الى المدرسة المثالية الذين يؤكدون على دور المتكلم الفرد فى تغيير اللغـة ، ولا ينكر أحـد مثلا التأثير اللغوى فى أعمال العباقرة الأدباء من أمثال دانتى وجوته وشكسبير ، ومن هؤلاء الذين هاجموا هذه النظرية فوسلر K. Vossler من ألمانيا وكروس Crose من ايطاليا (٣) •

ثانيا : هاجم النحاة الشبان بشـدة أفكار شتاينتال الذى أكـد قبلهم على أن اللغة كعنصر استقلت أساسا عن أرواح الأفراد وذلك من خلال عمله « نفسية الشعوب Völkerpsychologie » أو فى كتابه « روح الشعب Volkgeist » ، وطالبوا بوصف الأشياء الحقيقية الموجـودة فى الواقع •

وقد خالف علم اللغة البنائى فى القرن العشرين النحاة الشـبان فى أمرين :

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik S. 16 (2. Auflage).

(٢) انظر ص ٦٥ من هذا الكتاب •

(٣) ماريو باى : اسس علم اللغة ص ٢٣٤ وانظر :
Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 51.

الأول : قولهم بوجود لغة موحدة فى المجتمع ، حيث يرى علماء اللغة البنائيون أنه لا توجد مطلقا اللغة التى يتساوى كل أفراد الجماعة اللغوية فى اكتسابها ، فاللغة ليست إلا نسيجا من ارتباطات اجتماعية وليست عناصرها سوى تصورات موجودة فى عقول أفراد المجتمع اللغوى ، ولا تتم العمليات النفسية إلا فى عقول وخيالات الأفراد ؛ ومن ثم لا يسمح بما يسمى اللغة الجماعية Kollektivsprache التى ينادى بها النحاة الشبان (١) •

الثانى : يفسر النحاة الشبان اللغة على أنها حالة أو انتاج لتغير حتمى من حالة سابقة كما يحدث تماما فى الأحداث التاريخية ، فكل مرحلة ليست أكثر من تغيير لمرحلة سبقتها ، وقد أطلق اسم التاريخية Historismus عنوانا لهذه النظرة • ومهمة اللغوى فى رأيهم إنما هى رصد هذا التغير المنظم فى اللغة واكتشاف أبعاده ، وكان تطبيقهم للنظرة التاريخية منتظما بصفة خاصة على الظواهر الصوتية • أما المعنى فأقل انتظاما لارتباطه بعوامل لا يمكن التحكم فيها ، هذا وإن كانت هذه النظرة صحيحة فى جملتها إلا أن الدراسات الوصفية فى القرن العشرين أشارت الى أهمية دراسة اللغة فى مراحل ثابتة من تاريخ اللغة قبل بحث التغير الذى يصيب الظواهر عبر التاريخ (٢) •

ثالثا : خالف باول زملاءه من النحاة الشبان بانشغاله بالعوامل النفسية والاجتماعية التى تؤثر فى رأيه على التطور اللغوى وهى عوامل خارجة عن حدود اللغة نفسها ، وقد لاحظ باول أن القوانين الصوتية لا تكون دائما منتظمة فأراد أن يضع لها قوانين نفسية واجتماعية تفسر كل الظواهر التى تشذ عن نطاق الحتمية الصارمة ؛ ومن ثم يرى أن

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 13 (2. Auflage).

(٢) المرجع السابق ص ١٤ •

اللغة مثلها مثل كل انتاج ثقافى انسانى ينبغى أن تلاحظ تاريخيا وأن يوضع لها علم لدراسة هذا الجانب الثقافى .

وعلم اللغـة التاريخى فى رأى باول ليس إلا جزءا مـن العلوم التاريخية التى هى فى الوقت نفسه جزء من العلوم التجريبية ؛ ومن ثم يقسم باول العلوم التاريخية الى علوم طبيعية وأخرى ثقافية ، ثم يرى أن الثقافة ليست إلا النشاط النفسى للانسان . وقد خالف باول رأى استاذه شيرر بتمسكه بالأساس الفسيولوجى وبآراء بعض معاصريه من أمثال أوست هوف وبروجمان ، ولكن على الرغم من ذلك كله فقد كان تأثير كتابه « أسس التاريخ اللغوى Prinzipien der Sprachgeschichte » كبيرا على الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة ؛ بل إن تأثير النحـاة الشبان مازال باقيا حتى الآن فى بحوث المدارس العليا (١) .

إن أفكار النحاة الشبان ومنهجهم فى التفكير اللغوى هوجمت بشدة من علماء عصرهم ، وذلك بتأثير نتائج الدراسات اللهجية التى ارتبط انتشارها بأحد علماء اللغة الفرنسيين وهو جيلليرون Gilliéron ، وقد هزت هذه النتائج الاعتقاد بعدم شذوذية القوانين الصوتية (٢) .

وعلى الرغم من أن دى سوسير تلقى تثقيفه العلمى فى السبعينات فى نهاية القرن المـاضى وفى مدينة لا يبزج وسط النحاة الشبان ، وعلى الرغم من أن دراساته الأولى كانت عن لغات العائلة الهند أوربية وتقديره لدراسات النحاة الشبان وبخاصة فى أعماله عام ١٨٧٩ إلا أنه درس منذ عام ١٨٩٠ عقائدهم بشكل جديد ، كما قام ببحوث تختلف الى حد

(1) Rolf Dietrich : Sprachwissenschaft im 19. Jahrhundert in Deutschland S. 130 im Buch : Grundzüge der Literatur-und Sprachwissenschaft.

(2) Heeschen : Grundfragen der Linguistik S. 20.

كبير عن منهجهم ؛ بل إن أفكاره اختلفت بصورة كبيرة عن كل الآراء والتصورات فى مجال البحث اللغوى ، تلك التصورات التى كانت سائدة خلال القرن التاسع عشر ، وهذا هو موضوعنا فى الفصل التالى .

الدراسات السامية

مما لا شك فيه فإن عائلة اللغات الهند أوربية هى العائلة الأولى فى مدى العناية التى لاقتها من الباحثين الغربيين ، ويرجع ذلك لسببين هامين : أحدهما تيسر المادة المبكرة المسجلة التى سمحت بعمل مقارنات شاملة ، أما الثانى فهو طبيعة الاهتمام الذى حف بتلك اللغات نظرا للكثرة الكثيرة من المتكلمين بها (حوالى نصف سكان العالم يتكلمون لغات من أصل هندى أوربى) ، وللدور الكبير الذى لعبه المتكلمون بها فى ميدان الحضارة العالمية (١) .

وقد شجعت نتائج الدراسات التاريخية المقارنة خلال القرن التاسع عشر علماء الساميات على البحث فى صلة القرابة بين اللغات السامية ، هذا على الرغم من أنها ظلت متخلفة عن مثيلتها الهند أوربية بسبب بعد النصوص اللغوية عن علماء اللاهوتية Theologen الذين كرسوا جهودهم لدراسة هذه اللغات .

لا يستطيع أحد أن يقول إن الدراسات السامية المقارنة نشأت فجأة فى القرن التاسع عشر ، بل إن هذه الدراسات ظهرت قبل ذلك بكثير عند علماء العربية أنفسهم أو على يد علماء العبرية والسريانية ، ولكنها كانت دراسات متناثرة لم ترق الى ما وصلت اليه على يد المستشرقين الذين اهتموا بها اهتماما كبيرا متأثرين بنظائرهم عند علماء اللغات الهند أوربية .

---

(١) ماريو باى : اسس علم اللغة ص ١٧٤ ، ترجمة د . احمد مختار عمر (الطبعة الثانية ١٩٨٣) .

ولا شك أن من أسباب اهتمام علماء الغرب باللغات السامية هو العامل الدينى ، فالعبرية لغة العهد القديم ، كما ارتبطت السريانية بنشأة الدين المسيحى فى الشرق ، أما العربية فقد استعانوا بها لفهم نص العهد القديم ، ومما أدى الى مزيد من الاهتمام باللغة العربية الاتصال بين الشرق والغرب فى الأندلس أو أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، فبدأ الغرب يأخذ من حضارة الشرق ونظمه بنصيب وافر وازداد تعرفه بلغات الشرق ، هذا بالاضافة الى اتساع دائرة الاهتمام باللغات السامية فى القرن السابع عشر عندما بدأ البحث اللغوى فى لغة الجعز أى الحبشة القديمة ، بينما استمر الاهتمام بالعبرية والآرامية والعربية » (١) •

وظلت اللغات السامية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تدرس تحت اسم اللغات الشرقية ، لأن العلماء عرفوها من خلال العهد القديم (٢) ، وظل الأمر كذلك الى أن أطلق عليها شلوتزر Schlözer عام ١٧٨١ اسم اللغات السامية ناسبا إياها الى سام بن نوح (٣) •

لقد عرفت الممالك القديمة الشرقية فى بداية القرن الماضى من خلال تقارير الكتاب اليونانيين ، ثم كان فك رموز الكتابة المسمارية التى قام بها الألمانى جروتفند Grotefend وسيلة للوصول الى ثقافة كانت غير معروفة تماما ، فعن طريق الخط المسمارى عرف الانسان الأكادية التى كانت تسمى الأشورية ، وقد أكمل هذا الاكتشاف بناء الدراسات السامية •

---

(١) د • محمود حجازى : أسس علم اللغة العربية ص ١٣٤ (دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩) •

(2) Brockelmann : Stand und Aufgabe der Semitistik, ein Artikel in : Beiträge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, S. 15.

(3) S. Moscati : An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages. phonology and morphology p. 3. (1964).

وشجع ازدهار الدراسات المقارنة فى مجال اللغات الهند أوربيــة علماء الساميات على البحث والدراسة ، ويشار الى العالم دى ساكى de Sacy على أنه مؤسس دراسات اللغة العربية • وإن كان قد تأثر فى منهجه العلمى بالبحوث المنطقية الفلسفية فى نحو بورت رويال ؛ ومن ثم جاء كتابه عن النحو العربى متضمنا بحث العلاقة بين اللغــة العربية والمنطق ، أما تلميذه الألمـــانى فلايشر J. H. L. Fleischer فقد تتبع خطوات أستاذه فى توضيح علاقة القواعد التى وضعها النحاة العرب بالمنطق (١) •

أما نولدكه Nöldeke فى نهاية القرن التاسع عشر فقد ترك دراسة فقه اللغة الكلاسيكى الذى كان سائدا فى أوربا آنذاك ، حيث كان كأستاذه P. Haupt مهتما بالنحو المقارن فى مجال اللغات الهند أوربية ، وأخذ عنه أسس هذه الدراسات المقارنة ، ولكنه تركها وكان جل اهتمامه دراسة الآرامية أولا ثم العربية بعد ذلك (٢) •

واذا كانت الدراسات التاريخية المقارنة فى العائلة الهند أوربية قد راجت بسبب تخليها عن اللغات الميتة ، حيث امتدت الى اللغات واللهجات الحية ، فإن علم الساميات كسب رواجه منذ منتصف القرن التاسع عشر من اللهجات العربية والآرامية والحبشية التى ماتزال حية حتى الآن (٣) •

ولم يثمر البحث فى الأكادية عن النتيجة المتوقعة ، حيث لم يؤد الى دفع البحث فى اللغات السامية الأخرى ، وإن كان قد أدى الى تصنيف الأكادية الى اللهجتين الرئيسيتين : الأشورية والبابلية ، هذا بالاضافة الى التمييز بين المراحل الثلاث التى مرت بها هاتان اللهجتان •

---

(1) Brockelmann : Stand und Aufgabe der Semitistik, S. 6.

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

(٣) المرجع الســـابق ص ٧ .

ويرى بعض علمـــاء الساميات من أمثال هاوبت P. Haupt أن الأكادية (التى كانت ماتزال تسمى الأشورية خلال القرن التاسع عشر) تماثل بالنسبة للغات الســامية السنسكريتية فى مجــال اللغات الهند أوربيـــة •

وقد فشلت محاولات بعض العلماء فى القيام بربط أصــل اللغات السامية بالعائلة الهند أوربية ، هــذا على الرغم من أن صلة القرابة بين الظواهر اللغوية فى اللغات السامية ونظائرها فى العائلة الهند أوربيـــة أقرب من الصلة بين ظواهر اللغات الهند أوربية وفصائل لغوية أخرى مثل الفنلدية ــ المجرية أو المنغولية ــ التركية [1] •

ولا نود فى هذا المقام تتبع الدراسات السامية خلال القرن العشرين وما وصلت اليه من تصنيف لغات العائلة السامية تصنيفا جغرافيا الى شرقية وغربية وشمالية وجنوبية أو تقسيمها بناء على الصفات اللغوية المشتركة بينها أو الخصائص التى تتماثل فى بعضها فإن مثل هذا الأمر يحتاج الى بحث مستقل ليس هنا مجاله بالطبع ، ويمكن الرجوع فى هــذا الصـــدد الى مؤلفات نولدكه Th. Nöldeke وكارل بروكلمان C. Brockelmann وفون سودن Von Soden وموسكاتى Sabatino Moscati وشبيتلر A. Spitaler وبرجشتراسر Bergsträsser وغيرهم من علماء الساميات القدامى والمحدثين •

---

(١) المرجع السابق ص ٨ •

الفصل الرابع

دى سوسير

دى سـوسـير

يعد فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ — ١٩١٣) رمز لبداية عهد جديد فى تاريخ الدراسات اللغوية ، لما جاء به من أفكار حديثة أو تصورات جديدة للنظريات القديمة التى سادت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر •

تلقى دى سوسير تعليمه فى السبعينات من القرن الماضى فى لايبزج وسط مجموعة النحاة الشبان ، وقد أهدى أعماله المنشورة آنذاك ومؤلفاته التى تناولت اللغات الهندجرمانية الى علماء لايبزج •

بدأ دى سوسير فى الفترة بين عامى ١٨٩٠ — ١٩٠٠ استرجاع عقائد النحاة الشبان وأفكارهم وحاول البحث عن إطار جديد لعلم اللغة ، ومن عام ١٩٠٦ حتى ١٩١١ ألقى دروسه ومحاضراته عن علم اللغة العام فى جامعة جنيف ، ومن تدوين المحاضرات التى ألقاها دى سوسير خلال تلك الفترة أخرج تلميذا دى سوسير تشارلز بيللى Ch. Bally وسيشهاى A. Séchehaye بالاضافة الى مساعدة ريد لنجر A. Riedlinger كتابه الشهير « «Cours de linguistique générale» » الذى نشر عام ١٩١٦ ، وابتداء من الطبعة الثانية عام ١٩٢٢ انتشر الكتاب انتشارا واسعا ، وبعد مدة قصيرة ترجم الى جميع اللغات الأوربية ، وترجمة الى الألمانية هيرمان لوميل Herman Lommel بعنوان «Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft»

وفى إطار هذه الظروف التى مر بها اخراج الكتاب أبدى كثير من الباحثين واللغويين شكوكهم فى نسبة مجموعة كبيرة من الأفكار لدى سوسير ، ومن هؤلاء جودل Godel فى كتاباته عن دى سوسير عام ١٩٥٧ ، كذلك نجد مثل هذه الفكرة فى النقد الذى وجهه انجلر Engler للكتاب عام ١٩٦٨ ، حيث أشار فيه الى أن بيللى وسيشهاى

قضيا كثيرا على التناقضات التى كانت موجودة فى أفكار دى سوسير ، كما أنهما أكدا على ميل دى سوسير الاجتماعى فى الدراسات اللغوية ، ذلك الميل الذى يناسب أفكارهم الخاصة (١) ٠

وفى الصفحات التالية توضيح لأهم أفكار دى سوسير وتصوراته عن اللغة ودراستها :

أولا : الاتجاه الاجتماعى :

من المعروف أن دى سوسير يعد رائد المدرسة الاجتماعية فى الدراسات اللغوية الحديثة ، وإن المتتبع لمصدر هذه النظرة الاجتماعية عنده يجد أنها ترجع بلا شك الى مذهب إميل دوركايم Emile Durkheim (ت ١٩١٧) رائد علم الاجتماع الحديث والذى كان صديقا لدى سوسير ٠

جعل دور كايم علم الاجتماع محور دراساته متأثرا فى ذلك بكانت ؛ ومن ثم جاء اهتمامه بدراسة الظاهرة الاجتماعية توطئة لاقامة الاجتماع علما واقعيا مستقلا . فالظاهرة الاجتماعية تنشأ عنده خارج شعور الفرد كحقيقة موضوعية . تؤثر فى الفرد وتوجه سلوكه وتفكيره وشعوره على غير إرادة منه ، بل ليس فى سعه أن يقاوم تأثيرها ، وهى تخضع لقوانين علمية شأنها فى ذلك شأن الظواهر الطبيعية ، وهذا يبرر اخضاعها لدراسة علمية موضوعية لا تتدخل فيها أهواء الباحث وعواطفه ، فهى تنشأ بنشأة الاجتماع البشرى لأنها من صنع العقل الجمعى Collective mind وتتميز بصفة الالزام والقهر . بمعنى أنها تفرض نفسها على الأفراد فلا يملكون إلا طاعتها راضين أو كارهين ، وبهذه الصفة تتأكد موضوعية الظواهر الاجتماعية » (٢) ٠

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik S. 21.

(٢) د ٠ توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ، نشأتها وتطورها ص ٢٦٩ — ص ٢٧٠ (الطبعة الأولى ١٩٦٠) ٠

.. هكذا يميل دور كايم الى أن يكون وضعيا ضد النزعات الفردية فى تفسير الظواهر الاجتماعية ، وطالب بوجود جوهر مستقل لهذه الظواهر الاجتماعية وبأنها نماذج سلوكية حقيقية لأعضاء المجتمع •

ومما لا شك فيه فإن دى سوسير تأثر فى ثنائيته : اللغة La Languc والكلام La Parole بنظرية دور كايم المشار اليها والتى فصل فيها بين موضوعية الظاهرة الاجتماعية وذاتية النشاط الفردى ، فاللغة عند دى سوسير – وعند غيره بالطبع – ليست إلا احدى الظـواهر الاجتماعية ؛ ومن ثم يرى أن علم اللغة عنصر أو جزء من العلم الذى يقوم بدراسة الصلات الاجتماعية فى المجتمع البشرى وبخاصة مقدرة الانسان فى استعمال الرمـوز (١) •

ولننظر ما يقوله دى سوسير عن اللغة فى إجابته عن تساؤله الهام : ما هى اللغة ؟ يقول دى سوسير :

« بالنسبة لنا لا تتساوى اللغة مطلقا مع الكلام الانسانى ، فهى عنصر محدد • إنها نتاج اجتماعى للمقدرة على الكلام الانسانى ، وفى الوقت نفسه تشابك من عادات ضرورية مؤكدة أو اتفاقيات طبيعية يقوم بها المجتمع لتسهيل آداء هذه المقدرة من خـلال الأفراد ، أما الكلام الانسانى فليس شكلا واحدا محددا أو متشابكا ، إنه يتصل بمجالات متنوعة فيزيائية ونفسية وفسيولوجية ؛ كما يتصل أيضا بمجالات فردية واجتماعية ، وهو لا ينتظم فى أنواع من الصلات الانسانية » (٢) •

إن دى سوسير يميز فى هذا المجال بين ثلاثة أشياء :

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschalft S. 59.

(2) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft S 11.

(أ) اللغة المعينة La Langue ، ويقصــد بها اللغة المحــددة كالانجليزية والفرنسية والعربية ، واللغة بهذا المعنى ليست سوى نظام مختزن فى ذهن كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية ، وهى التى يقصدها دى سوسير دائما عند المقارنة بين اللغة والكلام ، وبدون هــذا النظام لا يستطيع الانسان أن يتكلم أو يفهم .

(ب) الكلام La Parole ، ويقصد به دى سوسير الكلام الفردى أو النشاط الفعلى للفرد المعين ، إنه تطبيق للنظام الاجتمــاعى اللغوى أو تعبير عن اللغة بالمعنى المشار اليه .

(جـ) اللغة بالمعنى العام Le Langage . ويعنى بها المقدرة اللغوية أو موهبة النطق عند الانســان فى مقابل الحيوان ، إنها تشمل النظام الاجتماعى (اللغة بالمعنى الأول) والكلام الفردى معا .

وتفترق اللغة عن الكلام عند دى سوسير فى الأمور الآتية :

١ ــ اللغة اجتماعية والكلام فردى .

٢ ــ اللغة حتمية والكلام اختيار أو صدفة .

٣ ــ اللغة ليست وظيفة الفرد المتكلم ولكنها نتاج اجتماعى .

٤ ــ اللغة مجال الدراســة العلمية أما الكلام فلا يمكن دراسته دراسة علمية لاعتماده على الاختيار .

ويشير دى سوسير الى الفروق المميزة بين اللغة والكلام قائلا :

« ليست اللغة وظيفة الفرد الناطق ، إنها نتاج يسجله الفرد بطريقة سلبية ، فهى لا تشترط تفكيرا مسبقا .... أما الكلام فهو بعكس ذلك نشاط فردى لارادة وعقل الناطق ، حيث يستحضر المتكلم دستور أو نظام Code اللغة ليطبقه » (١) .

---

(1) De Saussure : Grundfragen der lallgemeinen Sprachwissenschaft S. 16,17.

وفى إطار تشبيه اللغة بالظاهرة الاجتماعية يميزها عن الكلام فى الأمـور التالية :

١ ــ إنها الموضوع الذى يوصف بدقة متناهية فى سير وقائع الحديث الانسانى المتنوعة ، حيث يمكن تحديد موقعها ضمن دائرة الكلام ، إنها تعبير عن نوع من الاتفاق بين أفراد المجتمع اللغوى ، وينبغى أن يتعلمها الفرد حتى يعرف نظمها ، كما يكتسبها الطفل عن طريق التقليد ، هذا بالاضافة الى أن الانسان الذى يفقد مقـدرة النطق يمكنه أن يكتسب اللغة مادام يفهم الرموز الصوتية التى يسمعها • هكذا تتميز اللغة عن الكلام فى أنها موضوع يمكن دراسته ، واذا كانت اللغات الميتة لا تنطق إلا أنه يمكن اكتساب نظامها اللغوى أيضا من خلال النصوص المكتوبة •

٢ ــ على حين يكون الكلام الانسانى غير متسق فإن اللغة حينما يعرفها الانسان بالنظر الى طبيعتها ليست سوى نظام من الرموز يوجد فيه ارتباط مؤكد بين المعنى والرموز الصوتية ؛ ويتشابه فى هذا النظام من الناحية النفسية جانبا الرمز معا (التصور الذهنى والرموز الصوتية) •

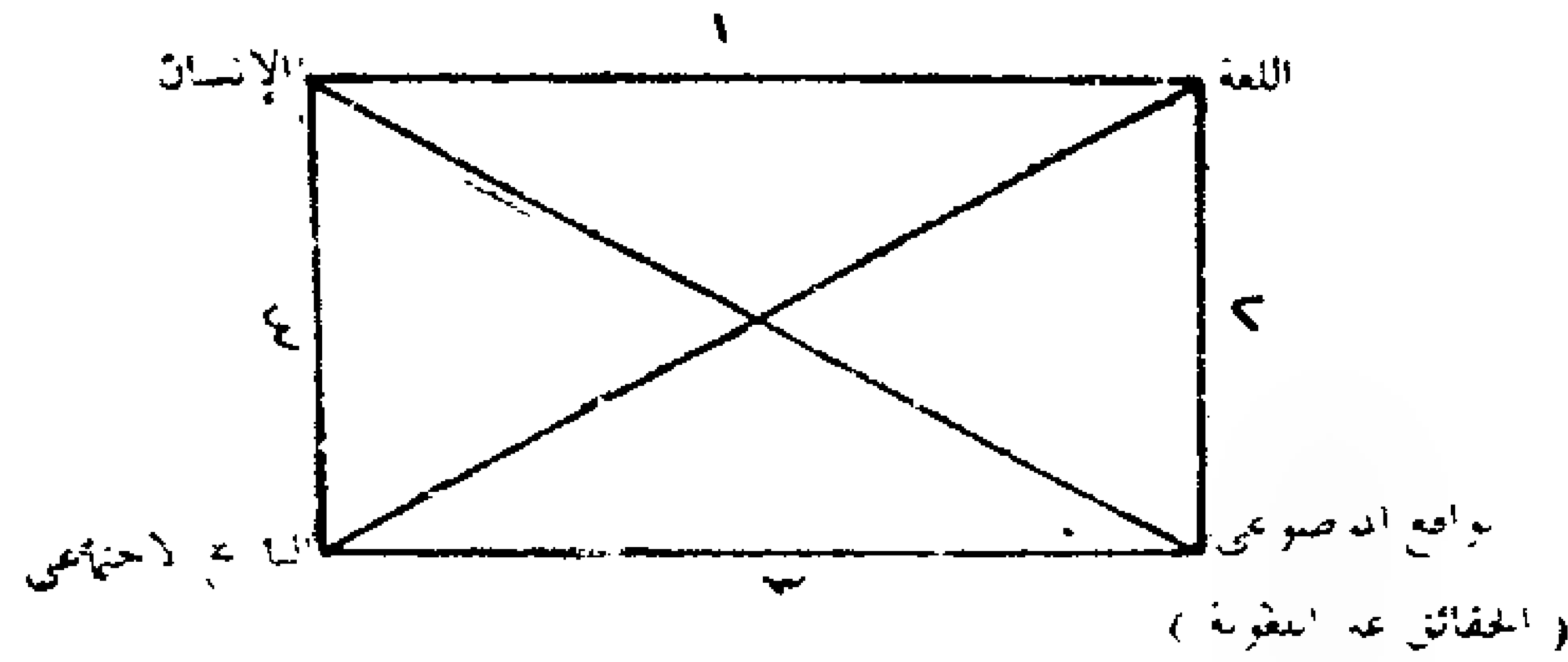
٣ ــ ليست اللغة أقل من الكلام فى أنها شىء محدد تناسب النظر العلمى تماما ، وعلى الرغم من أن الرمـوز اللغوية نفسية بالنظر الى جوهرها فلا يعنى ذلك أنها تجريدات . وكمـا أن هذه العلاقات تعرف من خلال الاتفاق الجماعى وتتحقق اللغة من مجموعها فإنها حقائق تحتل العقل أو الذهن . ويمكن فى هذا الاطار فهم الرموز اللغوية ؛ واذا كانت الكتابة تستطيع تثبيت اللغة فى صور معروفة (أى من خلال رموز معروفة لأفراد المجتمع) فإنها لا تستطيع أن تصور حوادث الكلام بكل خصائصها الفردية •

تشمل أصوات الكلمـة حتى ولو كانت صغيرة عـددا ضخما من الحركات العضوية التى يصعب معرفتها أو تصويرها • أما فى اللغة فعلى العكس من ذلك تماما حيث توجد صورة الصوت التى تنتقل الى صورة

بصرية ، واذا أراد الانسان أن يحقق مجموعة من الحركات المطلوبة فى النطق فمن الواضح أن كل صورة صوتية إنما هى مجموعة من عدد محدود من الأجزاء أو الأصوات (الفونيمات) التى يمكن استحضارها من خلال عدد مناسب من الرموز الكتابية ؛ ومن ثم يمثل القاموس والنحو والأصوات اللغة • هكذا تكون اللغة مستودعا للصور الصوتية ، أما الكتابة فهى شكل هذه الصور (١) •

ويعدد دى سوسير فى الفصل الخامس من مقدمة كتابه مجموعة من الموضوعات الهامة فى مجال اتصال اللغة بغيرها من الأشياء الأخرى مثل : صلة اللغة بالتاريخ السياسى ، صلة اللغة بدرجة التعليم فى المجتمع المعين ، وباختصار : مسألة وضع اللغة فى النظام الاجتماعى داخل الجماعة اللغوية •

تحتل اللغة فى الأنثروبولوجيا العامة موقعها كما يبدو ذلك واضحا فى المربع التالى :



ونلحظ فى هذا المربع ما يلى :

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ ، ص ١٨ .

١ ــ الصلة بين اللغــة والانســان (خط رقم ١) ، وبين اللغــة والطبقات الاجتماعية أو التاريخ الاجتماعى (خط رقم ٦) •

٢ ــ ترتبط اللغة بالواقع الخارجى غير اللغوى عن طريق الانسان الناطق (خط رقم ١ ، وخط رقم ٥) وعن طريق طبقته الاجتماعية (خط رقم ٦ ، وخط رقم ٢) •

٣ ــ وجود اتصــال مباشر بين اللغــة والواقع الخارجى (خط رقم ٢) ، لأن اللغة هى الوسيلة التى يتصل الانسان بمساعدتها بالعالم الخــارجى •

ليست كل هذه الارتباطات من شــأن الكلام ؛ بل تخضع للنظم الخاصــة بالاتصالات الاجتماعيــة ؛ ومن ثم فهى موضوعات خاصــة باللغــة (١) •

ثانيا : اللغة نظام تركيبى بنائى :

لا يعنى جوهر اللغة عند دى سوسير العناصر المكونة (الصوتية والنحوية والقاموسية) ، بل الصلات المتبادلة بين هذه العناصر ، وقد وضح مفهومه البنائى من خلال أمثلة غير لغوية حيث يقوم بعمل مقارنة بين اللغة وأنظمتها والصلات الموجودة بين أجزائها وقيمة كل مكون من مكوناتها وبين شبكات السكك الحديدية أو لعبة الشطرنج ، فالانســان يحدد القطار مثل القطار السريع ٨٫٤٥ جنيف ــ باريس على أســاس موقعه فى النظام العام لشبكة السكك الحديدية الأوربية ، كذلك تتحدد قيمته بالنظر الى القطارات الأخرى فى الشبكة نفسها ؛ ولا تتحدد قيمة

---

(1) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 24 , 25.

وانظر ايضا : Heeschen : Grundfragen der Linguistik. S. 25,26.

القطار بالطبع على أساس نوعه كشكل القطار أو نوعية العربات التى تكونه أو عدد العربات التى يتكون منها القطار (١) .

أما فى الشطرنج فإنه لا يعتد بنوع المادة التى تصنع منها قطع الشطرنج أو شكلها المألوف ، حيث لا تلعب المادة المصنوعة منها القطع إلا دورا ثانويا ، إنما تكمن الأهمية فى اللعبة من خلال حركات القطع على اللوحة ؛ ومن ثم يكون العامل الرئيسى فى اللعب هو النظام الداخلى ، وهذا ما يحدث تماما فى حالة اللغة ، فقيمة أى عنصر لغوى (فونيم أو مورفيم أو كلمة مثلا) لا تقوم أساسا على المادة التى يتكون منها العنصر (أى نوعية الأصوات) أو تشكيل هذه المادة ، وإنما تكمن القيمة فى علاقة هذا العنصر بغيره من العناصر الأخرى ، والوظيفة التى يؤديها فى إطار النظام العام لهذه اللغة .

وقد أدى النظر الى جوهر اللغة على أنها الصلات المتبادلة بين العناصر اللغوية المكونة وتشبيهها بشبكة السكك الحديدية أو نظام لعبة الشطرنج الى تطور فى مفهوم نظرية الفونيم ، كما أثر على النحو فى أن الأجناس والأنواع ينبغى ألا تبحث فى كل لغة بربطها بأنواع اللغات الأخرى ؛ بل بالنظر الى نظام اللغة ذاتها . هكذا المجرور Dativ فى الألمانية يتميز من ثلاث حالات إعرابية أخرى : المرفوع Nominativ والمنصوب Akkusativ والمضاف اليه Genitiv ، ويختلف عن المجرور فى اللاتينية الذى يتحدد من خلال تمييزه من خمس حالات إعرابية أخرى (٢) .

---

(1) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S 27,104,127,131.

وانظر ايضا :
— Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 53,54.
— Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 26.
— Annemarie Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 7 , 8.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 54.

وأقام دى سوسـير فى علم الدلالة النظرية البنائيـة التى كانت أساس نظريات المجال feld أو 'field' فى علم الدلالة التى انتشرت فى كثير من البلاد الأوربية وبخاصة فى ألمانيا ، وقد وردت هذه النظرية عند جوست ترير Jost Trier الألمـانى عام ١٩٣١ من خلال كتابه « الثروة اللفظية الألمانية فى دائرة العقل المعنوية Der deutsche Wortschatz im Sinnbezirk des Verstandes » كذلك نجـد هـذه النظرة البنائية فى مجال المعنى عند ليو فايسجربر Leo Weisgerber ، وعند ماير F. Meier فى ألمانيا الديمقراطية ، وبوتييه Pottier ، وجريماس Greimas فى فرنسا ، وكلاوس هيجر Claus Heger فى ألمـانيا الاتحادية (١) •

وتقوم نظرية المجال المعنوى على أن الانسـان لا يستطيع فهم المعانى القاموسية فهما دقيقا إلا من خلال ربطها بالكلمات الأخرى التى تشير الى دلالات فى اطار المجال المعنوى (مثال ذلك فى اللغة العربيـة أفعال : تحدث ــ نطق ــ تكلم ••• الخ) •

وينبغى أن نشير الى أن هذه النظرية فى تحليل المعنى تطورت بعد ذلك عند بوتيه فيمـا سمى بنظرية تحليل الخصـائص أو السـمات Sem - analysis ، حيث يرى أن أصغر عنصر معنوى أو خاصة دلالية تسمى Sem . ومعنى الكلمة إنما هو مجموع هذه السمات أو الخصائص الدلالية . فكلمات : كرسى ، كرسى فوتيه . كنبة ، دكة ، كرسى القدمين فى اللغـة العربية تختلف فى بعض الخصائص مثل : بأرجل ــ بمسند ــ بمساند جانبية ، لشخص واحد ••• الخ ، كما تتفق فى بعضها الآخر مثل صفة « مصنوعة من الخشب » . وتسمى الخاصة التى توجد فى كل الصيغ صفة أساسية Archisem ، على حين تتميز كل وحـدة

---

(1) Zarnikow : Enführung in die Linguistik, S. 21.

قاموسية من هذه الوحدات بخواصها المميزة ، ونلحظ أخيرا أن كل هذه الوحدات القاموسية تنتمى الى مجال معنوى واحد (١) •

إن فكرة البنائية Structuralismus تتلخص فى أن عناصر اللغة ينبغى أن تدرس أسسا متصلة غير منفصلة •

يرى بعض الباحثين أن نظرية دى سوسير البنائية لم تكن جديدة تماما ؛ بل ربما ترجع الى دراسات الهنود واليونان التى لم تخل من نظم بنائية أو تركيبية ؛ ثم نسيت هذه النظرة حتى أعاد دى سوسير اكتشافها ؛ ومن ثم فإن فضل دى سوسير يرجع الى أنه صاغ هذه النظريات فى شكل منظم متماسك ، ويشار فى هذا المقام الى تأثير ويلهلم فون هومبلدت على كثير من جوانب نظرية دى سوسير البنائية ، كذلك نجد تمسك ج فون در جابلنتز G. Von der Gabelentz بالطبيعة البنائية لكل لغة مميزا لها عن الكلام أو النشاط الفردى (٢) •

إن مفهوم البناء وتصوره بأن الكل يسود الأجزاء لا يعود بالطبع الى جابلنتز ، وهذا المفهوم البنائى يعد الأفكار الأساسية للميتافيزيقية عند هيجل Hegel (١٧٧٠ — ١٨٣١) ، كما كان الموضوع الرئيسى فى نظرية اللغة عند ويلهلم فون هومبلدت •

أشار جابلنتز الى مفهوم البنائية فى نظريته عن الشكل الداخلى فى اللغة . والتى تتلخص عنده وعند هومبلدت فى أن اللغة موهبة خاصة بالانسان وأن البناء الموجود فى النحو وفى القواميس صفة عامة عند جميع الناس ، وعلى الرغم من ذلك فلكل لغة طابعها الخاص المتميز ،

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik S. 22.

وانظر أيضا :

Th. Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Archisemem».

(2) Albert Barrara - Vidal. Wolfgang Kühlwein : Angewandte Linguistik für den fremsprachlichen Untericht, eine Einrührung. S. 18.

ولا يرجع ذلك الى استعمالها مجموعة متنوعة من الأصوات أو لأن كلماتها تعتمد على أشياء وأحجام مختلفة ؛ بل لأن تركيبها الفنولوجي والنحوى والقاموسى متميز ، كما أن الطريقة التى ترتبط فيها الأصوات بالمعنى مختلفة عن الطرق الأخرى فى اللغات المتنوعة ، وتنمو اللغة لهذا من خلال هـذا الشكل الداخلى (١) •

ثالثا : السنكرونية والدياكرونية :

تمثل رأى النحاة الشبان فى أن رؤية اللغـة تاريخيا (دياكرونيـا diachronic) هى التى تصلح أن تكون موضوعا علميا صالحا للبحث والدراسة ؛ ولم يتحرر دى سوسير تماما من هذه النظرة التاريخية ، وإن كان خالفهم فى أن التغير اللغوى ينبع أساسا من الفردية ؛ ومن ثم فإن التغيرات الصوتية التى وضع لها بعض النحاة الشبان قواعد تحكمها فيما سمى « بالقوانين الصوتية » إنما هى أحداث فردية ذاتية لا تشكل نظاما مترابطا •

وتتلخص وجهـة نظر دى سوسـير بالنسبة الى الدياكرونية فى النقاط التالية :

١ ــ التغير اللغوى فردى أو بعبارة أخرى حادثة فردية تبدأ من الفرد ثم تصبح ظاهرة اجتماعيـة ومن ثم تدخل نظام اللغة وتصبح قاعدة من قواعدها •

٢ ــ التغير اللغوى وليد الصدفة ؛ أى لا يحدث فى إطار قوانين نظاميـة •

٣ ــ التغير اللغوى مخرب أو هادم للنظام السنكرونى الموجود (٢)•

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 55,56.

(2) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 33.

وانظر أيضا : De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 100,101.

إن مهمة علم اللغة السنكرونى وضع أو إنشاء الأركان الأساسية للنظام اللغوى الذى يمثل حال اللغة تماما ، إنه يتعرض للصلات المنطقية والنفسية بين الأجزاء المتزامنة (أى المحددة زمنيا) التى تكون نظاما ما ويلاحظها العقل الجماعى • أما علم اللغة الدياكرونى فهو على العكس من ذلك يدرس الصلات الموجودة بين الأجزاء أو الأعضاء المتتالية عبر الزمن ولا يدركها العقل الجماعى فى وقت واحد ، حيث يتعاقب بعضها مكان البعض الآخر دون أن تشكل نظاما متسقا (١) •

واذا كان علم اللغة السنكرونى يبحث كل الظواهر اللغوية (أى لايختار منها بعض الظواهر فى مجال نظام واحد كاللغة النموذجية أو اللهجة مثلا ثم يغفل البعض الآخر) مع الاهتمام بتحديد الفترة الزمنية فإن علم اللغة الدياكرونى يمكنه مقارنة تطور النظام عبر الزمن مع الاهتمام بمكان التغيير داخل النظام الكلى ، فلا يهتم مثلا باختفاء صوت محدد من أصوات اللغة فى فترة ما ، بل عليه ، وهذا هو الأهم ، أن يهتم بالصوت الذى احتل مكانه فى النظام العام ، ولا يسمح فى البحث اللغوى بالخلط بين المنهجين (٢) • هكذا يكون واجب علماء اللغة عند دراسة التغيرات التى تصيب الظواهر اللغوية معرفة ما حدث من تغير •

ويشير دى سوسير فى مجال التفريق بين العلمين أو المنهجين الى أن علم اللغة السنكرونى يختص بدراسة كل ما نطلق عليه اسم النحو العام (القواعد العامة للغة) ، لأن حالات اللغة تشمل الصلات المتعددة أو العلاقات المختلفة بين أجزاء المكونات أو العناصر اللغوية وهى التى تشكل مجال النحو (٣) •

---

(1) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 119,120.

(2) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 8.

(3) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S 120.

وليس المقصود بالفترة الزمنية فى تاريخ اللغة المراد بحثها زمنا قصيرا ، بل فترة تطول أو تقصر حسب حجم التغيرات الناشئة ، ومن الممكن لهذا أن تحدد الفترة الزمنية بعشر سنوات اذا كان مقدار التغيرات التى حدثت فى اللغة يشكل عصرا لغويا متميزا • ومن جهة أخرى يمكن أن تمتد الفترة الزمنية الى جيل أو ربما الى قرن زمنى كامل أو أكثر ، فاللغة قد تتغير قليلا خلال زمن طويل ، ولكنها قد تتغير بدرجة كبيرة خلال سنوات قليلة ، بل يحدث أحيانا أن تتجاور لغتان ويصيب التغيير احداها بكثرة على حين تظل الأخرى دون تغيير يذكر • وفى هذه الحالة تبحث الظواهر اللغوية فى الأولى تاريخيا diachronic على حين تدرس فى الحالة الثانية من منظور وصفى تزامنى Synchronic (١) •

يستعمل الانسان فى التاريخ السياسى مصطلح « عصر » للاشارة الى فترة زمنية محددة ، ويستخدم فى المقابل مصطلح « مرحلة » عند مراعاة الاستمرار والتطور التاريخى ، ومن هذا المنظور يتكلم التاريخيون عن عصر الحروب الصليبية عصرا مستقلا بهدف بحث خصائصه وملامحه • وينبغى على مثال ذلك أن يهتم علم اللغة التزامنى أو علم اللغة الذى تتحدد فترته الزمنية أو ما يسمى أحيانا بعلم اللغة الساكن أو الثابت Static Linguistics بالعصور المحددة زمنيا ، ثم يفضل دى سوسير مصطلح الحالة لاطلاقه على العصر . وينبغى أن نشير الى أنه يرمز لبداية العصر ونهايته بكثرة التغيرات أو قلتها لحالة الظواهر اللغوية •

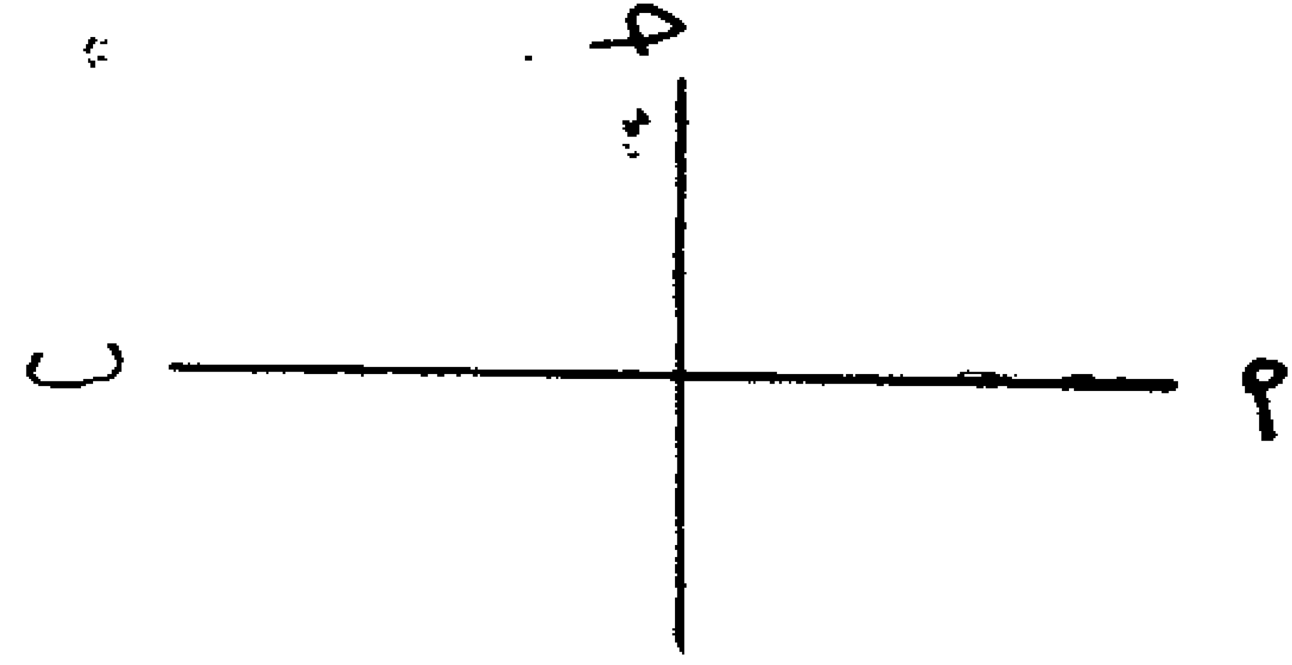
وقد مثل دى سوسير المنهجين برسم محورين أحدهما رأسى يمثل التغير اللغوى أو تاريخ اللغة عبر الزمن ، ومن ثم يركز الانسان فى هذا المحور على تتابع ظاهرة أو شىء واحد ، ثم يدرس تطورها الزمنى ، أى يدرس التغيرات التى طرأت على عناصر المحور الأول •

أما المحور الثانى فهو محور المعاصرة التزامنية الذى يصف العلاقات

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١ .

بين الأشياء الموجودة مع استبعاد فكرة الزمن تماما عند تناول هـذه العلاقات ، ويمثل خط أ ـ ب المحور الأول على حين يمثل المحور الثانى خط جـ ـ د فى الشكل التالى :



هكذا يمثل المحور أ ـ ب علم اللغة الوصفى التزامنى الذى يهتم بدراسة العلاقات بين العناصر اللغوية فى فترة زمنيـة محددة ويمثل المحور جـ ـ د تطور الظواهر اللغوية عبر الزمن (١) • ويفضل دى سوسير استعمال مصطلح التطور أو علم اللغة التطورى لاطلاقه على دراسـة الظواهر اللغوية •

ويختلف المنهجان بعضهما عن البعض الآخر فى الأمور التالية :

١ ـ يهتم السنكرونى بنقطة محددة أى بفترة زمنية واحدة فى حياة اللغة ، حيث تكون مهمته الأولى حقيقة الحالة اللغوية أو النظام الذى يشكل قواعد اللغة الجماعية المتعددة •

٢ ـ لكل منهج منهما مجال محدد ، فالبحث السنكرونى لا يتناول كل ما هو موجود فى زمن واحد ، بل يتناول مجموع الحقائق التى تكون اللغة المفردة ، وبذا يمتد المجال الى اللهجات وما يتفرع منها من لهجات صغيرة • هكذا يكون تعبير سنكرونى غير محـدد تماما ، وينبغى عند

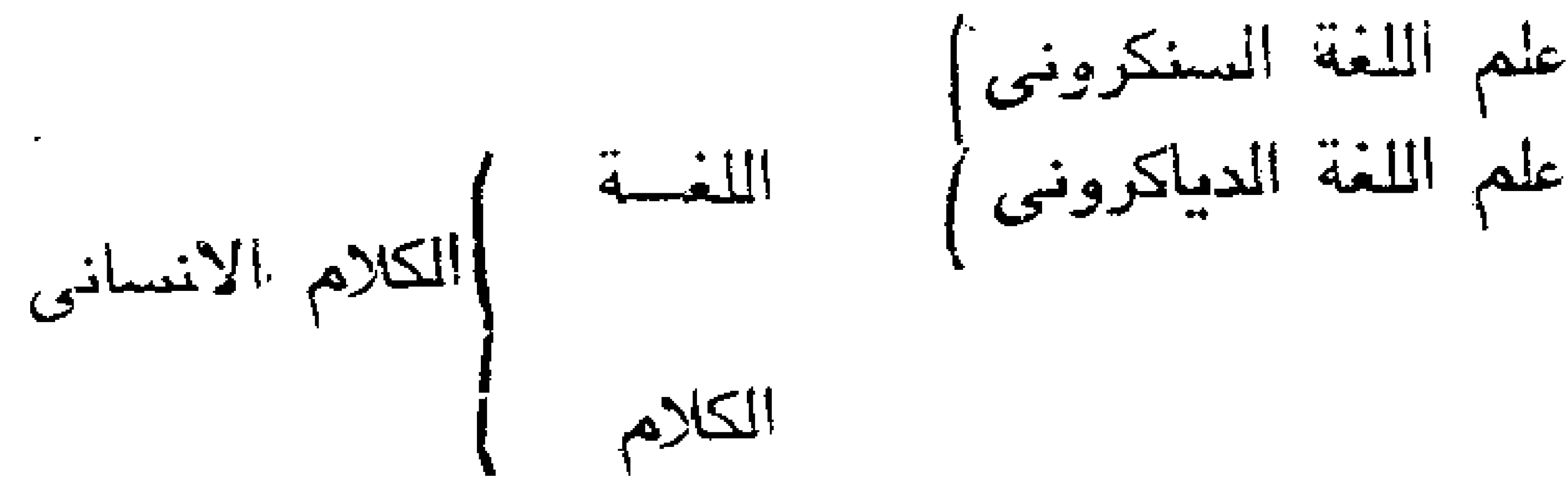
---

(١) المرجع السابق ص ٩٤ •

دى سوسير أن يتغير الى مصطلح السنكرونية اللهجية ، أى الذى يمتد ليشمل لهجات متنوعة وقد أطلق عليه اسم idiosynchronic • أما الدياكرونى فلا يحتاج الى تحديد مثل هذا ، حيث يمتد أحيانا الى لغات ولهجات أخرى غير اللغة الأصلية ، وذلك مثل الكلمة اليونانية ésti « يكون » التى أصبحت « ist » فى الألمانية ، « est » فى الفرنسية (١) •

وتحدث كل التغيرات اللغوية من خلال الكلام أو النطق ، ففى أثناء الكلام تستقر بذرة التغيير ، وذلك بادراك مجموعة من الأفراد لمثل هذه التغييرات ، وتصبح حينئذ من مجموع النظام اللغوى ، ومثال ذلك أن الألمانية كانت تستعمل فى القرن السادس عشر ich was « كنت » ، wir waren « كنا » التى تقابل فى الانجليزية : I was ، we were ، ثم حدث أن تغير صوت (S) فى was قياسا على شكل الجمع waren فأصبحت تنطق war ، وكان هذا التغيير شأنا من شئون الكلام ، ثم أصبح بعد فترة من نظام اللغة ، وباختصار يبدأ التغيير فرديا ويكون حينئذ فى مجال الكلام ، ثم يصبح جماعيا فيدخل مجال اللغة • وينبغى التنويه الى أن كل التغييرات لا تصادف مثل هذا النجاح ، فهناك تغييرات لغوية كثيرة تظل مستعملة فى إطار الفردية •

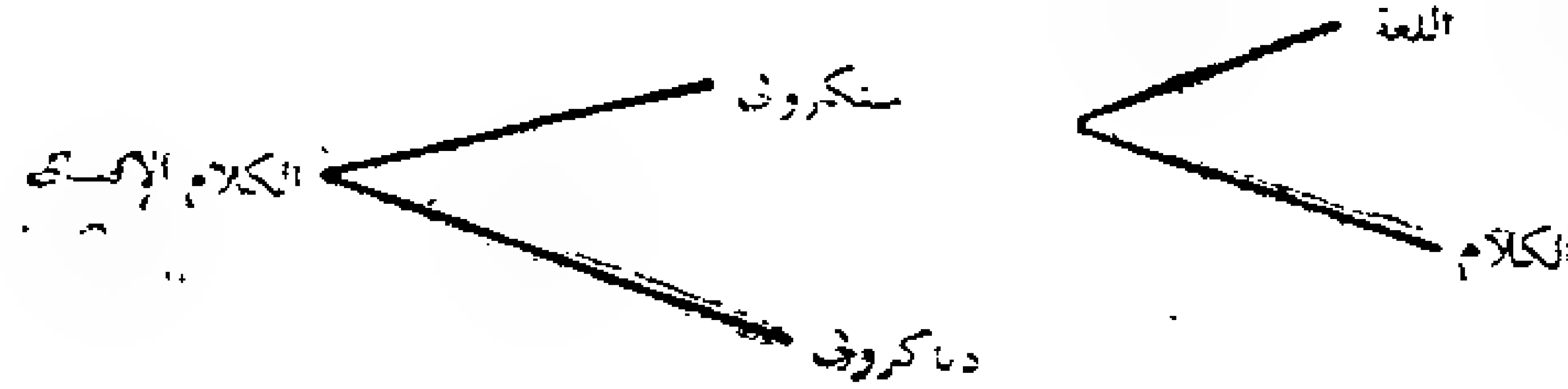
ويمثل الشكل التالى عند دى سوسير النموذج الذى يقبله علم اللغة بالنظر الى اللغة والكلام ، وعلم اللغة السنكرونى وعلم اللغة الدياكرونى (٢) :



(١) المرجع السابق ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ •

(2) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft. S. 117.

ويتبين من هذا الشكل أن علم اللغة (سنكرونيا أو دياكرونيا) لا يهتم إلا بدراسة اللغة ، أما الكلام فليس من مجالاته أو موضوعاته الحقيقة فى البحث • ويمكن تمثيل هذا النموذج بالشكل التالى (١) :



(تشمل اللغة الرمز والمرموز اليه والدراسة البراديجماتيه والسينتاجماتية) (٢) •

ويشير دى سوسير أخيرا الى أن التغيير يصيب كل الظواهر اللغوية ، فلا يقتصر على الصوتية منها فقط ؛ بل يتعداها الى النحوية والصرفية والدلالية ، ومثال ذلك ما حدث للمثنى فى اللاتينية الذى اختفى بمرور الزمن (٣) •

هكذا يبدو واضحا أن مثل هذه التغيرات يتناولها علمان لغويان مستقلان : علم اللغة الدياكرونى الذى يدرس التغيرات المختلفة ، وينبغى أن نشير الى أن الانسان لا يبحث قواعد تاريخية ، لأن الدياكرونى يعنى عدم القواعد ؛ بل إنه يتحرك فى المجال الدياكرونى التاريخى • أمام العلم الثانى فهو السنكرونى الذى يبحث هذه التغيرات فى فترة زمنية معينة كما سبق القول (٤) •

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 34.

(٢) سيأتى شرح المقصود بالبراديجماتية والسينتاجماتية ص ١٠٢ ؛ ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ •

(3) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 168.

(٤) المرجع السابق ص ١٦٨ — ص ١٧٠ •

رابعا : التصور الذهنى والصورة الخارجية :

تتكون اللغة عند دى سوسير من علامات أو رموز ، ولهذه الرموز جانبان متصلان غير منفصلين ، هما :

١ ــ جانب خارجى صوتى أو كتابى ، وهذا هو الجانب التعبيرى فى الرمز أو العلامة .

٢ ــ جانب داخلى أو معنوى ، وهو التصور الذهنى عند المتكلم والسامع .

هكذا يتضمن الرمز اللغوى شيئين : الصورة الصوتية أو السمعية image acoustique والتصور الذهنى Concept ، وقد سماهما دى سوسير أيضا Signifiant ، Signifié ، ويرتبط هذان الجانبان بعضهما بالبعض الآخر ، فلا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، كما لا يمكن تصور وجود جانب دون الثانى ، ويشبههما دى سوسير بجانبى الصحيفة (١) .

ولم يكن الرمز فى تصور اللغويين القدامى إلا عبارة عن شىء يمكن ملاحظته معنويا ، ويأتى ممثلا لشىء آخر ، أما فى مجال اللغة فإن الرمز اللغوى اسم لشىء موجود فى الواقع الخارجى ، هذا هو التصور الذى أثر عن أفلاطون فيما يتصل بالرموز اللغوية ، ونجد هذه الفكرة واضحة فى عبارة الإنجيل : « خلق الله الأشياء واستعرضها ثم سماها » (٢) .

وهكذا يوجد عند دى سوسير ثلاثة أشياء : رمز ــ تصور ذهنى ــ صورة صوتيه ، ويتضمن الرمز التصور الذهنى والصورة الصوتية معا ، وبعبارة أخرى العلاقة بينهما (٣) .

(1) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 76 - 82.

وانظر أيضا : Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 8,9.

(2) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 27.

(3) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 78.

ولم تتطابق الكلمة التى اقتنع بها دى سوسير كوحدة لغوية مع مفهوم الرمز أو العلاقة عنده ، حيث تشتمل بعض الكلمات على تصورين أو أكثر مثل الكلمات التى تنتهى بـ heit أو keit أو lich فى الألمانية نحو Menschheit « انسانية » ؛ ومن ثم بدأ اللغويون استعمال المورفيم على أنه أصغر وحدة لغوية لها معنى ، والذى يقابل الرمز عند دى سوسير (١) .

إن الوحدات اللغوية لا تتحدد ولا تعرف من خلال المفاهيم القائمة على قواعد فلسفية أو اجتماعية أو نفسية أو أى أشياء أخرى غير لغوية ؛ بل ينبغى أن تحدد من خلال علاقاتها بغيرها من الوحدات الأخرى ، كما لا تتحدد الوحدة اللغوية بناء على جوهرها فالتاء فى الألمانية لا يمكن تحديدها بمقابلتها بالتاء فى الانجليزية ؛ بل بعلاقتها بغيرها من فونيمات أخرى فى الألمانية مثل : k , p , d ... الخ ، وعلى هذا لا يمكن مقابلتها بفونيم الثاء ، لأن فونيم الثاء غير موجود فى الألمانية على العكس مما فى الانجليزية فى نحو : thorn « شوكة » ، torn « ممزق » ، وينتهى دى سوسير من ذلك الى النتيجة التالية : « اللغة شكل وليست جوهرا » (٢) .

وقد أدى تمييز دى سوسير بين جانبى التعبير والمعنى الى تأثير ملحوظ على البحث اللغوى وبخاصة فى مجال المعنى ، حيث من الممكن أن يبدأ اللغوى فى بحث المعنى من الرموز ثم يتساءل عن الدلالة التى تتضمنها تلك الرموز المعطاة ويطلق على هذا الاتجاه مصطلح Semasiology (أى بحث المعنى الذى يبدأ من الرمز ؛ حيث إن كلمة Sema فى اليونانية تعنى الرمز أو الاشارة) ؛ أو يبدأ الباحث فى المعنى من الدلالات أو التصورات ثم يتساءل عن الصور الصوتية التى تتحقق فيها هذه الأفكار أو المعانى ويسمى هذا المنهج Onomasiology (٣) .

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 30.

(٢) المرجع السابق ص ٣٠ — ص ٣٢ .

(3) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 9.

وكما أن اللغة نظام من الرموز عند دى سوسير وأن علم اللغة يبحث هذا النظام الرمزى فإنه ينبغى أن يندرج علم اللغة فى علم أعم وأشمل وهو علم الرموز Semiology أو Semeology أو Semiotics ، وهو العلم الذى يدرس حياة الرموز فى إطار الحياة الاجتماعية ، كما يهتم بالنظام الذى يحكمها ، وبهذا يمكن القول بأنه على الرغم من أن هـذا العلم (علم الرموز) لم يكن قد وجـد بعد إلا أنه بشر به وطالب بوجوده على أن يكون جزءا من علم النفس الاجتماعى (١) ٠

خامسا : العلاقات التركيبية والعلاقات الاستبدالية :

تتكون اللغة من وحدات (كلمات وأجزاء الكلمات) ، وترتبط هذه الوحدات بوحدات أخرى ، وتتنوع هذه الصلات الى نوعين :

١ ــ علاقة تركيبية Syntagmatic relation ، وهى العلاقة التى توجد بين الوحدة اللغوية والوحدات اللغوية الأخرى فى التركيب نفسه ، فهى علاقة أفقية ؛ لأن الوحدة أو الصيغة لا توجد منفردة ؛ بل فى تركيب أو جملة ؛ ويمكن تسمية هذه العلاقة أيضا بالعلاقة النحوية Syntactic relation ٠

٢ ــ علاقة استبدالية أو جدولية Paradigmatic relation ، وهى العلاقة بين الصيغة أو الوحـدة اللغوية وما يدور فى مجالها المعنوى من وحدات أخرى ؛ وقد اكتسب هذا المصطلح مفهومه الحالى من أتباع دى سوسير ، أما دى سوسير نفسه فقـد سماها العلاقات المترابطة (متداعية المعانى) assoziative (٢) ؛ كما يمكن أن نسميها أيضـا العلاقات الرأسية ٠

---

(1) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 79,90.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٧ ٠ ص ١٥١ ٠

وقد أعطى دى سوسير مثالا لعلاقة النوع الثانى بما يمكن ترجمته بكلمة « تعليم » وصلتها بما يدور فى فلكها أو مجالها من صيغ وكلمات مثل : تثقيف — تربية — تدريس دراسة ... الخ .

وينتج من النموذج الذى أعطاه دى سوسير مجموعة من القوائم يمكن تصنيفها الى أنواع عدة :

١ — نوع ترتبط صيغه لاتفاقها فى الجذر الذى تتكون منه مثل : تعليم — علم ... الخ .

٢ — نوع ترتبط صيغه ارتباطا معنويا ؛ أى أن الاتفاق يكون فى المعنى فقط مثل : علم — معرفة ... الخ .

٣ — نوع يتفق فى الوزن أو القافية ، أى اتفاق فى الشكل ، مع ملاحظة أنها تدور فى مجال معنوى واحد ، وتسمى الكلمة أو الوحدة التى تحتل مكان الوحدة الأخرى بالبدل أو العوض Kommutation (= Commutation بالإنجليزية) . ومن الطبيعى القول بأن هذه المقابلات أو الاستبدالات لا توجد فى النطق أو التعبير ؛ بل فى وعى الجماعة اللغوية أو المتكلم والسامع (١) .

وتقدم اللغة بالاضافة الى هذين النوعين من العلاقات بين الوحدات اللغوية وحدات غير مرتبطة بصيغ أخرى مثل : نعم — لا — شكرا ... الخ . وتعد هذه الحالة شاذة عن النظام العام الذى سبقت الاشارة اليه ؛ حيث إن الصيغة تأتى منفردة أو منعزلة عن غيرها من الوحدات الأخرى . ولن يلتفت الى مثل هذه الصيغ لأنه عند البحث فى إطار اللغة لا يتحدث إلا عن الوحدات أو الرموز اللغوية التى تأتى فى سياق مع وحدات لغوية أخرى (٢) .

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 9,10.

(2) De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft. S. 153.

وينبغى أن نشير أخيرا الى .أن كل اللغويين البنائيين ما عـدا بلومفيلد تلامذة لدى سوسير • أما المباشرون منهم فقد أسسوا مدرسة جنيف اللغوية وأشهرهم : مييه Meillet وفندريس Vendryes ، ويشار الى هذين العالمين وغيرهما من المعاصرين الفرنسيين على أنهم مؤسسو مدرسة جنيف اللغوية ؛ وذلك لمـا قدموه من بحوث ورسائل قيمـة ومن كتب ودراسات تعد مراجع رئيسية فى علم اللغة العام وفى علم اللغة الاجتماعى بصفة خاصة (٣) •

ولا تتعدى أفكارهم وجهات نظر دى سوسـير فى اللغة وعلاقتها بالمجتمع ، كما أنهم التزموا بالأسس العامة عنده ، وقد تطورت هـذه الأفكار بعد دى سوسير تطورا كبيرا ، ومنها ما سمى بعد ذلك بالبنائية الأنثروبولوجية عند ليفى ستراوس Levi - Strauss ، هذا بالاضافة الى تنوعها فى المدارس اللغوية المختلفة ، وهذا هو موضوع الفصل التالى •

---

(3) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 40,41.

الفصل الخامس

المـدارس اللغويـة البنائيـة

تضم مدرسة براغ مجموعة غير متجانسة تماما فى أفكارها أو نظرتها الى الظواهر اللغوية ، وقد نشأت المدرسة عام ١٩٢٦ بدءا من اللغوى البراغى ما تيسيوس V. Mathesius ، وقد أعلنت المدرسة عن تنظيمها تحت اسم « أسس حلقة براغ اللغوية » Travaux du Cercle Lingnistique de Prague » خلال المؤتمر اللغوى الذى عقد فى « لاهاى » عام ١٩٢٨ ، وصاغ علماء هذه المدرسة مبادىء هامة فى الدراسات اللغوية .

وتعطى تنوعات الأعمال المنشورة فى عصر المدرسة الكلاسيكى (من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٩) فى مدينة براغ صورة واضحة عن الانتاج العظيم الذى قدمه أعضاء الدائرة خلال تلك الفترة . وحينما قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ هرب الباحثون المشهورين من أمثال جاكوبسون وتوقف بالتالى نشاط الدائرة وقتا طويلا . ثم أسس العلماء التشيكيون بعد انتهاء الحرب مدرسة لغوية جديدة وأوصلوها بالتراث الكلاسيكى للمدرسة القديمة ، وتكللت جهودهم بالنجاح بإصدار مجلة جديدة ابتداء من عام ١٩٦٦ باسم « «Travaux Linguistique de Prague» » (١)

وعكست النشرات المتتالية فى العصر الكلاسيكى لمدرسة براغ الاتجاهات المتنوعة والاهتمامات المختلفة فى مجالات علم اللغة عند هؤلاء اللغويين ، لكن تركز الاهتمام الأكبر فى الأمور النظرية والعملية فى الفنولوجيا ، وقد جسد الجزء السابع من Travaux عام ١٩٣٩ الذى صدر قبل وفاة تروبتزكوى Trubetzkoy ذروة البحث اللغوى فى مدرسة براغ بصفة عامة وفى نظرية تروبتزكوى بصفة خاصة (٢) .

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 42, 43.
(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft. S. 67.

علم الأصوات البنائى : الفنولوجيا :

اجتهد اللغويون المهاجرون من روسيا الى تشيكوسلوفاكيا من أمثال كارسفسكى Karcevskij وجاكوبسون Jakobson وتروبتسكوى Trubetzkoy فى تأسيس الفنولوجيا مؤكدين على العنصر البنائى فى دراسة الأصوات ، وقد لخص تروبتسكوى فى كتابه « أسس الفنولوجيا Grundzüge der Phonologie » الذى لم يكتمل بسبب وفاة مؤلفه تفسيرات وتوضيحات لعلم الفنولوجيا ، ويرى بعض اللغويين أنه كتاب هام ينبغى أن يقرأه كل شخص مهتم بالنظر فى اتجاهات دى سوسير العامة (١) .

بنى تروبتسكوى تقسيمه للدراسات الصوتية الى فوناتيك وفنولوجيا على التفريق الذى قام به دى سوسير بين اللغة والكلام (أو بين الشكل اللغوى والنشاط الكلامى الفعلى) وبين التصور الذهنى والعلامة الصوتية ((signifié, signifiant)) : فعلم الفوناتيك علم الجانب المادى فى الكلام الانسانى ، أما الفنولوجيا فينبغى أن يهتم بالجانب الوظيفى الذى تؤديه الأصوات فى الشكل العام أو النظام اللغوى ، ويبدو بوضوح تأثير دى سوسير فى تفريقه بين الشكل والجوهر ، فاللغة شكلية نظامية غير مادية والكلام إنما هو تحقيق فى الجانب المادى .

إن أهم عمل يمكن أن ينسب الى مدرسة براغ فى المجال الصوتى هو أنها ساعدت فى تكوين مفهوم علمى واضح للفونيم (ترجع كلمة فونيم الى أصل روسى وهو Fonema) فى علم اللغة الوصفى ، وقد أخرجت مدرسة براغ المصطلح من كل الاعتبارات العملية التى نلاحظها عند سويت Sweet ودانيال جونز D. Jones (٢) .

يرجع الاهتمام بالدراسات الصوتية (فوناتيك وفنولوجيا) الى

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 44.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft. S. 65.

القرن المـــاضى ، فقد خطا الفوناتيك أثناء القرن التاسع عشر خطوات ثابتة حيث اعتبر جزءا أساسيا من علم اللغة التاريخى ، فكانت الظواهر الفوناتيكية والقوانين الصوتية مجالا هاما فى تطبيق المنهج التاريخى ، كما كانت معرفة علم الفوناتيك النطقى من خـــلال اطلاع علماء اللغـــة الأوربيين على الدراسات الفوناتيكية فى السنسكريتية منذ بداية القرن التاسع عشر نقطة تحول هامة فى تاريخ الدراسات الصوتية ، وساعد على ذلك اختراع بعض الأجهزة العلمية الحديثة التى تعتمد على عين الانسان وأذنه ، ويعد روسيلوت Abbe P. J. Rousselot مؤسس علم الفوناتيك التجريبى الآلى ، وانشغل فى الوقت نفسه هـ • فون هيلمهولتز ، س • ستومف C. Stumpf وآخرون بالدراسة المنهجية لأصوات اللغة كظواهر فيزيائية وبالتغيرات الصوتية التى تنتج بسبب الضغط الصوتى أثناء النطق وإدراك تأثير هذه التغيرات على طبلة الأذن وعلى ميكانيكية السمع (١) •

ومنذ عصر النهضة كان تمثيل نطق اللغات الأوربية التى لم تكن قد كتبت بعد هدفا رئيسيا للعلماء فى أوربا ، كمـــا كان هدفهم الثانى تمثيل النطق تمثيلا صحيحا من خلال كتابة فوناتيكية ، وهكذا نشـــأت ، بالاضافة الى الأبجديات المتنوعة فى أوربا منذ القرنين السادس عشر والســـابع عشر ، الكتابة الفوناتيكية مستعملة حروفا رومانية (لاتينية) ، وفى عام ١٨٧٧ وضع هنرى سويت أبجدية بحروف رومانية عرفت باسم Broad Romic Alphabet ، وقد أدى ذلك الى إنشـــاء الأبجـــدية الصوتية الدولية عام ١٨٨٨ ، وينبغى ألا نغفل فى هذا المقام الاشارة الى الجهود التى قام بها بل Bell قبل ذلك فى إنشاء الرموز التى سميت بالكلام المنظور Visible Speech عام ١٨٦٧ ، وبوتر Potter وكوب Kopp وجرين Green •

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤ .

واذا كان سويت حاول إصلاح الكتابة والتمييز بين الكتابة الضيقة والكتابة الواسعة إلا أنه لم يستعمل فى كتابه عن الأصوات المسمى Handbook of Phonetics مصطلح الفونيم الذى أوجده مجموعة اللغويين الذين درسوا فى نهاية القرن التاسع عشر فى روسيا ولم يحدد مجاله النظرى ويتجلى ذلك بوضوح فى دراسات بودوان دى كروتينى Boudouin de Courtenay الذى ميز بين مفهومين صوتيين فى البحث اللغوى : الظواهر الفزيائية والفونيمات والمطابقات العقلية للأصوات وتعنى التركيبات السيكولوجية لنظام اللغة التجريدى ، وظل هذا المفهوم السيكولوجى للفونيم شائعا وقتا طويلا حتى جاء تروبتزكوى وأعطاه مفهوما لغويا واضحا ظل مسيطرا على مجال الدراسات اللغوية الوصفية عند البنائيين فترة طويلة (١) .

إن وظيفة الأصوات عند تروبتزكوى تمييز المعنى المدرك ، ويعنى مفهوم التمييز distinctive تقابلا صوتيا ، وتسمى المقابلات الصوتية التى تميز المعنى فى لغة ما مقابلات فنولوجية مميزة phonologische distinktive Oppositionen (= phonological distinctive oppositiones بالانجليزية) كما يسمى الجزء من هذه المقابلات بالوحدة الفنولوجية phonologische Einheit (= phonological unit بالانجليزية) ، ونجد مثل هذه المقابلات فى العربية الفصحى (وبالطبع فى اللهجات المتنوعة) فى نحو المقابلة بين : طاب وعاب ، وبين : قال وقيل ، حيث ينتج من التبادل بين عضوين أو صوتين (الصوت هنا بمعنى الوحدة الصوتية) يقعان فى نفس الموقع كالتبادل بين الطاء والعين فى الكلمتين الأوليين أو بين الفتحة الطويلة والكسرة الطويلة فى الكلمتين الثانيتين تمييزا فنولوجيا ، ويؤدى بالتالى الى تمييز فى المعنى الدلالى كما فى الحالة الأولى (طاب ـ عاب) أو فى المعنى النحوى (من مبنى للمعلوم الى مبنى للمجهول) كما فى الحالة الثانية (قال ـ قيل) .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥ ، ص ٦٦ .

أما التبادل بين النون فى مثل إن كان والنون فى نحـو إن قال فى الفصحى فلا يمكن وقوعه من جهة أنها تمثيلات صوتية لفونيم واحد . كذلك تبادل الهمزة فى لهجة القاهرة فى نحو ألم / alam' / بمعنى قلم والجاف فى قلم / galam / فى بعض اللهجات المصرية ، أو عند بعض من يعيشون فى القاهرة وتنتمى لهجتهم الى موطن آخر كالصعيد مثلا لا ينتج تمييزا دلاليا أو نحويا ؛ بل يرجع الى خلاف فى النطق اللهجى ؛ ومن ثم فإن الهمزة والجاف فى هاتين الكلمتين ينتميان الى فونيم واحد وهو فونيم القاف الذى ينطق بطرق متنوعة فى اللهجات المصرية ، هذا بخلاف التبادل بين ألم بمعنى « وجع » وقلم / galam / بمعنى «قلم» فى لهجة الصعيد ، حيث يوجد عندنا فى هذه الحالة وحدتان فنولوجيتان أى فونيمان مختلفان هما فونيم الهمزة وفونيم القاف أو الجاف فى لهجة الصعيد مثلا ، ومثال الأصوات التى تنتمى الى فونيم واحد فى الألمانية ويرجع تنوعها الى خلاف فى النطق اللهجى المقابلة بين صوتى الراء التى تنطق من أقصى سقف الحنك فى نحو / Ro : s' / ، والراء التى تنطق من مقدم الحنك فى / ro : s' / والتى تعنى « وردة » فى كلتا الكلمتين ولكنه الخلاف اللهجى فى النطق (۱) .

ويمكننا حصر الصفات أو العلامات المميزة بين الوحدات الفنولوجية المتقابلة فى الكلمتين : طاب وعاب (أى الطاء والعين) فى أن مخرج الطاء الأسنانية ــ اللثوية ومخرج العين إنمـا هو الحلق ، كما أن الطاء انفجارية والعين احتكاكية ؛ والطاء مفخمة والعين مرققة . والطاء أخيرا مهموسة أما العين فمجهورة .

هكذا يمكن تعريف الفونيم عند تروبتزكوى بأنه حصيلة أو مجموع

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 45.

الصفات المميزة فنولوجيا لصوت ما (١) ، ففونيم الطاء مثلا فى اللغة العربية إنما يمكن حصر خصائصه الفنولوجية فى : الأسنانية اللثوية (بالنظر الى المخرج) — الانفجارية (بالنظر الى طريقة خروج الهواء) — الهمس (عدم اهتزاز الأوتار الصوتية) — التفخيم •

ونلحظ فى تصور تروبتزكوى عن مفهوم الفونيم الميل الى اتجاه دى سوسير فى :

١ — عدم مادية الفونيم :

إن كل صوت متجسد فى النطق الكلامى له بالضرورة مجموعة من الصفات غير الهامة فنولوجيا ، ومعنى هذا أن الفونيم (الذى هو عبارة عن مجموعة من الصفات المميزة فنولوجيا) لا يمكن أن يتحقق فى صوت مجسد ماديا ، فالأصوات إذن ليست سوى تحقيقات للوحدة المجردة (الفونيم) ، ويتبع هذا أن الأصوات التى تتحقق إنما هى صور صوتية عديدة للفونيم ، وتسمى هذه الصور تنوعات variants •

٢ — الفوضى والنظام أو الجوهر والشكل :

إن الصوت الذى يأتى فى النشاط النطقى لا يكتسب عضويته فى النظام على أساس من صفاته الفوناتيكية الفيزيائية ، فكل نشاط كلامى إنما هو استمرار من الناحية الفيزيائية ؛ ومن ثم لا توجد فيه علامات فيزيائية فى نقط الاتصال أو الحدود بين الأصوات المنطوقة • وليس المخرج عند تروبتزكوى إلا عبارة عن اعتراض أعضاء النطق المشتركة للحركة المتدفقة أو للنشاط الكلامى المستمر • هكذا لا توجد نقاط هادئة أو ساكنة فى مناطق الحدود بين الأصوات يمكن أن تكون ارتباطات فيزيائية • وهذا معناه أنه لا يمكن تقسيم الكلام المنطوق بالاعتماد على الوحدات الصوتية (الفونيمات) الموجودة فى اللغة ، فاللغة تتشكل أولا

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

ثم يقسم الكلام ثانيا (١) • وقد لعبت هذه الفكرة دورا هاما فى الفنولوجيا التطريزية prosodic phonology فى بريطانيا وفى نظرية الفونيم المتصل أو الاتصالى juncture - phoneme فى علم الفونيمات phonemics فى أمريكا (٢) •

٣ ــ صفة الفونيم :

إن الفونيم عضو فى تشابكات تقابلية وهذا يعنى أنها متصلة أو مرتبط بعضها بالبعض الآخــر ، ومن هنا يرفض تروبتزكوى بحــدة تصورين عن الفونيم :

الأول : التصور السيكولوجى الذى ساد خلال القرن التاســع عشر وبداية القرن العشرين عند اللغوى البولندى بودوان دى كورتينى الذى يرى أن الفونيم ليس إلا نية أو قصــد نطق الصوت ، فهو نقطة يبدأ منها المتكلم عند تجسيد النشاط النطقى ، وقد تابع لغويو براغ تروبتزكوى فى التخلى عن المفهوم السيكولوجى للفونيم ؛ ومن ثم يرى أن نية الصوت ونطقه محققا صفات معينة إنمــا هدفها الكلام وليس وحدات اللغــة (٣) •

الثانى : التصور المــادى ، ومعناه أن الفونيم لا يتحقق فى النطق أو فى الكلام ، وإنما الذى يتجسد ماديا إنما هى الصــور الصوتية أو التنوعات التى تختلف باختلاف السياق الصوتى كالباء التى تنطق مفخمة فى العربية المعاصرة فى نحو « صب » أو مرققة فى مثل « سب » ، فكلاهما تنوعان صوتيان لفونيم واحد وهو فونيم الباء •

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ ، ص ٤٧ •

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 69.

(3) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 47.

٤ — الصورة الفنولوجية العامة :

ليس الفونيم عند تروبتزكوى إلا عضواً لغويا فى نظام اللغة ، كما أنه ليس بالضرورة أن تلعب كل صفة دورا فنولوجيا هاما ؛ فقد نعثر أحيانا على صفة مميزة فى لغة ما ، ولكنها لا تتمتع بمثل هذه الميزة فى لغة أخرى ، ولعل صفة التفخيم فى اللغة العربية تكون مثالا واضحا بالمقارنة بالتفخيم فى الانجليزية ، حيث يلعب التفخيم فى حروف الصاد والضاد والطاء والظاء دورا فنولوجيا هاما لأنه يميزها من نظائرها المرققة السين والدال والتاء والذال ، على حين لا يؤدى التفخيم هذه الوظيفة فى اللغة الانجليزية ، هذا على الرغم من وجوده أحيانا فى بعض أصواتها ، وذلك مثل تفخيم صوت الدال فى نحو « door » .

إن هذه الفكرة تقوم على أن الانسان ينبغى أن يحلل هذه الصفات فى إطار النظام الصوتى الخاص بلغته الأم ، أو فى لغة واحدة دون مقارنتها بلغات أخرى . ويؤدى هذا بالتالى الى أن نظام الفونيمات لا يتحدد إلا اجتماعيا نظاميا ؛ أى من خلال نظام اللغة نفسها ولا يتحدد فرديا ذاتيا .

وينبغى أن نشير الى أن فكرة تحديد الفونيم على أنه حزمة أو مجموعة من العلامات أو الصفات المميزة فنولوجيا استمرت عند جاكوبسون وأدت الى وضعه نظرية العلاقات ، تلك العلاقات التى تتميز بصفتى العالمية والثنائية .

وتعنى العالمية عند جاكوبسون أنه ليس كل مقابلة صوتية تنتج فى أثناء النشاط الكلامى الانسانى يمكن أن تكون مميزة فنولوجيا ، فبعض المقابلات الصوتية فقط هى التى يكتب لها فرصة أداء وظيفة مميزة فى اللغة . ويمكننا لهذا إيجاد نظام عام من العلامات الصوتية يصلح أن يكون عالميا . وتشتق لغات العالم من هذا النظام العالمى امكانياتها

وعلاماتها المميزة • وتبلغ هذه العلامات الصوتية عند جاكوبسون اثنتى عشرة علامة ، وينبغى عنده أن توصف فونيمات كل لغة من خلال هذه العلامات ، وما نظام العلامات هذا إلا تحديد واضح لما يسمى بالفونيم الممكن mögliches phonem (= possible phoneme بالانجليزية) •

أما الثنائية عنده فتعنى أن وجود أو غياب علامة ما هو الأهم من الناحية الفنولوجية ، أما مقدار أو مدى هـذه العلامة فلا ينبغى أن يكون هـو المقياس حتى وإن كانت العلامة متميزة وواضحـة من الناحية الفوناتيكية ، وبذا يمكن تحديد الفونيم عند جاكوبسون بأنه عبارة عن مجموعة من التحديدات الخاصة بوجود علامات معينة أو غيابها •

ونلخص فيما يلى وجهة نظر تروبتزكوى فى البحث الصوتى من خلال شرح مصطلحين هامين وردا فى دراساته الصوتية وهما :

١ — distinktive (= distinctive بالانجليزية) •

٢ — phonologische Einheiten (= phonological units بالانجليزية)

ويعنى تروبتزكوى بالمصطلح الأول أن التمييز إنما يكمن فى المقابلة opposition بين شيئين يقعان فى علاقة تضاد أو تقابل ، لأن التمييز فى المعنى أهم وظيفة يمكن أن يؤديها الصوت فى اللغة ، فالكلمات إنمـا يتميز بعضها من البعض الآخر دلاليا فى لغة ما من خلال مقابلة الأصوات التى تتضمن صفات فوناتيكية ولها وظيفة فنولوجية ، يقول تروبتزكوى : « إن المقابلات الصوتية فى لغة ما تسمى مقابلات فنولوجية أو تمييزات فنولوجية ، أما اذا كانت هذه المقابلات لا تتمتع بمثل هذه المقدرة فإنها تكون غير هامـة من الناحية الفنولوجيـة ، وتبقى مقابلات فوناتيكية محضة » (١) •

---

(1) Karl - Dieter Bunting : Einführung in die Linguistik, S. 83.

واذا كانت اللغـــة تملك أصواتا يمكن أن تتبادل فيمابينها وتنتج تمييزا لغويا فنولوجيا فإنها تملك بجانب ذلك أصـــواتا لا يمكن تبادلها كأصوات النون مثلا فى العربية فى نحو : إن كان ، إن قال ، أو صوت [?] فى الألمـــانية فى مثل « «ich» » (أنا) ، [X] فى نحو «auch» (أيضا) ، ويسمى هاريس مثل هذه الحالة بالتوزيع التكميلي complementary distribution على حين تسمى حالة الأصوات التى تملك مقدرة التبادل بالتوزيع الكامل complete distribution ، هذا ومن المعروف أن كل لغة لها نظامها الخاص بها فى التمييز الصوتى ، فالتمييز بين صوتى [l] ، [r] فى اليابانية ليست له وظيفة فنولوجية ، على حين نجـــد أن هذا التقابل له وظيفة فى الألمانية مثل : Ruder « مجـــداف » ، Luder « طعم أو جيفة أو شى تافه » .

أما الوحدات الفنولوجية فليست إلا تتابعات الأصوات التى تأتى متقابلة ، حيث تميز المفاهيم التجريدية معنويا semantisch (= semantic فى الانجليزية) ، وقد تتميز هذه الوحدات الفنولوجية بعضها من البعض الآخر بمجرد طول فى الحركة مثل : « Beet » (حوض) ، « Bett » (سرير) فى الألمـــانية ، وقد لا تتفق إلا فى صوت واحـــد فقط مثل : « قرأ » ، « قرد » فى العربية ، وقد لا تتفق فى أى صـــوت من أصواتها مثل : « قرأ » ، « سم » . والوحـــدات الأساسية فى نظام اللغة الفنولجى إنما هى أصغر الوحدات التى لا يمكن تقسيمها الى أقل من ذلك . وليست هـــذه إلا فونيمات اللغـــة .

ولا يحدد تروبتزكوى الفونيمات بالنظر الى توزيع أصغر الوحدات فى نص ما وهى ما تسمى بالتنوعات الفوناتيكية الحرة كما فعل هاريس ، وإنما يحددها بالنظر الى وظيفتها فى كلمات اللغة .

هكذا تكون الفونيمات عند تروبتزكوى وحدات تجريديـــة للغـــة وليست وحدات للكلام ، وتسمى عند تحققها فى النشاط الفردى تحقيقات

الفونيمات Phonemrealisierungen (= realizations of phonemes بالانجليزية) • أما عند جاكوبسون فهى عبارة عن مجموعة من الخواص الصوتية المميزة فنولوجيا ، ويمكن أن تسمى هذه الخواص المميزة محتوى أو مضمون الفونيم ، وأما ما سماه هاريس allophones فإن تروبتزكوى أطلق عليه مصطلح التنوعات الصوتية الفوناتيكية phonetic variants •

أما كيف نصل الى فونيمات اللغة ؟ أو كيف نضع نظاما فنولوجيا للغة ؟ فإن تروبتزكوى لم يفكر فى جسم اللغة أو فى النص اللغوى أو فى طريقة التقسيم ؛ بل رأى أن كلمات اللغة ليست إلا مستندات أو مراجع يحتاج اليها الانســـان ليكون منها أزواج المقابلات وهى المقابلات التى تختلف فى صـــوت واحـــد فقط والتى تقابل عنـــد هاريس ما سماه minimal-pairs (١) •

وفى تحديد الفونيمات أشار تروبتزكوى الى تمييزه بين نوعين من التنوعات : التنوعات الحرة free variants ، وهى التنوعات التى يمكن أن تتبادل فيمـا بينها ، وهى تحقيقات للفونيمات المختلفة ، التنوعات المرتبطة combined variants ، وهى التنوعات التى تتبع فونيما واحدا (٢) •

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

المدرسة الدينمركية

أسس المدرسة اللغوية الدينمركية عام ١٩٣٤ اللغويان بروندال Brondal ولويس جيلمسلف Louis Hjelmslev الذى ألف كتابه المسمى Omkring sprogteoriens grundlaeggelse (= Prolegomena to a Theory of Language بالانجليزية) عام ١٩٤٣ ، ثم ترجم الى الانجليزية عام ١٩٥١ (١) •

يسير منهج البحث فى دراسة اللغة عند أصحاب المدرسة الدينمركية على نهج البنائية بصفة عامة ، وإن كان لعلماء المدرسة نظرتهم الخاصة فى تناول الظواهر اللغوية وفى تحديديهم لبعض المفاهيم التى قد تحيد أحيانا عن المدارس البنائية الأخرى • وقد احتذى كثير من اللغويين النظام البنائى الذى وضعه جيلمسلف ، هذا على الرغم من عدم تطبيقه هذا النظام على لغة ما ، وذلك بسبب دقة المنهج وتنظيمه الفائق •

تبدأ دراسات جيلمسلف وأولدال Uldall اللغوية بتحديد الأسس التى جعلت علم اللغة علما مستقلا بجانب العلوم الانسانية الأخرى ، واذا كانت العلوم الانسانيــة تستعمل اللغــة وسيلة لكشف ما يخفى وراءها من ثقافة وفكر وتاريخ ••• الخ ، وتكون بهـذا قد تسامت أو ارتفعت عن اللغة فى بحثها ودراستها فإن علم اللغة لا يدرس ولا يبحث ما وراء اللغة ، بل يسعى الى إدراك اللغة ذاتها كتجميع لظواهر غير لغوية (فيزيائية ــ فسيولوجية ، ونفسية سيكولوجية ومنطقية ، ومنطقية ــ اجتماعية) (٢) •

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 70.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 83.

إن اللغة عند دى سوسير تقابل النظام فى المدرسة الدينمركية ، أما الكلام فيقابل عندهم العمليات أو سير الكلام ، وبعبارة أخرى تقابل اللغة والكلام النظام والنص ، وليس النص عندهم سوى تركيب للعناصر الشكلية أو تركيب شكلى من عناصر متعددة ؛ ومن ثم فإن النص عندما يتحقق فى جوهر ما فإنه ينتمى الى جانب الكلام •

ويتنوع التحليل اللغوى فى هذه المدرسة بالاضافة الى ما جاء عند دى سوسير بالنظر الى التعبير والمعنى الى مستويات عدة ، حيث ينتج من ربط الشكل بالمحتوى أو بالمـادة أربعة مستويات :

١ ــ جـوهر المحتوى •

٢ ــ شكل المحتوى •

٣ ــ شكل التعبير •

٤ ــ جـوهر التعبير •

ويمثل جـوهر التعبير الجانب المـادى الخالص ، ويمكن تشبيهه بنقطة الحبر أثنـاء الكتابة ، أمـا فى النطق فيعنى الموجات الصوتيـة الفيزيائية ، أى أنه يمثل الجانب المـادى فى عملية النطق • أما شكل التعبير فهو الجانب التنظيمى للمـادة الصوتية الخام أو هو الامكانيات المتاحة التى تتحقق من تنظيم جوهر التعبير أو المـادة الصوتية • ويمثل شكل المحتوى المعنى أو المضمون ، وأما شكل المحتوى وشكل التعبير فيمثلان معا الرمز اللغوى بجانبيه (الشكل والمحتوى) ، وهذا معناه أنه الموضوع الحقيقى لعلم اللغة • ويعنى جوهر المحتوى الأفكار قبل أن تتحقق ، أى قبل أن توضع فى نظام اللغة ، فمثلا فكرة عدم المعرفة تمثل جوهر المحتوى أما تنظيمها فإنه يختلف من لغة الى لغـة أخرى ، فتمثيل الفكرة بقولك « لا أعرف » مثلا إنما هو تنظيم للفكرة فى هـذه

اللغة ؛ ومن ثم فهذا هـو الشكل الذى جاءت فيه الفكرة (١) •

هكذا يشترك الناس جميعا فى جوهر المحتوى مهما اختلفت لغاتهم أو تنوعت ، على حين يختلفون فى شكل المحتوى أى فى التعبير عن هذا الجوهر ، وعلى العكس من ذلك نجـد جوهرا تعبيريا واحدا فى بعض اللغات وذلك فى مثل [got] التى يختلف معناها من لغة الى لغة أخرى ، ففى الألمـانية Gott بمعنى الله ، وفى الانجليزية تعنى got « حصل على » ، ومعنى godt فى الدينمركية يكون « جيد » ، فهـذه الكلمات الثلاث وإن كانت تنطق نطقا واحدا ، فهى واحدة بالنظر الى جوهر التعبير ، إلا أنها تختلف فى المعنى • وهكذا يوجد عندنا فى اللغات الثلاث جوهرا تعبيريا واحدا وأشكالا تعبيرية مختلفة •

ويمكن التمثيل لجوهر المحتوى الواحد بأطياف الألوان الذى تقسمه اللغات بطرق متنوعة ؛ ومن ثم فهى تختلف فيما بينها فى شكل التعبير وفى شكل المحتوى معا ، وإن كانت تتفق فى الجوهر ، فالجوهر واحـد والأشكال متعددة ، فهناك لغات يسقط فيها تمثيل اللون الأخضر ، وخلت الألمـانية القديمـة من اللون الذى يقع بين الأحمر والأزرق (البنفسجى) والذى أصبح يسمى فى الألمانية المعاصرة lila أو violett ، وكان يتبع قديما اللون البنى ، كما كان البرتقالى يصنف تابعا للأصفر الذى كان بدوره تابعا للأحمر • هكـذا تتفق اللغات فى الجوهر وتختلف فى تحققه بالاختلاف فى المحتوى الشكلى من جهة وفى الأصوات وتراكيبها من جهة أخرى •

منهج جيلمسلف فى التحليل اللغوى (نظرية الجلوسماتيك Glossematic) :

يمكن وصف منهج جيلمسلف فى التحليل بأنـه منهج استنتاجى تحليلى ، حيث تقسم كل وحدة لغوية (أو تحلل) الى وحداتها الأصغر التى تتكون منها ؛ ومن ثم يحصل الانسان فى كل درجـة من درجات

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 13,14.

الاستنتاج أولا على وحدات صغيرة وتقل ثانيا الموجودات أو القوائم الجدولية Paradigmatic •

إن تحليل المستوى التعبيرى ينتج :

١ — نصوصا كثيرة لا نهاية لها •

٢ — جملا كثيرة غير محدودة •

٣ — أجزاء من جمل غير محدودة ((Clauses)) •

٤ — كلمات كثيرة لا نهاية لها ، وإن كانت محـدودة فى قوائم القواميس والمعاجم إلا أنها كلمات كثيرة غير محدودة من الناحية النظرية ، ولا يلعب هـذا دورا هاما فى علم اللغة حيث إن الدراسـات اللغوية الحديثة لم تعد تهتم بالكلمة وحدة لغوية ؛ بل بما يسمى المونيم Moneme أو المورفيم Morpheme ، وسيأتى الحديث عنهما فى المدرستين الفرنسية والأمريكية •

٥ — مقاطع محدودة العدد •

٦ — أجزاء من المقاطع يمكن حصر عددها •

٧ — فونيمات محصورة العدد •

ويسمى جيلمسلف هذه التراكيب أو الأقسام التى نحصل عليها فى الجانب التعبيرى صورا أو أشكالا Figurae ومفردها Figura (= Figures ومفردها Figure بالانجليزية) •

ومن الضرورى أن نشير فى هذا التحليل الى أن كل وحدة لغوية تظهر فى التحليل فى درجتها المناسبة لقائمتها • وقد نعثر أحيانا علـى وحدات لغوية لا تتغير بدءا من مستوى النص حتى مستوى الفونيم ، وذلك مثل كلمة « i » فى اللاتينية بمعنى « اذهب » التى تكتب بهـذا

الشكل من أعلى درجة وهى التحليل على مستوى النص الى أقل درجة ممكنة وهى مستوى الفونيم (١) •

ويقترح جيلمسلف طريقة التحليل نفسها فى الجانب الآخر وهو جانب المضمون أو المحتـوى ، وينبغى لذلك تحليل الوفرة الكبيرة التى لا نهاية لها من خلال المحتويات الممكنة الى وحدات صغيرة حتى يصل الانسان الى أصغر الوحدات (الصور أو الأشكال Figurae) • هكذا يختار الانسان صور الجانب التعبيرى (الفونيمات) فى اللغة من المجال الكبير للامكانيات الصوتية ، ثم تستعمل بعد ذلك فى تأسيس الوحدات اللغوية الأعلى ، هذا بالاضافة الى سلوك اللغة فى جانب المضمون ، حيث تضم هذه الوحدات لبناء الوحدات الأعلى وهى الكلمات بجانبيها الشكل والمضمون مثلا •

وفى مجال تحليل المضمون يمكننا استبعاد بعض الوحدات اللغوية من التحليل لأنها تتضح من خلال ارتباطها بوحدات لغوية أخرى ، فمثلا لو انتج تحليل المضمون لثروة الكلمات فى لغة ما الوحدات التالية :

كبش نعجة
ولـد بنت
فرس فرسة
خروف
طفـل
حصان
هـو •••••• هى

فإنه يمكننا حينئذ استبعاد الوحـدات اللغوية فى الأسطر الثلاثة الأول ، لأنها تتضح ارتباطيا relational من خلال علاقتها بوحدات

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ .

أخرى وهى الوحدات التى جاءت فى الأســطر التالية ، وهنا ينبغى أن نشير الى أن جيلمسلف يتعامل مع محتويات الكلمات دون اهتمام بالكلمات ذاتها ، أما طريقة الارتباط هذه فهى أن الكبش = هو خروف ، بنت = هى طفل ، فرس = هو حصان ، فرسة = هى حصان •

ولا تعنى الصور عند جيلمسلف الرموز اللغوية ، بل إن تركيب الصور بجانبيها (التعبير والمضمون) ينتج الرمــوز • أما الوحدات الصغيرة سواء على الجانب التعبيرى وهى العلامات الفنولوجية على أنها صفات للفونيمات أو على جانب المضمون وإن لم توجــد لها عــلامات دلالية صغيرة يمكن تناولها فإنها تسمى عنده جلوسيمات Glossemes •

إن مصطلح جلوسيم مأخوذ من اليونانية ويعنى اللسان أو اللغة أو الكلام ، أما عند جيلمسلف فهو أصغر الوحدات اللغوية ، إنه عبارة عن العلاقة الفنولوجية أو ما يسمى كينيم Keneme فى الجانب التعبيرى وبليريم Plereme فى الجانب الدلالى ، ويسمى مجموعهما الجلوسيم •

وتهــدف نظرية الجلوسماتيك التى قامت على أعمــال جيلمسلف وأولدال الى تطبيق نتائج المنطق الشكلى والمنهج العلمى الحديث على علم اللغة ؛ ومن ثم الى بحث جانبى اللغة : التعبير والمحتوى حســب أسس موحــدة (١) •

ويعتقد جليمسلف أن لغويى براغ بحثوا الشكل من خلال الجوهر أو ما يمكن أن نعبر عنه بأنهم بحثوا الجوهر الشكلى ، أما هو فيرى أنه ينبغى أن يبحث علم اللغة الشكل منعزلا عن الجوهر ، ولذا فإنه لا يكترث بالجوهر الذى تتحقق فيه اللغة بقدر اهتمامه بالشكل الذى ورد فيه هذا الجوهر ، حيث إن اللغة يمكن أن تتحقق فى جوهر متنوع فقــد تكون منطوقة كمــا قد تكون مكتوبة مدونة •

---

(1) Theodor Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Glossem» «Glossematik».

واذا كان موضوع علم اللغة هو شكل المحتوى وشكل التعبير فى مستويات التحليل اللغوى — كما سبق القول — فإن الجانبين الآخرين (مادة المحتوى ومادة التعبير) يؤديان الى تداخل علم اللغة مع أسس علوم أخــرى كالفلسفة وعلم النفس والطبيعــة ، وإن كان لم يلاحظ جيلمسلف أن المتكلم كفرد أو كعضو فى جماعة إنما يعنى أن يتداخل علم اللغة مع علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع ، وهو مجال سيهتم به علم اللغة الاجتماعى الحديث (١) •

الصلات الأفقية والصلات الرأسية :

يميز جيلمسلف بداية بين أداتين من أدوات الربط : الواو ، أو ، فالأولى تسمى أداة ربط relation والثانية يطلق عليها أداة ارتباط correlation ، فإذا جاء العنصران اللغويان متجاورين من خلال أداة الربط فانهما يشكلان تركيبا syntagma ، أما اذا ورد العنصران متجاورين وكانت العلاقة بينهما هى الارتباط فإنهما يكونان جدولا أو علاقة رأسية paradigmatic ، فالعلاقة بين العناصر أو الفونيمات التى تتكون منها كلمة « قام » مثلا فى اللغة العربية إنما هى علاقة تقوم على الربط بالوار ؛ حيث إنك تقول إن « قام » تتكون من القاف والفتحــة الطويلة والميم والفتحة القصيرة ، أما العلاقة بين « القاف » والنون مثلا التى يمكن أن تقع موقع القاف فإنها تقوم على الارتباط بأو ، وحينئذ ينتج نموذج جدولى paradigma آخر وهو « نام » •

هكذا يمكن تحديد التركيب والنموذج الجدولى بطريقة شكلية تماما ، ويختلف هذاالتحديد الشكلى عن تعريف دى سوسير شبه النفسى للنموذج الجدولى الذى سماه بالتشارك أو تداعى الأفكار والمعانى assoziative ، ثم يرى جيلمسلف أنه يمكننا بناء على هذا الأساس تحديد النظام اللغوى

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 16.

شكليا على أنه تدرج من النماذج أو الجداول التى تتحدد على أنها تدرج من التراكيب (١) •

التعبير والمحتوى :

إن تقسيم النص بناء على الشكل والجـوهر ينتج جانبين هما : التعبير والمحتوى ، وهما ليسا أكثر من أعضاء متكاملة فى وظيفة خاصة ، وهى وظيفة المساندة والتعاون بينهما ، فعندما يوجد أحدهما يوجد الآخر ، وهذا يتضح فى النص بصفة خاصة وفى اللغة بصفة عامة • وترجع هذه الفكرة الى دى سـوسير والتى تبدو بوضوح من قوله بعدم الانفصال بين الصورة الصوتية أو السمعية التى سماها دى سسير signifiant والتصور الذهنى الذى أطلق عليـه مصطلح signifié ، حيث ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطا تلازميا ، فلا يتصور وجـود إحداهما دون الأخرى ، إنهما جانبان متلازمان يشبهان جانبى الصحيفة الواحدة •

وفى إطار النظرية الجلوسماتيكية يمكن أن توجد مستويات التعبير والمحتوى متوازية أو متماثلة الشكل حيث يتساويان فى التركيب اذا لم توجـد أى خلافات تركيبية بينهما ؛ ومن ثم لا يوجد سبب فى بقـاء الانفصال بين الجانبين ،ويفرض هـذا التشابه الشكلى بينهما أن تعالج مستويات التعبير ومستويات المحتوى على أنها موضوع متماثل ومتساو ، وهكـذا نحصل فى النهاية على وجـود نوعين متساويين من العلاقات والوظائف فى كلا الجانبين •

إن هـدف التحليل اللغوى فى تلك النظرية إنما هو عرض أو تمثيل التقدير الجبرى على أسـاس من كل امكانيات الارتباط التى يمكن أن نتوقعها فى النصوص التى لم تحلل بعد ، وهذا هو المقصود من قـول

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 76.

جيلمسلف إن اللغة توجد قبل أن تتحقق فى النص ، ويرتبط بهذا قوله : إن وجـــود أى نص يفترض بالضرورة وجـــود نظام لغوى (١) •

هكذا نصل فى النهاية الى أن الأفكار الأساسية عند دى ســـوسير تضمنتها نظرية الجلوسماتيك ، هذا على الرغم من أنها خالفته فى تحرير البحث اللغوى من علم الاجتماع وحصرته فى مجال علم الرموز أو فى إطار علم السيميولوجيا ، وبذا يمكن القول بأن هذه النظرية تمثل البنائية الشكلية الأوربية •

إن أهم ما تتميز به نظرية الجلوسماتيك هو تأكيدها القاطع على استقلال التحليل اللغوى عن المجالات الأخرى غير اللغوية ؛ ومن ثم فإن تركيب اللغة لا يتحدد من معطيات خارج مجال اللغة أو يقوم على أسس بعيدة عن الظواهر اللغوية • وتنشأ طريقـــة التحليل أو البحث دون جهـــد عندما يرى علم اللغـــة البنـــائى الـــذى ينتمى الى نظرية الجلوسماتيك أن اللغة مرتبطة دائما باستعمال اللغة ، حيث ترى النظرية أن الانسان الناطق منتج للنص اللغوى فى كل حال ، فليس مرتبطا باللغة مرة واحدة أثناء النطق كما ترى مدرسة براغ (٢) •

لقد وجـــدت نظرية الجلوسماتيك نفسها مضطرة بسبب احتضانها للأسس النظرية العلمية التى توجد فى التجريبية المنطقية الى الوصول الى نتيجـــة هى : أنه على الرغم من الشكلية الواضحـــة فإن النظرية لا تضع اللغة شكلا وتركيبا سابقة الوجود على الانسان الناطق ؛ حيث تتناولها حقيقة معطاة ؛ ومن ثم يأتى أونجهير Ungeheuer الى نتيجة مؤداها : أن الأقوال التركيبية للجلوسماتيك تعتمد على طبيعة موضوعها ؛ ومن ثم فإنها لا تعتمد على اعتبارات نظرية علمية •

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ •
(٢) المرجع السابق ص ٧٧ •

إن النظريات التى تقوم فى المقام الأول على أسس منهجية فى إطار المنهج البنائى الوصفى إما أن تكون نموذجية خالصة كما نجدها عند فايسجربر Weisgerber أو على أساس اجتماعى كما فى منهج دى سوسير أو وصفية منطقية عند جيلمسلف ، والاستثناء الوحيد من ذلك كله نجده عند أصحاب مدرسة براغ الذين حاولوا أن يعبروا عن البنائية النموذجية على أساس وظيفى دون أن يصلوا الى وضع نظرية منهجية متماسكة كالتى نجدها عند لغويى مدرسة كوبنهاجن (١) .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠ .

المدرســة الفرنســية

يقصد بالمدرســة الفرنسية المدرسة اللغوية البنائية التى نشأت فى فرنســا وسارت على نهج دى ســوسير فى البحث اللغوى مع تغيرات لا تنكر فى مجال الدراسة ، وأشهر علمائها اللغويون : أندريه مارتنيه André Martinet ولوسين تسنير Lucien Tesniére وبوتير B. Pottier ، هذا بالاضافة الى مؤسس المدرسة اللغوية النفسية فى فرنسا وهو العالم جويلومى G. Guillaume (١) •

أولا : أندريه مارتنيه :

ولــد مارتنيه عام ١٩٠٨ ودرس فى جامعات السربون وبرلين ، ثم أصبح فى عام ١٩٣٨ أستاذا فى مدرسة التعليم العالى Ecole des Hautes Etudes فى باريس ، وفى عام ١٩٤٧ أصبح أستاذ علم اللغة العام بجامعة كلومبيا بنيويورك ، ومنذ عام ١٩٥٥ وهــو يعمــل أستاذا لعلم اللغة العام بجامعة السربون فى باريس •

وأشهر مؤلفات مارتنيه كتابان هما : Elements de linguistique générale الذى طبع فى باريس عام ١٩٦٠ ، ثم ترجم الى الألمانية عام ١٩٦٣ بعنوان : Grundzüge der allgemeinesn Sprachwissenschaft (أسس علم اللغة العام) ، أما الثانى فهو A functional view of language الذى طبع عام ١٩٦٢ •

واشتهر مارتنيه عالمــا لغويا فى مجال الفنولوجيا وعلم اللغة العام وعلم اللغة التاريخى ، ويؤكد مارتنيه فى بداية كتابه الذى أشرنا إليــه آنفا

---

(1) Albert Barrara - Vidal und Wolfgang Kühlwein : Angewandte Linguistik für den fremdsprachlichen Unterricht, eine Einführung, S. 12.

أولا على أنه ينبغى أن نتناول بحث وتحليل اللغة الانسانيـــة علميا ، فالبحث العلى هـــو الذى يعتمد على ملاحظة الحقائق دون أن تعتمد هذه الحقائق نفسها على أسس جمالية أو أخلاقية ؛ وتقف بهذا النظرة العلمية مناقضة للنموذجية أو المعيارية normative التى لا يعتمـــد عليها علم اللغـــة (١) •

ويمكن تلخيص الأفكار الهامة التى جاءت فى نظريته اللغوية على النحو التالى :

١ ـــ وظيفة اللغـــة :

لا شك أن اللغة دستور أو قاعدة انسانية ، فهى عبارة عن جهاز أو وسيلة وظيفتها الاتصال ، وتعد الفرنسية مثلا فى المقام الأول الجهاز الذى يسمح للفرنسيين بالاتصال فيما بينهم • ولا تسهل اللغة الفهم المتبادل بين المتكلم والسامع فقط ؛ بل إنها تقوم بجانب ذلك بدعم الأفكار ومساندتها باظهارها من عقل المتكلم أو ذهنه ، ولذا يمكن أن يتســـاءل الانسان عما اذا كانت الأنشطة الروحية تسمى أفكارا اذا لم تجر فى إطار لغة ما ؟ إن الاجابة على مثل هذا التساؤل إنمـــا هو واجب من واجبات عالم النفس ، ولا يدخل فى مجـــال بحث عالم اللغـــة ، كذلك يستعمل الانسان لغته لتحليل مشاعره وأحاسيسه دون اهتمام برد فعل السامع ، ويعطى هذا للمتكلم إمكانية تحقيق ذاته أمام نفسه وأمام الآخرين دون أن توجـــد أى رغبة عنده فى تبليغ الآخرين شيئا ما •

وبالاضافة الى كل هذه الوظائف الخاصة باللغة يمكننا أن نتحدث عن الوظيفة الجمالية التى يكون من الصعوبة تحليلها لارتباطها الشـــديد بوظيفة الاتصال ووظيفة التعبير ، ولكن يبقى بعد ذلك التنبيه على أن

---

(1) Martinet : Grundzüge der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 14 (5. Auflage 1971).

الوظيفة الأساسية للغـة ما إنمـا هى الاتصـال والتفاهم بين أفراد المجتمع الواحـد (١) •

٢ ـ العناصر اللغوية المزدوجـة :

يصنف مارتنيه العناصر اللغوية الى وحدات ليس لها إلا جانب واحـد فقط وهو الجانب التعبيرى حيث تخلو من أى معنى وهذه هى الفونيمات ، ووحدات لها جانب تعبيرى وآخر معنوى وذلك مثل وحدات : نجح ، المجتهد فى « نجح المجتهد » فى اللغة العربيـة ، ويشتمل هـذا النوع من الوحدات على الجانبين معا ، ومن خصائصها أنه يمكن استعمالها فى تراكيب نحوية أخرى وتؤدى معنى آخر غـير المعنى الموجـود فى التركيب الأول مثل : نجح التاجر فى تجارته ، سافر المجتهد الى مدينته •

هكذا يمكننا من مجموعة محدودة تتكون من آلاف الوحـدات أن نعبر عما نحس به وأن نبلغ الآخرين ما نريد التبليغ عنه ، وينبغى أن نلاحظ أن هـذا المعنى الذى يتضمنه هـذا النوع من الوحدات لا يتجزأ الى معان صغيرة فى الوحدات الأقل التى تتكون منها الوحدة اللغوية ، فالوحدة اللغوية « نجح » يكمن معناها فى تركيبها الكلى ؛ ومن ثم لا يوجد هـذا المعنى فى الأجزاء الصغيرة وهى : النون ــ الفتحة ــ الجيم ــ الفتحـة ــ الحاء ــ الفتحة ، والتى تكون وحدات من النوع الخـالى من المعنى (٢) •

ويسمى التعبير الذى يحمل معنى مثل « نجح الولد » أو جزء منه مثل « نجح » أو « الولد » رمزا لغويا ، ويحمل كل رمز لغوى معنى signifié أو sens (= sense بالانجليزية) أو قيمة Valeur (= Value بالانجليزية) ، كما يحمل فى الوقت نفسه جانبا نطقيا

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ ، ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢١ ، ص ٢٢ .

يمكن اظهاره بالرموز الصوتية ، ويطلق مصطلح signifiant فى الرموز اللغوية بصفة عامة على الجانب الثانى وهو الجانب النطقى أو التعبيرى ، ولم يجد مارتنيه مصطلحا يطلق على هـذا النوع من الوحـدات التى تتضمن جانبا معنويا أو قيمة وجانبا نطقيا أو تعبيريا إلا مصطلح المونيم Monéme ، وتتكـون المونيمـات من وحـدات أصـغر وهى Unités de deuxieme articulation ، ويمكن تسميتها فونيمات •

وينبغى ألا يفهم أن المونيم عند مارتنيه (مثل نجح أو الولـد) مناظر لمصطلح الكلمة ؛ لأن الكلمة قـد تتكون من أكثر من مونيم مثل « يلعب » فى العربية التى تتكون من اثنين هما : الياء التى تشـير الى نوعية المسند اليه وهو المفرد المذكر الظاهر أو الغائب كمـا تدل على أن الفعل مضارع ، والفعل لعب ، ويسمى مارتنيه النوع الأول وحـدة صرفية Morpheme ، أما النوع الثانى فيطلق عليه مصطلح وحـدة دلاليـة Semanteme أو وحدة قاموسية Lexeme ، كما سيأتى بيان ذلك بالتفصيل •

وعيب هذه المصطلحات من وجهة نظر مارتنيه هو أنها تظهر على أن الوحدة الدلالية هى الوحيدة التى تحمل معنى ما ، أما الوحدة الصرفية فإنها لا تحمل معنى دلاليا ؛ ومن ثم يستعمل مصطلح الوحدة القاموسية للنوع الذى يحتل مكانا فى قاموس اللغة ؛ والوحدة الصرفية للنوع الآخر الذى لا دلالة له إلا فى النظام النحوى فقط (١) •

توضح كل لغة من خلال تتابع مستقيم من الأحداث الكلامية التى يطلق عليها الانسـان استمرارية النطق أو النطق المتتابع Chaine Parlée ؛ ومن ثم تجرى التعبيرات الصوتية مع الوقت وتتضح فى الذهن كتتابعات مستمرة • أما اذا كان التعبير بالصورة (الكتابة) فإن

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ ، ص ٢٤ .

الأمر يختلف ، حيث يرسم المعبر عناصر صورته عنصرا بعد عنصر ، فيقبل الناظر هـذا التعبير كلا شاملا ويوجه اهتمامه الى عناصره دون أن يكون للتتابع أى تأثير على القيمة الكلية .

ويتضح من استقامة التعبير أن المونيمات تتتابع كالفونيمات ؛ وإن كان تتابع الفونيمات لـه قيمة الاختيار أى اختيار فونيم مكان فونيم آخر، فكلمة « مال » العربية مثلا تتضمن نفس فونيمات كلمة « لام » ، وإن كانت تختلف عنها فى المعنى بسبب الخلاف فى تتابع الفونيمات .

أما فى وحدات النوع الآخر المزدوج (المونيمات) ؛ أى التى تتضمن الجانبين : اللفظ والمعنى فإنها تسلك سلوكا مخالفا من حيث التتابع ، فهى وإن تغـير المعنى فى مثل : « الزبون يغش البائع » عن « البائع يغش الزبون » إلا أن المعنى لا يتغير فى مثل : « يأتى الرئيس يوم الثلاثاء » ، « يوم الثلاثاء يأتى الرئيس » ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الوحدة القاموسية ترتبط بالمورفيمات أو الوحدات الصرفية التى تظهر وظيفتها فى التعبير أى صلاتها بالرموز الأخرى ؛ ومن ثم يسمح لها بأن تأتى فى مواقع متعددة دون أى تأثير فعلى على المعنى الكلى (١) .

٣ — المونيمات والفونيمات :

يؤكد مارتنيه على أهمية الاقتصاد فى استعمال فونيمات اللغـة ، حيث تشكل اللغة مجموعة كاملة من كلماتها بعدد محدود من الوحدات الصوتية ، كذلك تعبر اللغة بهذه المجموعة عن كل المعانى والدلالات ، ولو ملك الانسان صوتا خاصا أو صيحة معينة لكل مضمون أو لكل معنى لقلت امكانيات الاتصال بين أفراد المجتمع الواحـد بسبب أن ذاكرة الانسان مهما اتسعت مداركها فإنها محدودة للغاية (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ . ص ٢٥ .

(2) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 17.

إن عدد التعبيرات الممكنة نظريا فى كل لغـة لا نهاية لها ، حيث لا توجـد حدود لعدد المونيمات التى يتبع بعضها بعضـا وتكون لذلك تعبيرا لغويا ، ويمكن القـول إن قائمـة المونيمات فى الحقيقة قائمـة مفتوحة ، حيث لا يمكن تحديد عدد المونيمات فى لغـة ما ، لأنه تجد فى كل مجتمع لغوى ضرورات جديدة تتطلب باستمرار رموزا جديدة •

وتصل عدد الكلمات التى يستعملها انسـان الحضارة الجـديدة الى عشرات الآلاف ، وتتكون الكثرة من هذه الكلمات من مونيمات منفصلة أو غير مرتبطة مثل الكلمة الألمـانية Autobahn « طريق سريعـة » ، ويمكن التمثيل لها فى العربية بنحـو دار العلوم « كلية دار العلوم » ، فالكلمة الألمـانية تتكون من المونيمين : Auto بمعنى « سيارة » ، Bahn بمعنى « طريق » ، كذلك « دار العلوم » التى تتكون من : دار ، العلوم • ويرى مارتنيه أنه لا يوجد أى ارتباط بين المونيمين ، ومن المرجح أن مارتنيه يقصـد بعدم الارتباط فى هـذا المقام عدم الامتزاج • أمـا النوع الثانى من الكلمات فهى التى تتكون من مونيمات امتزج بعضها بالبعض الآخر مثل تلغراف Telegraph وترموستات Thermostat (١) •

وينبغى أن نشير الى أن المونيمات التى تأتى سوابق أو لواحق مثل ياء المضارعة أو تاء الفاعل فى اللغة العربيـة أقل بكثير من حيث العدد من مونيمات النوع الأول وهى التى سماها مارتنيه الوحـدات القاموسية •

أما قائمة الفونيمات فهى على العكس من ذلك قائمة مغلقة ، أى أن عددها محدود ، وتختلف اللغات بعضها عن البعض الآخر فى عددها ؛ بل إن اللغة الواحدة قد تختلف فى العدد من منطقة الى منطقة أخرى ، أو من طبقة اجتماعية الى طبقة أخرى ، أو من جيل الى جيل ، فالأسبانية المنطوقة فى أمريكا تشتمل على اثنين وعشرين فونيمـا فقط فى مقابل

---

(1) Martinet : Grundzüge der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 27

أربعة وعشرين فونيما تتضمنها الأسبانية فى المناطق الأخرى ، كما أن الفرنسية التى ينطقها مارتنيه (كما يقول فى كتابه) تتكون من أربعة وثلاثين فونيما على حين تتكون الفرنسية الباريسية عند الجيل الذى ولد بعد عام ١٩٤٠ من واحد وثلاثين فونيما فقط (١) •

ووظيفة الفونيمات إنما هى التمييز أو المقابلة ، فالفونيم الذى يأتى فى جزء من الكلام يتميز عن كل الفونيمات الأخرى التى تقع موقعه أو بعبارة أدق الفونيمات التى يمكن أن تحتل موقعه ، وبجانب هذه الوظيفة الفنولوجية الهامة فإن العناصر الصوتية فى اللغة يمكنها أن تقوم بوظيفة المقابلة ، ففونيم الهاء / h / فى الانجليزية ترتبط وظيفته التمييزية (حيث تتميز hill من ill ، pill ، bill ••• الخ) بوظيفة التحديد ، لأنها فى ثروة اللغة الانجليزية لا تأتى إلا فى بداية المونيم فقط • أما الوظيفة الثالثة فهى وظيفة فنولوجية وهى التعبير عن حالة المستمع ، حيث ندرك حالة المستمع العصبية فى الألمانية مثلا بتطويل أو ازدواج فونيم / m / فى نحو immer « دائما » التى قد تنطق أحيانا im - mer تعبيرا عن العصبية الحقيقية أو المزعومة (٢) •

ومثلما يحدث عند إجراء التحليل الفنولوجى من تقسيم التعبير الى أصغر الوحدات المتتابعة (الفونيمات) يحدث مثله فى التحليل الصرفى حيث يقسم التعبير الى أصغر الوحدات حاملة المعنى (المونيمات) ، ويشير مارتنيه الى أن إجراء مثل هذا التحليل ليس سهلا ، والسبب فى ذلك يكمن فى أن المونيمات — كما سبق القول — وحدات لها جانبان : جانب الرمز وجانب المرموز إليه ؛ وينبغى لهذا السبب أن يوضح المحتوى فنولوجيا بوجود رمز خاص به ؛ وقد يحدث أن محتويين يندمجان فى تعبير واحد ورمز واحد ؛ ومن ثم لا يمكن تقسيم التعبير الى أجزائه المتتابعة ويصعب تحليله صرفيا ، وذلك مثل a الفرنسية التى تشير

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ ، ص ٢٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

الى معان عدة : « الى » أو « فى » أو غيرهمـــا ، ومثل le التى تكون أداة تعريف للمفرد المذكر المعرفة ، ويرمز لهاتين القيمتين أو الدلاليتين فى الكتابة الفرنسية بـــ à ، le وفى الكتابة الفونيمية بـــ / a / ، / l / ؛ ولكن عندما تأتى القيمتان معا فى تعبير نطقى واحد ، ويتبعهما فى التعبير ساكن فإننا نحصل على رمز نطقى واحد لا يمكن تحليله أو تقسيمه وهو / o / الذى يكتب فى الفرنسية au فى مثل : il va au marché « هو فى السوق » الذى يكتب فونيميا / il va o marse / .

وفى الانجليزية نجـــد قيمتين فى الفعل cut اذا أسند الى المفرد وكان ماضيا ، فالقيمة الأولى هى الفعلية والثانيـــة أنه ماض ، ورمز الثانية غالبا / d / ، ولكن اذا وقعت القيمتان فى تعبير واحد فإنهما يأتيان فى شكل / KAt / وذلك فى نحـــو « «he cut» » على العكس فى حالة المضـــارع he cuts ، ففى صيغة المـــاضى اندمج رمز القيمـــة الأولى وهو نهاية الفعلية / t / مع رمز القيمة الثانية / d / فى رمز لغوى واحد وهو / t / . أما فى المضارع فقد انفصل رمزا القيمتين كما يبدو فى الكتابة الفونيمية / hi KAts / .

ويمكن القول بالنظر الى مثل هذه الحالات إن الانسان يرى فى هذا الاندماج جانبا خاصا من ظاهرة عامة وهى أن القيم تظهر حسب السياق الصرفى فى أشكال متعددة مثل الفعل الفرنسى aller « يذهب » الذى يأتى حسب السياق إمـــا فى شكل : / i / ، / va / ، / al / أو فى شكل / a /(1) .

٤ ـــ المونيمات الوظيفية :

يقصد مارتينيه بالمونيم الوظيفى the functional moneme المونيم الذى يقوم ببيان أو بتوضيح الوظيفة الخاصة بمونيمات أخرى مجاورة

---

(1) Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Morphonologie».

لـه ، وتوجد هذه المونيمات الوظيفية فى معظم اللغات اقتصادا فى عدد المونيمات المستعملة ، وفى مقابل استعمال مونيم لكل حالة أو لكل قيمـة معنية فى مثل : الرجل الذى يقـوم بعمل ، أو الرجل الذى يتضرر من القيام بهذا العمل ، أو الرجل يقوم بعمل لكنه ينتفع منه ، تستعمل اللغة أحيانا مونيما واحـدا لحالات الرجل الثلاثة بديلا عن استعمال ثلاثة مونيمات ، وفى الفرنسية نجـد مثالا لهذا المونيم الوظيفى وهو à / a الذى يشير الى وظيفة المونيم التالى له فى الجملة الموجودة وذلك فى نحو il a donné le livre à Jean « أعطى الكتاب لجين » ، وفى هـذا المثال يدل مـونيم à على وظيفـة جين فى التركيب وهى وظيفـة المعطى لها .

٥ ــ الفونيماتيك :

إن الفونيماتيك Phonematik (= Phonematics بالانجليزية) يعنى تحليل النطق الى فونيمات وتصنيف هذه الفونيمات ، ثم دراسة الصلات الموجودة فى التعبير لتشكيل رموز اللغة ، وليست الرموز اللغوية التى يقوم الانسان بدراستها سـوى المعطيات التى يستخرجها الباحث من التعبيرات اللغوية . كما أن هذه التعبيرات ليست سهلة ، بل إنها كثير ما تكون ممتدة ومعقدة . وتمثل المعطيات الجانب المرئى أو الملحوظ فى اللغـة . وإن جملة « نجح الولـد فى المدرسـة » التى تمثل تعبيرا فى العربية إنمـا تشتمل على عدة معطيات يستخرجها الباحث وهى الكلمات والمونيمات ؛ ومـن ثم يمكن أن يبـدأ التحليل الفنولوجى من التعبير المنطوق (١) .

أما التحليل التطريزى prosodic الذى يأخـذ به مارتنيه فإنه يتناول من وجهة نظره كل الظواهر التى لا تندرج فى المجالات الفونيماتيكية .

---

(١) Martinet : Grundzuge der allgemeinen Sprachwissenscheft, S. 54 . 55.

مثل ظواهر استمرارية النطق أو الطول أو الجهر أو الأنفية أو غيرهـا من التى لا يتناولها التحليل الفونيمى (١) •

وتنقسم الفونيمات الى سواكن وحركات ، فالحركات هى الأصوات التى تتلون من خلال شكل التجويف الفموى ، وتتنوع الحركة فى المقام الأول بسبب وضع الشفاة واللســان ، وتكون الحركة طويلة اذا استمر الصوت منطوقا ، ويرمز لها حينئذ بخط أفقى فوق رمزها أو بنقطة أو نقطتين على يمين الرمز • أما السواكن فإن الانسان لا يستطيع نطقها دون مساعدة حركة سابقة أو تالية إلا بصعوبة ، وتتنوع السواكن بالنظر الى طريقة خروج الهواء والى اهتزاز الأوتار الصوتية الى أنواع متعددة معروفة فى الدرسات الصوتية (٢) •

٦ ـ الفنولوجيا الصرفية :

تتناول الفنولوجيا الصرفية Morphophonology عند العلماء التغيرات الصوتية التى تنشأ بسبب ظواهر أو حالات صرفية ، وذلك مثل علامة الجمع فى الانجليزية وهى (s) التى قد تنطق (z) فى بعض الحالات ، (s) فى حالات أخرى •

أما مارتنيــه فإنه يرى أن الفنولوجيا هى التى ينبغى أن تتناول التغير الصــوتى الذى يصيب الســواكن والحركات مثل ou ، eu فى الفرنسية فى نحو Peuvent « يستطيعون » ، pouvons «نستطيع» ، وفى نحــو meurent « يموتون » ؛ mourons « نمــوت » أو كما يحدث فى الألمــانية من تغيرات تصيب السوابق واللواحق عنــد مجاورتها لأصوات أخرى وهو ما يطلق عليها Umlaut ، كذلك عنــد صياغة الجمع من المفرد فى نحو Bucher « كتب » ومفردها Buch ،

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢ ، ص ٧٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٧ ، ص ٤٨ ، ص ٤٩ .

وفى صياغة الفعل fällt للمفرد من الصيغة الأصلية fallen « يقع أو يسقط » ، وليس الأمر كذلك حينما يصـوغ الطفل الألمـانى تصريفا خاطئا من الفعل bringen « يحضر » حيث يأتى أحيانا بصيغة الماضى منه قائلا gebrungen بديلا عن الصيغة الصحيحة gebracht قياسا على gesungen من singen « يغنى » •

ويرى مارتنيه أن النوع الأول من التغيرات يدخل بعضها فى مجال الدراسات الفنولوجية وهذه هى التغيرات التى تحدث بسبب مجـاورة الأصوات بعضها للبعض الآخر مثل أصوات السـوابق واللواحق التى يصيبها التغيير لمجاورتها لأصوات أخرى • هذا بخلاف التغيرات الصرفية المنتظمة مثل الجمع Bücher من Buch فى الألمـانية أو الفعل fällt من fallen فهى تغيرات صرفية •

أما النوع الثانى من التغيرات فهى التى تأتى عفـوا كالقياسات الخاطئة عند الأطفال مثلا ، وهذه هى التى تدخل فى مجال الدراسات الصرفية الصوتية ، ويوضح مارتنيه حدود كل مجال من هذه المجالات قائلا :

« إن التغيير المنتظم ينبغى أن يبحث صرفيا دون أى اعتماد على عوامل صوتية ، أما مصطلح دراسات صوتية صرفية إنما يتضمن الظواهر الصوتية التى تنشأ عندما يبحث الانسان كيفية استعمال الفروق المؤكدة التى يسلكها المتكلم لأغراض صرفية » (١) •

ويبدو واضحا من كلام مارتنيه أنه يعد من مجال الدراسات الصرفية الصوتية التغيرات الصوتية المقننة أى التى تنشأ منتظمة ، كذلك التغيرات الصوتية التى تحدث فى السوابق واللواحق أو فى صيغ الجمع نتيجـة لمجاورتها لأصوات أخرى ، على حين نجـد أن مثل هذه التغيرات يعدها

---

(١) المرجع السابق ص ٨٩ ٠

كثير من اللغويين من مجال الدراسات الصرفية الصوتية ؛ ومن ثم يشير ليفاندوفسكى Lewandowski فى قاموسه اللغوى الى أن علم الصرف الصوتى أو المورفونولوجيا Morphonologie يهتم بالتعاقب الصوتى الصرفى المنتظم ، حيث تلاحظ فيه امكانيات التعبير الصوتية للمورفيمات مثل fällt من fallen ، sang ، gesungen من singen ، ويرى بايك أنه دراسة إبدال الفونيمات وحذفها واضافتها فى المجال الصرفى • أما هوكيت فإنه يرى أنه فرع القواعد الذى يعامل الجانب الفونيمى للمورفيم والكلمة والتركيب دون اهتمام بالمعنى (١) •

٧ ــ السينتجما المستقلة :

يشير مصطلح سينتجما أو تركيب عند مارتنيه الى الارتباط أو الصلة بين المونيمات ، أما السينتجما المستقلة فهى ارتباط بين مونيمين أو أكثر لا ترتبط وظائفها بموقعتيها فى التعبير مثل تركيب « العام الماضى » الذى يستدل على علاقته بالسياق من خلال مجموع مونيماته ، وغالبا ما يتضمن هذا التركيب مونيما وظيفيا مثل « مع حقيبتى » الذى يعد سينتجما مستقلة ، ويؤدى مونيم « مع » دورا وظيفيا حيث يخدم وظيفة المونيم الثانى فيعبر عن صلته بالسياق الكلى ، ويؤدى أحيانا هذا الدور المونيم الثانى كما فى الفنلدية فى نحو Kirkkossa « فى الكنيسة » حيث يقوم ببيان وظيفة المونيم الأول Kirkko المونيم الثانى ssa (٢) •

٨ ــ الكلمــة :

يرى مارتنيه أن مصطلح كلمة Word يطلق عادة عند اللغويين على السينتجما المستقلة التى تتكون من مونيمات متصلة مثل «بالأمس» ، كذلك يطلق المصطلح على المونيمات المستقلة مثل « أمس » ، « بيت » ،

---

(1) Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Morphonologie».
(2) Martinet : Grundzüge der allgemeinen Sprachwissenschaft, S. 100.

هذا بالاضافة الى إطلاقه على المونيمات الوظيفية غير المستقلة (دلاليا) مثل : الى ، فى ، عن ... الخ .

وينبغى أن نشير الى أن اللغويين اختلفوا فى تحديد مفهوم الكلمة بناء على الزاوية التى ينظر منها اللغوى أو الأساس الذى ينطلق منه فى تحديد مفهومها ، حيث إنه يمكن تعريفها من منظور دلالى أو على أساس شكلى أو بناء على الوظيفة التى تؤديها الكلمة فى الجملة .

يرى بلومفيلد أن الكلمة أصغر صيغة حرة a minimum free form (١) ، ويقصد أنها أصغر وحدة كلامية قادرة على القيام بدور نطق تام مثل « منزل » ، هذا بخلاف تاء المتكلم فى نحو « كتبت » فإنه لا يمكن أن تنطق منعزلة عن الفعل « كتب » . أما أولمان فيرى أنها أصغر وحدة ذات معنى للكلام واللغة ، ويعتقد أنه لا يوجد تعريف وحيد أو جامع لمثل هذا النوع من المصطلحات المجردة (٢) .

ويعرف فيرث Firth الذى يعد رائد الاتجاه الاجتماعى السياقى فى علم اللغة الوصفى الكلمات بأنها مقابلات استبدالية ، حيث يكون تناظر الأصوات هو الفيصل فى الأمر ، والمقصود بذلك هو أن استبدال الأصوات ذات الصفات المميزة بغيرها أو اضافة هذه الأصوات أو حذفها يؤدى الى وجود كلمات جديدة » (٣) .

« وعلى هذا النحو يؤدى تغيير أى عنصر من عناصر كلمة مثل pin « دبوس » الى صيرورتها bin « صندوق » ، pan « قدر » ، pit « حفرة » . والاضافة اليها تصيرها spin « فتل أو أدار » ، وأما الحذف فيحولها الى in « فى » ، وبهذه الطريقة

---

(1) Bloomfield : Language. p. 178.

(٢) أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص ٤٣ (ترجمة د . كمال بشر ، الطبعة الثانية ١٩٦٩) .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣ .

نفسها يؤدى تغيير الكلمات الى تغيير مضمون التراكيب أو الجمل التى تشتمل عليها ، فالجملة : « هو كتب كتابا جيداً » قد تتحــول الى « **هى كتبت** كتابا جيدا » ، « هى **قرأت** كتابا جيدا » ، « هو كتب **قصة جيدة** » **أو** « هو كتب كتابا **رديئا** » • وهكذا الشأن حين تضاف بعض الكلمات كما فى « هو لم يكتب كتابا جيدا أبدا » أو حين تحذف نحو : « هــو كتب كتابا » الخ » (١) •

ويرى مارتنيه أن الانســان أتعب نفسه فى تحديد مفهوم الكلمة بدقة دون جــدوى ، حيث إن تحــديد مفهوم الكلمة يرتبط بلغة ما ، ويؤدى الى الاعتماد على مقاييس ضيقة لا يمكن تطبيقها على كل اللغات ، ففى اللاتينية مثلا نجــد كلمات تتكون من عدة مونيمات متداخلة غــير منفصلة فكلمة dominus « سيد » فى حالة الرفع والإفراد تتكون من ثلاثة مونيمات : سيد ــ رفع ــ مفرد ، وكلمات : clavus «مسمار» ، clavis « مفتاح » ، clava « هراوة » إنما هى ثلاث كلمات بجذر واحــد ، وتختلف فيما بينها من خلال التنوعات الصوتية التى تنتهى بها (٢) • كما أن الكلمة اللاتينية cantabimus تقابلها فى الفرنسية كلمتان nous chanterons « نحن نغنى » وفى الألمانية ثلاث كلمات : wir werden singen « نحن سوف نغنى » •

هكذا يصادف الانسان صعوبات جمة فى تحليل التعبير اللغــوى وتحديد عدد الكلمات التى يتكون منها التعبير ، وذلك مثل التعبير الانجليزى I'll go out أو التعبير الألمــانى um nachzusehen « ليطلع أو ليتحقق » ، كما نجد صعوبة كبيرة فى تصنيف s الدالة على الاضافة فى الانجليزية فى نحــو the king of England's « ملك انجلترا » ، ويتوقف

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ ، ص ٤٤ وانظر أيضا :
1 — Carl Heupel : Taschenwörterbuch der Linguistik «Wort».
2 — Th. Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Wort».
(2) Martinet : Grundzüge der allgemeinen Sprachwissenschaft. S. 104.

الانسان فى الفرنسية طويلا عند تقسيم تعبير « «bonne de'enfant» / bondàfâ / « مربية أطفال » الى كلمتين فقط أو الى ثلاث كلمات ، حيث لا يختلف عن مثيله فى الألمـانية Kindermädchen « مربية » الذى يعد كلمة مركبة •

كذلك الأمر اذا استعمل الانسان — كما يقول مارتنيه — المعايير الشكلية formal دون أن يعتمد على مقاييس دلالية semantic ، حيث يحكم حينئذ على بعض الصيغ اللغوية كأشكال الجمع وغيرها بنـاء على تركيبها الشكلى بأحكام قاسية قد لا تتفق فى أغلب الحالات مع باقى الصيغ فى اللغة نفسها ، مثل الحكم على التعبير الفرنسى sac a main / sakamè / « حقيبة اليد » بأنه كلمة واحدة على حين تعد صيغة cheval à bascule « حصان المرجيحة » فى حالة الجمع chevaux à bascule ثلاث كلمات (١) •

لكل هذه الأسباب يقترح مارتنيه أن تقوم كل لغة بتحديد مفهوم الكلمة داخل اطار اللغة نفسها ، ففى اللاتينية يعقد تحليل اللغـة الى رموز منفصلة التصنيف اللغوى فيها ، كما أنه يؤدى الى نتائج معقدة ؛ ومن ثم فإن كلمة dominus ينبغى أن تعامل على أنها كلمة متصرفة تصريفا ثانيا (٢) •

ويرى مارتنيه أخـيرا أن الكلمـة تعتمـد لذلك على الصـلات السينتجماتية التركيبية فى اللغة التى تقوم على الأمور التالية :

١ — الخصائص الصوتية (حدود الأصوات وشكل قمة النطق) •
٢ — المعالم الشكلية (امكانية الانفصال والاندماج) •
٣ — الاشارة الى المعنى (٣) •

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ وانظر ايضا :
Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Wort».

ثانيا : لوسين تسنير :

نشر كتاب تسنير المسمى « عناصر التركيب النحوى Eléments de Syntaxe Structurale بعد وفاته عام ١٩٥٤ ، وركز تسنير اهتمامه الرئيسى على بحث تركيب الجملة حيث ميز بين جانبين هما : شكل الجملة (الشكل الخارجى) وتركيب الجملة (الشكل الداخلى) ، ويتحدد النحو عنده على أنه دراسة تركيب الجملة •

ويهتم فى إطار تركيب الجملة بشكل البنـاء الثنائى الذى يتمثل فى نحـو :

يتكلم	يحب	
الولـد	الولـد	البنت
	الصغير	الصغيرة

ونلاحظ فى هذه الأمثلة العلاقة الثنائيـة بين الولد ويتكلم ، ثم العلاقات الثنائية المتدرجة وهى العلاقة بين الولد ويحب ، ثم بين الولد والصغير ، أو بين البنت ويحب ، ثم بين البنت والصغيرة ، ويطلق تسنير على هذه العلاقة مصطلح Connexion ، ويرمز لها بخط رأسى ، ثم يرمز بعد ذلك لنقط الاتصال فى الخطوط المرسومة ، أما الجزء السـابق فى الترتيب فإنه يطلق عليه مصطلح Régissant (الرابط) ، ويطلق على الثانى مصطلح Subordonné (المرتبط) (١) •

ونرى كمـا يعتقد كثير من اللغويين المحدثين أن فكرة ارتباط عضو فى الجملة بعضـو آخر فكرة مرفوضة تماما ، حيث تتساوى أعضاء

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 18 , 19.

الجملة فى الأهمية ، فلا يوجد تابع ومتبوع التى قد يفهم منها أهمية عضو عن عضو آخر ، تلك الفكرة التى ظلت مسيطرة على الدراسات اللغوية مدة طويلة خلال العصور الوسطى •

واذا تبع الرابط أو العضو المتقدم تابعان أو أكثر فإن ذلك يشكل عقدة واحـــدة ، ويمثل الخبر الذى يقف فى قمة السلسلة أو الشجرة مركز تلك العقدة • إن الجملة عند تسنير تعد عملية تتضمن أحداثا وممثلين ولاعبين التى يسميها تسنير Actants ، كمـــا تشتمل على مكملات أو ظروف Circonstants (١) •

إن توابع الفعل والتى تتضمن أفعالا وممثلين تظهـــر فى الجملـــة كتابعة مباشرة للفعل ، وتتمثل فى أسماء الذوات أو ما يشبهها ، وتزداد مقدرة الفعل كلما أخذ عددا كبيرا من هذه التوابع ، ويفسرها تسنير على أنها مقدرة الجوهر ، فهناك أفعال أحادية التابع وأخرى ثنائيـــة أو ثلاثية • وتوابع الفعل هذه ليست إلا الفاعل والمفعول المباشر مثل الدرس فى الجملة العربية « كتب الولد الدرس » أو غير المباشر نحـــو القلم فى جملة « كتبت بالقلم » ، وهكذا تختلف كفاءة الفعل ، فالأفعال ذات الكفاءة الواحدة مثل « ينام » ، « يموت » فى اللغة العربية ، حيث لا يحتاج إلا الى الفاعل فقط ، والأفعال « يغنى » ، « يطلب » لها كفاءة ثنائية ، أما فعل « يعطى » مثلا فإن له كفاءة ثلاثية (فاعل + مفعول به + مفعول به) فى نحو « يعطى الرجل الفقير مالا » ، ويمكن للأفعال أن تستعمل بالطبع كفاءة أقل مما لها فى الحقيقة ، ويكون العضو المتروك فى هذه الحالة متضمنا . وغالبا ما يفهم من السياق ، ويسمى الاستعمال فى هـــذه الحالة استعمالا غير كامل (٢) •

وقد صنف تسنير كلمات اللغة بالنظر الى موقعها ومكانها الى أربعة

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ •

(2) Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Aktant».

أقسام وضع لكل نوع منها رمزا خاصـا ، ورموز هذه الأنواع هى :
I = الفعل ، O = الاسم ، E = الظروف ، A = الصفة •
ويلاحظ فى هذا التصنيف خلط تسنير بين أنواع الكلمات وأعضاء الجملة •

وقد انتهى تسنير الى أن كل نوع قريب من الاسم ينبغى أن يتناول على أنه صفة كالجار والمجرور فى نحـو « يقوم القطار من القاهرة صباحا » ، أو المضاف إليه مثل « بيت الوالد جميل » ، وتنقل الأنواع القريبة من الأسماء بعملية تسمى عملية الترجمـة ، ويسـاعد عملية الترجمـة هـذه ما يسـمى بالمترجمات وهى الحـروف ، ضـمائر الاتصـال ••• الخ •

وبعد ، فإن نحو تسنير أدى الى تفسيرات تعليمية ، بل يمكن القول بأنه علم اللغة اللاتينية ، وقد استمرت فكرة الكفاءة التى يتمتع بها الفعل عند النحاة الألمـان من أمثال يوهانس إربن Johannes Erben فى كتابه المسمى « ملخص النحو الألمـانى Abriss der deutschen Grammatik وعند دودن فى نحـوه : Duden - Grammatik ، وعند هيرنجر H. J. Heringer فى نظـامه عن التركيب النحـوى ، وفى ألمـانيا الديمقراطيـة نجـد مثـل هـذا المنهـج عنـد هلبـج شنكل Helbig Schenkel فى قاموسه المسمى : Valenz - Wörterbuch (قاموس التكافؤ) (١) •

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 20,21.

المدرسة الإنجليزية

تركزت الدراسات اللغوية الوصفية فى بريطانيا العظمى أساسا فى الأصوات والدلالة ، وبعد دراسات سويت Sweet الصوتية فى نهاية القرن الماضى أسهب دانيال جونز D. Jones فى مجال الأصوات ، حيث ألف مجموعة من الكتب الهامة لعل من أشهرها : Outline of English Phonetics الذى طبع لأول مرة عام ١٩١٤ ، وكتابه : The Phoneme : Its Nature and Use ، ثم قاموسه الصوتى فى نطق الإنجليزية English Pronouncing Dictionary الذى طبع لأول مرة عام ١٩١٧ ٠

يرجع الاعتراف بعلم اللغة العام موضوعا أكاديميا وبوضع نظرية لغوية متميزة فى بريطانيا العظمى الى اللغوى الشهير فيرث Firth أستاذ علم اللغة العام فى جامعة لندن بين عامى ١٩٤٤ — ١٩٥٦ ، والذى كرس كثيرا من وقته وجهده للاهتمام بالفنولوجيا التى وضع فيها نظرية التحليل التطريزى Prosodic analysis ، وذلك فى إطار نظريته العامة فى التحليل اللغوى وهى ما أطلق عليها سياق الموقف Context of Situation (١) ٠

لقد كانت الفنولوجيا التطريزية وسيلة استخدمها علماء اللغة الانجليز بدءا من فيرث لتحليل الظواهر الصوتية التى تنتج من تداخل النطق ، حيث إن دراسة عضوية وسلوك الموجات الصوتية الناتجة تؤكد ومازال تؤكد أن تداخل الظواهر اللغوية المنطوقة هو العلامة البارزة فى الكلام ؛ ومن ثم كانت الخواص الفوناتيكية الناتجة عن هذا التشابك هى موضوع التحليل التطريزى ٠

---

(1) Robins : A short history of linguistics. p. 213 (1967).

اختلف مفهوم الفونيم فى علم الفونيمات Phonemics الأمريكى البلومفيلدى فى كثير من النقاط الهامة عن الفونيم كما فهمه دانيال جونز ومدرسة براغ ، حيث اتجه الفونيم كما طوره جونز من الدراسة العملية عند سويت والنظرية عند بودوان دى كورتينى ومن عمل معه الى التحليل الفنولوجى من حيث التقسيم الى سواكن وحركات بناء على الصفات الفنولوجية المميزة ، ومن حيث الملاحظات الفوناتيكية الأخرى كارتفاع النغمة مثلا فى اللغات التنغيمية ، كما نبه الفوناتيكيين الى الموضوعات أو المسائل التى ترتبط بالتحليل الفنولوجى للتنغيم والنبر ، والى الملاحظات الصوتية التى تفصل كلمة ما فى الكلام المتصل عن كلمة أخرى ، كذلك بحث تروبتزكوى الملاحظات الصوتية بصفتها علامات للحدود بين الوحدات اللغوية (١) •

ورأى علماء اللغة الأمريكيون الذين ساروا على نهج بلومفيلد أن الحل هو صياغة مفهوم الفونيم على أنه ادراك كل العلامات الفوناتيكية المميزة فنولوجيا ، أما الظواهر الفوناتيكية الأخرى ذات الدلالة الفنولوجية فى حدود الكلمات مثل الهمزة التى تنطق مميزة an ocean « محيط » من a notion « فكرة أونية » فى الانجليزية ، أو ظواهر الوقف فى وسط الجملة وفى نهايتها فإنها تتناول أو تدرك من خلال ما يسمى فونيمات فوق التقسيم suprasegmental phonemes والتى تطلق أيضا على علو النغمة والنبر والتنغيم وغيرها من الظواهر الصوتية • هكذا أصبح أساس الدراسات الصوتية الأمريكية يقوم على أنه ينبغى ألا يوجد عامل آخر مثل التمييز الفوناتيكى مؤثرا على التحليل الفونيمى ، ولذا فإن الصلة بين التعبير (أو الكتابة الضيقة) والتحليل الفونيمى (أو الكتابة الواسعة) غير مرتبطة بكل العوامل القواعدية ؛ ومن ثم ينبغى أن يتم

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 75.

فصل الكلمات فى المستوى النحوى فقط ، ويتناول على أنه فونيم اتصال محدد ، ونلحظ هنا — كما يقول روبنز — المطالبة باستقلال المستوى الفنولوجى فى علم اللغة ، ذلك الاستقلال الذى رفضه علماء اللغة الأوربيون (١) .

أما فيرث وأتباعه فقد استخدموا — كما سبق القول — نظرية التحليل التطريزى فى دراسة مثل هذه الظواهر ، حيث رفض فيرث ومعظم من تبعه من اللغويين الفصل بين الفنولوجيا والمستويات اللغوية الأخرى ؛ بل لقد عد فيرث الفنولوجيا مستوى هاما يربط بين الوصف النحوى من جهة والوصف الفوناتيكى للنطق اللغوى من جهة أخرى (٢) .

يرى فيرث أن الفنولوجيا التطريزية تقوم أساسا على عنصرين هما :

١ — الوحدات التقسيمية الفونيماتيكية (وليست الفونيمية) phonematic segmental units ، وهى السواكن والحركات التى تنتظم كعناصر أو كأقسام .

٢ — الظواهر التطريزية أو التطريزيات prosodies التى ترجع الى تركيبات معينة ولا ترجع الى مواقع بين الوحدات الفونيماتيكية ؛ ومن ثم فإنها تقوم على الصلات التركيبية syntagmatic بين الظواهر الفوناتيكية المعينة (٣) .

ويتناول التحليل التطريزى التراكيب المتنوعة فى الفنولوجيا مثل المقاطع ومجموعات المقاطع وفى النحو مثل الكلمة والتركيب أو الجملة ، كذلك يتناول الظواهر الصوتية التى تناولها تروبتزكوى كعلامات ظاهرة

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .
(3) Robins : A short history of linguistics, p. 218 (1967).

فى نقط الاتصال والفونيمات غير التقسيمية عند علماء اللغة الذين ساروا على نهج بلومفيلد ، هذا بالاضافة الى ظواهر أخرى تنتمى الى مجال التحليل التطريزى مثل انثناء اللسان نحـو الخلف أو جعل المخرج من سقف الحنك الصلب أو من سقف الحنك اللين ، كذلك ظواهر صوتية أخرى مثل الأنفية والحنجرية والنفسية ... الخ (١) .

السياق فى نظرية فيرث اللغوية :

إن سياق الموقف Context of Situation ينبغى عند فيرث أن يهيىء الاطار لتجريد وصياغة الصلات المتنوعة بين التعبيرات وأجزائها من جهة وبين التعبيرات والظروف الاجتماعية والطبيعية التى تستعمل فيها هذه التعبيرات من جهة أخرى ، وذلك بغرض الفهم الكامل .

أخذ فيرث مصطلح الموقف من مالينوفسكى أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى لندن من عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٤٢ ، وإن كان يعترف صراحة بأن نظريته السياقية الخاصة بالمعنى مأخوذة من أبحاث وجنر P. Wegener ، كما جاءت فى نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٥) تحت عنوان : دراسات فى أسس حياة اللغة Untersuchungen über die Grundfragen des Sprachlebens ، والذى أكد فيها وجنر على أن السياق هو الأساس أو المحيط الذى تعتمد عليه الحقيقة فى توضيحها وفهمها ، وأنه لا يتضمن عند الاتصال اللغوى الكلمات فقط ، بل الصلات والظروف المحيطة والحقائق السابقة والأشخاص الذين نتحدث معهم (٢) .

إن نظرية فيرث تدور حـول ظواهر السياق اللغوى بالنظر الى الكلام ، حيث يتضمن الموقف السياق اللغوى والاجتماعى ، ويبدو هنا

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 80.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .

حرص فيرث بوضـــوح فى دراساته اللغوية على تأكيد ظاهرة اللغـــة الاجتماعيـــة ، واستفاد مثله فى ذلك مثل لغويى أمريكا من عمـــل وفكر الأنثروبولوجيين ، ولكنه تجاوزهم فى الاقتراب من اللغة ببحث وصف اللغة ذاتها بالاضافة الى كل ما يحيط بالموقف الذى تنطق فيه الأحداث الكلامية •

وقد أشار الدكتور كمال بشر الى أمـــور ثلاثة يقوم عليها منهج فيرث فى التحليل اللغوى ، وهذه الأمـــور الثلاثة هى :

أولا : وجوب اعتماد كل تحليل لغوى على المقام Context of situation مع ملاحظة كل ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظروف وملابسات وقت الكلام الفعلى •

ثانيا : وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته ، فتحديد البيئة يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى أو لهجة وأخرى • وهذا الخلط من شأنه أن يؤدى الى نتائج مضطربة غير دقيقة وذلك لاختلاف المـــادة التى أخذت منها هذه النتائج •

ثالثا : الكلام اللغوى عند فيرث مكون من أحداث ، وهذه الأحداث معقدة مركبة ، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة ؛ بل يجب تشقيقها والنظر اليها على مراحل ، وهذه المراحل أو الخطوات التى يجب اتباعها عند تحليل الأحداث اللغوية هى فروع علم اللغة ، والنتائج التى تصل اليها هذه الفروع هى مجموع خواص الكلام المدروس ، وتتصل هذه الفروع بعضها ببعض اتصالا وثيقا ، ولا يجـــوز الفصل بينها إلا بقدر وفى ظروف خاصة ، والوظيفة الأساسية لعلم اللغـــة بفروعه هى بيان المعنى اللغوى للكلام ••• والمعنى اللغوى عند فيرث إنما هـــو مجموعـــة من الارتباطات والخصائص والمميزات اللغوية التى نستطيع التعرف عليها فى المقف المعين » (١) •

---

(١) د . كمال بشر : دراسات فى علم اللغة ، القسم الثانى ص ١٧٢ — ص ١٧٥ (دار المعارف ١٩٦٩) .

كان حرص فيرث على أن علم الدلالة هو محور الدراسات اللغوية وحرصه على المعطيات الاجتماعيـة بصفتها العامل الفاصل فى توضيح المعنى وفى فهمنا فى استعمال اللغة سبيلا الى مخالفته التفسير الميكانيكى الشكلى فى منهج بلومفيلد ومن سار على نهجه من اللغويين •

أما منهج هاليداى فى علم اللغة الوصفى والذى يدين لأفكار فيرث فإنه يقوم فى المقام الأول على مفهوم سياق الموقف والنظرية السياقية للمعنى — كمـا وردت عند فيرث — أكثر مما يقـوم على الفنولوجيا التطريزية ، هـذا على الرغم من تأثير الفنولوجيا التطريزية الواضح على كثير من الدراسات الصوتية التى ظهرت فى اللغات المتنوعة (١) •

وقد ظهر أثر نظرية الموقف أو السياق عند تلامذة فيرث فيما سمى بنظرية السجل Register ، ويربطون فيها بين نطق المتكلم والسـياق أو الموقف ، حيث يرون أن المتكلم يختار من سجله اللغوى ما يناسب الموقف ، والمقصود بالسجل اللغوى عند تورنر Turner التغيرات المتاحة أمام المتكلم ، وعند هاليداى Halliday التنوع اللغوى حسب الاستعلامات المختلفة •

وتقوم نظرية السجل أساسا على أن المتكلم لا يتصرف أثناء نطقه بشكل ثابت ، لكنه يتكلم بطرق مختلفة حسب الموقف والسامع ومجـال الحديث ••• الخ ، فالحديث العلمى الذى يدور حول موضوع تخصصى يختلف الى حـد كبير عن الكلام فى مجال مثل كرة القدم ، كما أن حديث الشخص أمام محكمة يغاير حديثه فى مطعم مثلا •

هكذا يختار المتكلم من سجله اللغـوى ما يلائم الموقف والظروف المحيطة ، كما أنه يختار فى بعض الحالات تعبيرات لغوية غـير مناسبة

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 89.

لغرض معين يهدف إليه أو لاحداث أثر مقصـــود كالهزل أو الحزن ، وينتظم السجل اللغوى ثلاثة أبعاد مترابطة هى :

١ ـــ مجال الحديث field of discourse •

٢ ـــ نوعية الحديث mode of discourse •

٣ ـــ مستوى الحديث tenor of discourse •

ويضع البعد الأول النص فى المقام الأول ، حيث إن لموضـــوع الحيث تأثيرا لا ينكر على الصفات النحوية والمعجمية للنص ؛ ومن ثم اذا تغير الموضوع فى نص طويل كانت له بالتأكيد نتائج لغوية • أما البعد الثانى فانه يختص ببيان الاختلافات اللغوية التى تنتج من الفرق بين اللغة المنطوقة والمكتوبة • ويختص البعد الثالث بالنتائج اللغوية التى تنتج عن العلاقات بين المتكلم والسامع أو الكاتب والقارىء فى موقف ما ، وتشير درجة التكلف بين المتكلم والسامع الى معيار معين يقع بين تكلف يصل الى الدرجة القصوى أو الى رفع التكلف بينهما كلية ، كما يبين الدور الاجتماعى للمتلقى أو للطرف الثانى فى الموقف الكلامى (١) •

---

(1) Bernd Spillner : Linguistik und Literaturwissenschaft, S. 58-59 (1974 Verlag, Stuttgart).

المدرســة الأمريكية

تعود البنائية الأمريكية فى علم اللغة الى مصدرين رئيسيين هما : نظرية دى سوسير اللغوية التى ظهرت فى بداية القرن العشرين ، وأفكار النحاة الشبان الذين ظهروا فى ألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر وأقاموا نظريتهم اللغوية على أسس علم الطبيعية ، وكانت اتجاها تاريخيا غير صالح لبعض اللغات المعاصرة ، وهى اللغات التى لم يكن لها بعد تاريخى أو تراث أدبى مكتوب كلغات الهنود فى أمريكا (١) ٠

إن اتصال اللغويين الأمريكيين بالنحاة الشبان أمر لا ينكره أحد ، فقد درس ويتنى W. D. Whitney فى ألمانيا خلال القرن التاسع عشر ، كما ولد بواس F. Boas وسابير E. Sapir فى ألمانيا ٠ أمـا بلومفيلد فكان تلميذا لبعض اللغويين الألمـان مثل ليسكين A. Leskien وبروجمان K. Brugmann عامى ١٩١٣ ، ١٩١٤ (٢) ٠

تأسس علم اللغة الوصفى فى أمريكا على يد بواس وسابير وورف B. L. Whorf ، وإن كان يرجع الفضل الى بلومفيلد فى أنه واضع الاطار الشامل للبنائية الأمريكية ، وكان بواس أول لغوى وصفى بجانب ما قام به من دراسات تاريخية وبحوث مقارنة ، ولمـا كان عالما لغويا وأنثروبولوجيا فى الوقت نفسه فقد اهتم بدراسة لغات الهنود الأمريكيين دون نظر أو اهتمام بالنحو اللاتينى التقليدى ٠ ويمكن القول بأن ما قام به دى ســوسير فى دراساته اللغوية الأوربية فعل مثله بواس فى بحوثه عن اللغات الهندية فى أمريكا التى لم تكن قد كتبت بعــد ؛ ومن ثم لم يكن من الممكن دراستها دراسة تاريخية ، وقد جاءت بحوث بواس فى

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 26.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 71.

كتابه المسمى : Handbook of the American Indian Language الذى طبع عام ١٩١١ (١) .

وتناول تلميذ بواس سابير فى كتابه Language (١٩٢١) وتلميذ سابير ورف منطقية اللغة لأنها تركيب من الوحدات اللغوية فى الجانب المعنوى ، ولما كان سابير وورف متساويين فى أنهما لغويان وعالمان أنثروبولوجيان فإنهما اهتما كثيرا بالجانب النفسى للغة ، وهو جانب المحتوى الذى ظهر بوضوح فى مدرسة فايسجربر L. Weisgerber التى ترجع بدورها الى نظرية هومبلدت Humboldt ، وترى هذه النظرية أن اللغة ليست شكلا ساكنا static بل إنها قوة مؤثرة energetic ، حيث إنها تضع محتوى الأفكار الممكنة فى كلمات وتركيبات . أما فايسجربر فيرى أن المحتويات توضع فى كلمات ، وبناء على هذه الفكرة فإن كل انسان يتحدد من خلال الوحدات اللغوية والامكانيات المتاحة التى يجدها الانسان عند تعلم لغته الأم .

واذا كان فايسجربر يمثل ما يسمى بالحتمية اللغوية der sprachliche Determinismus (= Determinism of Language بالانجليزية) فى إطار اللغات الهندأوربية فإن ورف يمثل الحتمية اللغوية فى مجال اللغات الهندية الأمريكية فى كتابه المسمى : Language, Thought and Reality الذى طبع فى نيويورك عام ١٩٥٦ (٢) .

إن الارتباط القوى بين علم اللغة والأنثروبولوجيا فى النصف الأول من القرن العشرين كان العلامة البارزة فى الدراسات اللغوية فى أمريكا ، وقد ارتبطت الدراسات المزدوجة فى الفرعين معا باللغويين بواس وسابير وهيجر H. Hoijer وهاس Haas ، ويشبه الارتباط بين

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 26.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .

هذين الفرعين فى أمريكا الارتباط بين دراسة السنسكريتية وعلم اللغة التاريخى الذى كان سائدا فى ألمانيا خـلال النصف الأول من القرن التاسع عشر (١) •

لقد كان اهتمام علماء اللغة الأمريكيين بلغات الهنـود الأمريكيين واضحا خـلال القرن التاسع عشـر ، وتوصل باول J. W. Powell عـام ١٨٩١ الى وضع شجرة النسب لهذه اللغات فى المناطق الأمريكية الواقعة شمال المكسيك والتى مازالت تستعمل حتى الآن مع قليل من التغيرات والتصحيحات (٢) •

واعترفت الأوساط العلمية فى أمريكا بهذه اللغات جزءا أساسيا فى خطة البحث ؛ ومن ثم أصبح علماء اللغـة يرحلون الى مناطق اللغات الهندية التى قدمت لهم المـادة العلمية لرسائلهم للحصول على درجة الدكتوراة ، كما تشير المجلات الأدبية بين عامى ١٩٢٠ — ١٩٥٠ الى مدى اعتماد اللغويين فى تحليلاتهم ودراساتهم على المـادة العلمية التى استقوها من لغات أمريكا الأصلية ، هذا على الرغم من أنها كانت غامضة وغير مكتوبة قبل حلول القرن العشرين •

ونعرض فى الصفحات التالية النظرية اللغوية عند أشـهر علماء اللغة الأمريكيين الذين كان لهم دور كبير فى تطـور الدراسات اللغوية فى العالم كله •

أولا : سـابير :

يمثل سابير أحد رواد علم اللغة الحديث فى أمريكا ، وكان كأستاذه

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 71.

(٢) المرجع السابق ص ٧١ .

بواس عالمـا أنثروبولوجيا بجانب اهتمامه باللغة ومشكلاتها ، وطبق نظرياته وآراءه العلمية اللغوية على لغات الهنود الحمر .

بدأت هذه الدراسات اللغوية باستخدام المنهج الأنثروبولوجى عند بواس ، حيث رأى أن بحث اللغة ينبغى أن يتجه الى الكلام La Parole لا الى اللغـة La Laugue مخالفا بذلك دى سوسير ، لأن كلام الفرد هو الشىء الذى يمكن رصده وبحثه من هذه السبيل » (١) .

أما سابير فيرى أن النظم اللغوية يمكن النظر اليها من ناحيتين : « من حيث درجة تركيب الكلمات ، ثم من حيث الارتباط الآلى الذى تتحد فيه عناصر الكلمات » (٢) . ولقد قرر أن الأشكال اللغوية ينبغى أن تدرس فى ذاتها ، أى باعتبارها أشكالا ، وليس على أساس من المعانى التى نتصورها ابتداء . والحق أنه لم يغفل المعنى فى كل خطوة من خطوات التحليل ، لأن الجملة عنده هى التعبير اللغوى الذى يعبر عن قضية ما ، ومن ثم فهو يربط الشكل اللغوى بالمعنى ، ثم يرى أن الشىء الهام إنما هو البحث عن العناصر الأساسية التى تكون الشكل اللغوى ، وقد رآها سابير ثلاثة عناصر :

١ ــ العنصر النحوى الأساسى .

٢ ــ الكلمـة .

٣ ــ الجملـة .

ويرى سابير أن المنهج العلمى ينبغى أن يتركز على دراسة التراكيب الشكلية للغة ما ، وهى تقتضى دراسـة الأنماط فى الصـوت والكلمـة

---

(١) د . عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ، بحث فى المنهج ص ٣٤ (١٩٧٧) .

(٢) د . محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٧٨ (دار المعارف ١٩٦٢) .

والجملة ، وهكذا فإن هم اللغة الأول هو التركيبات الشكلية ، لكن لا يعنى ذلك دراسة التراكيب اللغوية مستقلة عما تؤديه من وظيفة • ودراسة الشكل اللغوى عنده تقتضى ركنين ضرورين ، أولهما التصورات الأساسية التى تؤديها اللغة فى الاتصال بين الناس ، وثانيهما الطرق الشكلية التى ترتبط بها هذه التصورات ويسميها العمليات النحوية •••• إن دراسة الشكل اللغوى جعله يؤكد على أن المنهج العلمى يرفض دراسة اللغة فى ضوء تصورات سابقة ، أو على ضوء أنماط من لغات أخرى • إن الدراسة ينبغى أن تكون من واقع اللغة نفسها ، ومن ثم رفض التقسيم التقليدى لأقسام الكلام ، ورفض اعتبارها « عالميات لغوية » ورآها تصنيفات غير صحيحة وليست وحدات « وظيفية طبيعية » (١) •

ثانيا : بلومفيلد :

أشرنا الى أن بلومفيلد يعد واضع الإطار العام للبنائية اللغوية فى أمريكا ، وقد درس بلومفيلد فى بداية حياته العلمية فى مدينتى لاييزج Leipzig وجوتنجن Göttingen بالمانيا عامى ١٩١٣ ، ١٩١٤ ، وتأثرت نظرياته العلمية ومنهجه اللغوى كثيرا باتصاله المباشر بالنحاة الشبان •

وقد فتن بلومفيلد الصغير الى أقصى درجة شعار عدم شذوذ القوانين الصوتية وعدم ارتباطها بعوامل المعنى ، وظهرت امكانية وجود علم اللغة الذى يقوم على أساس علمى تجريبى ، كما تأثر فى نظريته السلوكية Behaviorism بعلم النفس السلوكى عند وايس A. P. Weiss وبخاصة فى كتاب وايس المسمى A theoretical basis of human behavior الذى طبع عام ١٩٢٩ (٢) •

---

(١) د . عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث (بحث فى المنهج) ص ٣٥ ، ص ٣٦ (١٩٧٧) •

(2) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 82.

وكانت السلوكيـــة مثالا واضحا لتيار الفلسفة الوضعية الجديدة Neopositivism على الرغم من أنها نشأت غير معتمدة اعتمادا مباشرا على الوضعية الأوربية فى حلقة فينا ، ولكن بعد أن هجرها علماؤها فيما بعد حدث اتصال بين كارناب Carnap واللغويين المتأثرين بالسلوكية ، والتى كانت قــد نشــأت فى أمريكا أثناء قيام النظرية اللغــوية عند بلومفيلد (١) .

أما الأسس التى تقوم عليها السلوكية فهى :

١ ــ الميكانيكية ــ الفيزيائية Mechanism - Physicalism

يذكر بلومفيلد أربعة أشياء تميز العلم عن غيره من الأعمال الأخرى غير العلمية ، فيقول إن العلم يتناول الأحداث التى يمكن أن يصل الملاحظ إليها فى زمانها ومكانها (وهذه هى السلوكية بالمعنى الضيق) ، أو الحوادث التى تكون موضوعة وفقا لزمان ومكان معين (وهذه هى الميكانيكية) أو يستخدم التقارير والأخبار الأولية ليؤدى ذلك الى عمليات محددة (وتسمى تلك الاجراءات بالعملية Operationalism) ، أو تعريفات يمكن استنتاجها بتحديد مجموعة من الحدود التى تحــدث فيزيائيا كل يوم (وهذه هى الفيزيائية) (٢) .

وتكون التقارير علمية اذا قامت على القواعد المحددة التى تعتمد على الأشــياء الملاحظــة ، وإلا كانت تقارير ميتافيزيقيــة ، ثم أضاف بلومفيلد الى ذلك نموذجا آخر من التقارير ، وهى التقارير التى تتحدث عن اللغة العلمية التى يتحدث فيها عن المعطيات التجريبية .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٢ ، وقد نقل هيشن كلام بلومفيلد هــذا من كتابه :
Linguistic Aspects of Science, p. 13 (10. Auflage, 1969).

٢ ــ نموذج S — R :

اذا نقل الانسـان الأسس الميكانيكية من السلوك الى العلم فإنه ينتج أن كل تقرير ينبغى أن يدرك فى مصطلحات من الإثارة Stimulus ورد الفعل Response ، ويوضح السلوك المحدد من خلال إثارة تتبع برد الفعل ، ويمكن أن تكون الإثارة تأثيرا خارجيا فيزيائيا على سلوك الكائن الحى ، واذا اعتمدت الإثارة على الحالة النفسية الداخلية أو السيكولوجية للكائن الحى فإنه لا يعتد بها فى مجال السلوكية ، وهـذا هو ما يسمى بالأساس الثالث .

٣ ــ ضد العقلية أو الذهنية Antimentalism :

إن كل المفاهيم التى تعتمد على الحالة الداخلية فى المخ ولا ترجع الى المعطيات الفيزيائية ، أى الى معلومات مادية فى المخ أو الى معارف الاثارة السابقة ، لا يعتد بها لأنها ميتافيزيقية . ومن هذه المفاهيم الوعى والإرادة والقصـد ، ويمكن القول باختصـار بأنها تشمل كل المفاهيم المعنوية ، فالانسان عند العقليين يتصرف هكذا لأنه يملك إرادته فى فعل شىء ما على حين أنها لا تساوى شيئا عند السلوكيين . إن مذهب العقليين الجدد إنما هو عودة الى مذهب روحية الطبيعة animism ، أى أن لكل شىء روحا من نوع ما ، واذا كان البدائى يعتقد أن سبب الرعـد هو أن الله يجعل السحب ترعد فإن العقلى الحديث أضاف للكائن الحى الذى يسـلك سلوكا معينا إرادة ، وهـذا معناه انسـان إلهى صغير يقف فى الجـانب الآخـر أو المقابل للقـانون المسبب لهـذه الظواهر الطبيعية (١) .

وفى إطار هذا التصرف السلوكى يسـرد بلومفيلد قصته الشهيرة

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 83.

التى تحكى أن جاك وجيل كانا يسيران فى طريق ما ، وكانت جيل جائعة ثم رأت تفاحة على الشجرة ، فأصدرت أصواتا بحنجرتها ولسانها وشفاهها . عندئذ قفز جاك من فوق السور وتسلق الشجرة ، وأخذ التفاحة وأحضرها الى جيل ثم وضعها فى يدها فأكلت جيل التفاحة (١) .

وكما يقول بلومفيلد فإن تتابع الأحداث فى هذه القصة يؤدى الى دراستها بطرق مختلفة ، لكننا سنميز بصفتنا مهتمين بدراسة اللغة بين فعل الكلام والأحداث الأخرى التى تسمى أحداثا عملية ، ويتكون الحدث بهذه الطريقة من ثلاثة أجزاء مرتبة كما يلى :

١ ــ أحداث عملية سابقة الكلام .

٢ ــ الكلام .

٣ ــ أحداث عملية تالية للكلام .

واذا فحصنا الأحداث العملية أولا (ونرمز لها بأحداث C , A) فإننا نجد أن الأحداث الأولى A تتصل بالمتكلم جيل ، فهى جائعة ، وهذا يعنى تقلص بعض العضلات مما ينتج عنه إفراز اللعاب فى معدتها ، وربما كانت جيل عطشى أيضا ، مما ينتج عنه جفاف لسانها وبلعومها ، هذا بالاضافة الى انعكاس الموجات الضوئية من التفاح الأحمر على عينيها مما كان له تأثير زيادة إحساسها بالجوع . كل هذه الأحداث تمثل إثارة لجيل ، ولو كانت جيل تسير وحيدة لأحضرت التفاحة بنفسها ، ولكن لما كان جاك بجانبها فقد حدثت استجابة منها وهى حديثها لجاك برغبتها فى التفاحة ، ويعد هذا الحديث مثيرا غير عملى ، فهو مثير كلامى ، ويطلق عليه مثير المتكلم speaker's stimulus .

أما الجزء الثانى من الأحداث غير الكلامية (C) التى تأتى بعد

---

(1) Bloomfield : Language, p. 22. (1976).

كلام جيل فإنها تتصل بالسامع جاك ، وتتكون من إحضاره التفاحة وإعطائها لجيل ، ويسمى بلومفيلد هذه الأحداث العملية التى تتبع الكلام وتتصل بالسامع استجابة السامع hearer's response ، كما أن هذه الأحداث التالية للكلام تتصل بجيل أيضا ، حيث إنها حصلت على التفاحة وأكلتها (١) •

ويمكن تمثيل هذه الأحداث كلها مثيرات وردود الأفعال كما يلى :

$$S \rightarrow r \;\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots\ldots\; s \rightarrow R$$

ويمثل الرمز الأول وهو (S) الأولى الإثارة العملية التى تسبق الكلام ، وقد أدت الى رد فعل كلامى عند جيل ، ويرمز له بالرمز (r) الأولى ؛ ومن ثم فإن الخط المتقطع يمثل عملية الكلام نفسها التى تؤدى الى استجابة عند السامع ويرمز لها بالرمز (s) الثانية والتى تقوم بدور المثير الكلامى للسامع وهو جاك الذى يؤدى بدوره الى استجابة عملية ويرمز لها بالرمز (R) الثانية •

ويبدو بوضوح فى هذا النموذج المعطى أن الرمزين (S , R) يمثلان الأحداث العملية السابقة للكلام والتالية له فى القضية ، أما الأحداث الكلامية نفسها فيرمز لها بالرمزين : (s .... r) •

هكذا يتضح أن العمل المعقد لمجموعة معينة من أفراد المجتمع الحى يصبح ممكنا بسبب وجود اللغة التى تقوم بالاتصال بين الأفراد ، ولا يحتاج الأمر بالطبع الى أن يتبع الإثارة اللغوية رد فعل عملى ، بل يحدث أحيانا أن يكون رد الفعل لغويا أيضا ، وبذا تقوم اللغة بوظيفة الاتصال الاجتماعى عندما تكون ردود الأفعال لغوية ، ومن ثم لا تكون وظيفتها فيزيائية حيوية فقط ؛ بل اجتماعية حيوية أيضا •

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ •

إن بلومفيلد يؤكد من خلال هـذا النموذج المعطى على أن علم اللغة جزء لا يتجزء من علم النفس ، وليس علما مستقلا على العكس من ميول علماء اللغة الأوربيين ؛ ومن ثم يحدد علم النفس عند بلومفيلد الإطار الذى تحتل فيه ظاهرة اللغة مكانتها المتميزة ، وكان هذا الإطار عند النحاة الشبان التغير المنتظم للأصوات من خلال التجرد من العوامل النفسية المتسببة ، أما عند بلومفيلد فإن هذا الإطار يندرج فى إطار أعم وأشمل ألا وهـو علم النفس •

أما موضوع أو مجال علم اللغة فهو المنطوق الكلامى أى تحليل الفعل الكلامى بصفته أحـداثا فيزيائية وأفضـلها عند بلومفيلد الفوناتيك أو الحوادث الصوتية اللغوية التى تختلف عن الحوادث الصوتية الأخرى فى أنها تنقل ما يسميه الانسان بالمعنى ، وإن دراسة الصلة بين المعنى والصوت هـو ما يسمى علم اللغة •

وينبغى أن يعرف اللغوى من الجانب العملى ما يؤثر على المتكلم المعين كمثير وما يشكل عاداته ، وذلك لإلحاق تتابع الحوادث الصوتية بمعناها ، وهذا يفترض عالمـا عالميا ، واذا لم يوجـد وضوح فى الوقت الراهن فإن وصف المعنى عند بلومفيلد يكون غير ممكن ، فاللغوى يعمل اذن مع المتشابهات والمخالفات ، وإن كان ذلك يدرك فى البنائية الأوربية من واقع خصائص اللغة نفسها فانه يدرك عند بلومفيلد من واقع اعتبار عملى (1) •

٤ ـــ بلومفيلد وعلم المعنى :

تأثر بلومفيلد الى حـد كبير بالمنهج التجريبى الذى كان قد تحدد ـــ كما رأينا ـــ أثناء القرن التاسع عشر فى أمريكا وبخاصة عند أصحاب النظرية السلوكية ، وقد طالب السلوكيون فى أمريكا بأن كل العلـوم

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik. S. 86 , 87.

المتصلة بالانسان كعلم النفس وعلم الانسان Anthropology وعلم اللغة ينبغى أن تخضع لمناهج متساوية ، وقد نجحت علوم الطبيعة — بالاضافة الى ذلك — خلال القرن التاسع عشر فى القول بأن المفاهيم الذاتيـة كالأفكار والرغبات والأحاسيس تتحدد فى إطار من المعنى الفسيولوجى أو الاجتماعى ، ومن ثم ينبغى أن تظهر المعانى بالاعتماد على الأحداث الحقيقية والظروف النفسية والوقائع الجسمية (١) •

ويؤكد بلومفيلد على أهمية دراسة المعنى ، حيث يشـير الى أن دراسـة اللغة دون اهتمام بالمعانى ليست سـوى دراسـة تجريدية خيالية ، أما من الناحية العملية فإن أصوات اللغة ما هى إلا رموز لهذه المعانى • ويحدد بلومفيلد لذلك معنى الشكل اللغوى على أنه السياق الذى ينطق فيه الحدث اللغوى والاستجابة التى يستدعيها هذا الحدث فى نفس السامع ، إنه يتضمن كل هذه الأحداث السابقة والتالية لعملية النطق ، والمقصود بهذه الأحـداث المثيرات التى دفعت المتكلم للنطق وردود الأفعال التى يقوم بها السـامع (٢) • ويرى بعض اللغويين أن تحديد المعنى بهذا الشكل عند بلومفيلد أكثر إتقانا من تحـديد المعنى كتصور أو كقيمة شكلية كما جاء عند البنائيين الأوربيين (٣) •

ويعترف بلومفيلد أخيرا بأن دراسة المعنى تخرج عن نطاق التصنيفات العلمية الدقيقة ، ومن ثم يرى أنها أضعف نقاط البحث فى الدراسات اللغوية ، وستبقى هكذا حتى تتقدم المعرفة الانسانية أكثر من حالتها الراهنـة تلك (٤) •

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 73.

(2) Bloomfield : Langnage, p. 139.

(3) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 86.

(4) Bloomfield : Language, pp. 139 , 140.

هكذا يتضح أن تركيز بلومفيلد كان على الحدث اللغوى الشكلى أو ما هــو موجود بالفعل وهو الجانب التعبيرى الخالص ، وذلك بهدف تحليله تحليلا دقيقا ، ووصفه وصفا لا يخالطه أى شك أو غموض مما قد يحدث فى تحليل المعنى اللغوى ، ولذا فقد أقصى أتباعه المعنى تماما من البحث اللغــوى •

ولهذا السبب احتلت تحليلات بلومفيلد الصوتية والصرفية والنحوية مكانة أهم من نظيرتها الدلالية فى أعماله اللغوية ، وكانت الدراســات الصوتية هى المجال الذى تطور بخطى سريعة خــلال عصر بلومفيلد والفترة التى كان روادهــا تلامذته وتابعوه من أمثال هاريس وفريس والتى أطلق عليها مرحلة التوزيعية Distributionalism •

٥ ــ التوزيعية :

نشــأ علم اللغة التوزيعى أو ما يمكن أن نسميه بالنظرية اللغوية التوزيعية فى الولايات المتحدة خلال الثلاثينات ، وكانت نقطة انطلاق هــذه النظرية كتاب بلومفيلد « اللغة » ، واتضحت معالمها الرئيسية عنــد هاريس Harris فى كتابه « مناهج فى علم اللغة البنائى Methods in Structural Linguistics » عــام ١٩٥١ ، كما أن النظــرية ذاعت وانتشرت من خلال كتب هوكيت Hockett عــام ١٩٥٨ وجليســون Gleason عام ١٩٥٥ •

ظهر مفهــوم التوزيعية لأول مرة فى الفنولوجيا ، ثم انتقل إلى المجالات الأخرى فى الدراســات اللغوية ، وقــد استعمل لأول مرة كمصطلح تكنيكى عند سوادش M. Swadesh عــام ١٩٣٩ فى مقاله المسمى « الأساس الفونيمى the phonemic principle » ، وقد تحــدد

مفهوم المصطلح كما يلى : إن توزيع عنصر ما إنما هو مجموع كل البيئات التى يقع فيها ؛ أى مجموع كل المواضع المختلفة أو وقوع عنصر ما بالنظر الى اتصاله بوقوع العناصر الأخرى (١) •

وفى مجال اللغة فإن العناصر اللغوية تتخذ مواضع محددة فى السلسلة اللغوية التى توصف من خلال الظروف أو السياقات التى تقع فيها ؛ فكل عنصر لغوى له سياقات محددة يأتى فيها وسياقات أخرى لا يقع فيها ، ويسمى مجموع هذه السياقات توزيع هذا العنصر اللغوى ، وبهذا لا تصنف الوحدات اللغوية على أساس من معناها ، لكن على ما يحيط بها من وحدات أخرى ثم على أساس من سلسلة الكلام •

التحليل التوزيعى :

إن نقطة البداية فى التحليل التوزيعى هى جسم المادة اللغوية الذى يكون قطاعا وصفيا منها ، وتوصف الوحدات اللغوية فى المستوى الصوتى على أساس من الأصوات التى تظهر مجاورة لها ، مثال ذلك توزيع السواكن p , t , k والنفسية منها ph , th , kh فى الانجليزية (٢) •

وفى الجدول التالى توزيع هذه السواكن فى اللغة الانجليزية :

---

(1) Herwig Krenn und Klaus Müller : Distributionalismus, S. 178. im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠ ، وقد نقل الجدول من كتاب Stati : Metode noi în lingvistica in : A Graur ed., Introducere în lingvistica, Bukarest, pp. 320-333.

البيئات / الأصوات	فى البداية بعدها حركة	فى البداية بعدها ساكن	فى الوسط بعدها حركة	فى الوسط بعدها ساكن	فى النهاية
p		+	+	+	+
t		+	+	+	+
k		+	+	+	+
ph	+				
th	+				
kh	+				

ويتضح من الجدول أن p , ph , t , th , k , kh تأتى فى توزيع متكامل ، ويمكن التمثيل لهذه الظاهرة بأصوات النون فى اللغة العربية فى مثل : إن قال (N)، إن كان (n)، إن شـاء (P)، إن باع (m) ... الخ ، حيث يأتى كل صوت من أصوات النون فى موقع أو سياق لا يقع فيه صوت آخر من أصواتها ، فالأولى وقعت النون قبل القاف ، والثانية قبل الكاف أو الجيم القاهرية ، والثالثة قبل الشين ، والرابعة قبل الباء . فهى تمثل فى العربية الفصحى توزيعا متكاملا .

هكـذا يقال إن الأصـوات تأتى فى توزيع تكميلى complementary distribution اذا لم تقع فى سياق واحد ، فاذا جاء أحدها فى موقع ما لا يأتى الثانى فى الموقع نفسه .

التوزيع التقابلى contrastive distribution

يسمى التوزيع تقابليا اذا وقع أحد الصوتين فى نفس السياق الذى يقع فيه الصوت الآخر كلية أو جزئيا . ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من التوزيع التقابلى :

(أ) التوزيع المتطابق identical distribution .

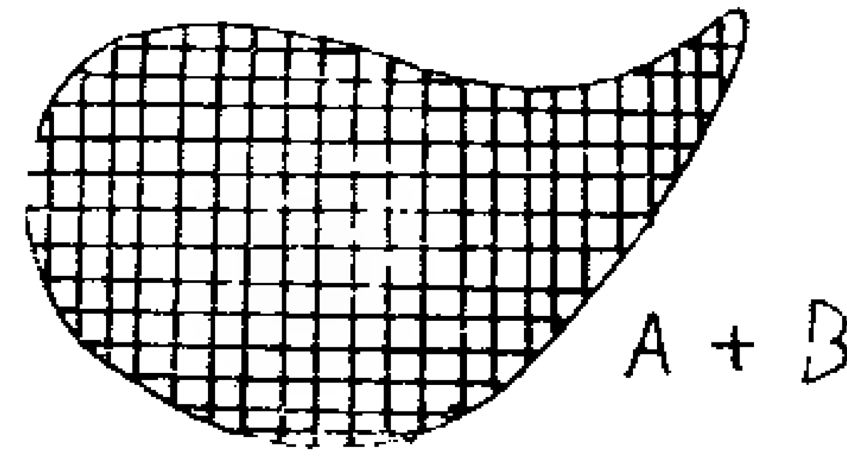
(ب) التوزيع المتشابه equipollent distribution •

(جـ) التوزيع الناقص defective distribution •

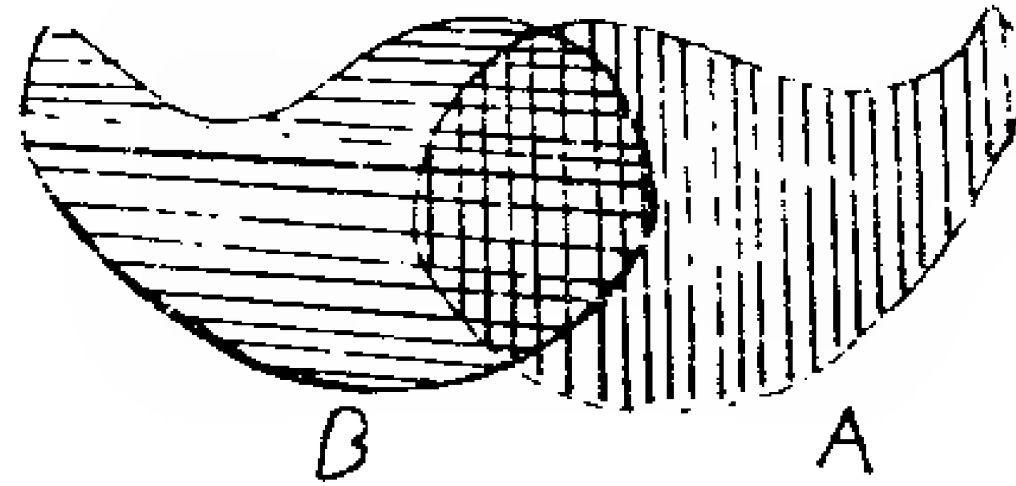
ويحدث التوزيع التقابلى كما سبق القول اذا وقع الصوتان فى نفس السياق ، ولكن اذا تطابق مجموع سياق الصوت الأول مع مجموع سياق الصـــوت الثانى كان التوزيع متطابقا ، ويمكن توضيح ذلك من خلال الشكل التالى :



ثم تكون النتيجة واضحة من خلال الشكل التالى :



أما التوزيع المتشابه فهو الذى يحدث اذا اشترك صوتان فى سياقات محددة ، ثم انفرد كل واحد منهما بسياق متميز عن الآخر •



أما التوزيع الناقص فيحدث اذا كان مجموع سياقات أحد الصوتين جزءا من مجموع سياقات الصوت الثانى أو بالعكس ، ويمكن توضيح ذلك من خلال الشكل التالى :



ويمكن التمثيل للتوزيع الناقص من اللغة الألمانية حيث نجد أن لوحدتين / t / , / d / تشتركان معا فى سياقات محددة مثل Dorf « قرية » ، Torf « لبن نباتى » ، baden « يستحمون » ، baten « رجوا » ، أما فى نهاية الكلمة فى نحو Rad « عجلة » ، Rat « نصيحة » فإن الدال تصبح تاء حيث تنطق الدال فى نهاية الكلمة تاء . هكذا يمكن القول بأن سياقات / t / تشتمل على سياقات / d / فى اللغة الألمانية (١) .

إن الأصوات التى تأتى فى توزيع تكميلى إنما هى أعضاء لوحدة صوتية واحدة (فونيم واحد) ، أما التى تأتى فى توزيع تقابلى بأنواعه الثلاثة التى ذكرناها فهى وحدات صوتية مستقلة ، وذلك مثل / t ، d /

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٣ — ص ١٨٥ وانظر أيضا :
Albert Barrera-Vidal und Wolfgang Kühlwein : Angewandte Linguistik für den fremdsprachlichen Unterricht, S. 16.

فى الألمانية ، وتسمى الأصوات التى تأتى أعضاء لنفس الفونيم أصواتا أو ألوفونات Allophones ، وتتساوى علاقة الوحدة الصوتية (الفونيم) بالألوفون فى التوزيعية الأمريكية مع علاقة الفونيم بالتنوع Variant فى البنائية الأوربية ، ولكن يكمن الفرق بينهما فى أن الفونيم فى النظرية التوزيعية يتحدد دون أى اعتماد على المعنى بل على توزيعاته فى السياقات المتعددة ، على حين تكون وظيفته فى البنائية الأوربية تمييز المعنى فى المقام الأول مثل : لام ، قام ، نام فى العربية الفصحى .

ويطبق التوزيعيون المنهج نفســه فى المستويات الأعلى كالصــرف والنحو ، ومن ثم حدد التوزيعيون الوحدات الصرفية بناء على الأسس التوزيعية دون القول بأنها أصغر الوحدات حاملة المعنى ، كما حددتها كل المدارس اللغوية الأوربية ، ولذا ليس من الغريب أن يعرف هاريس العناصر الصرفية أو الوحدات الصرفية بأنها تتابع من الفونيمات التى تظهر توزيعا مميزا محددا (١) .

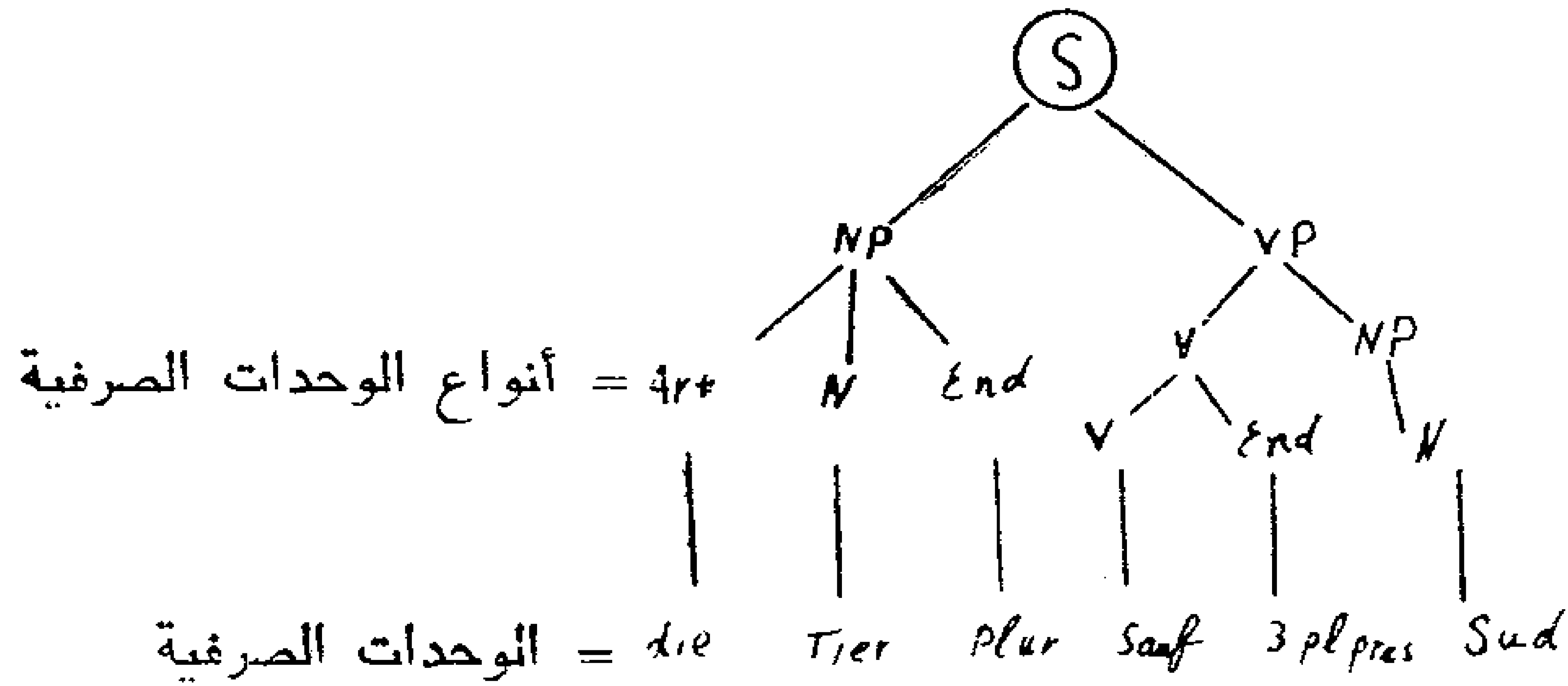
أما بلومفيلد فإنه يرى أن تعريف الوحدة الصرفية ينبغى أن يتضمن الجانبين : الجانب الفوناتيكى والجانب الدلالى ، ففوناتيكيا يمكن وصفه بأنه مركب من فونيم أو أكثر ، أما دلاليا فإنه لا يمكن تحليله فى إطار معرفتنا الدلالية واللغوية ، فمثلا نرى أن وحــدة صرفية مثل pin ينتج مشابهة فوناتيكية لوحدات صرفية أخرى مثل pig أو مثل pen , ten وعلى أسس هــذه المشــابهة يمكن أن يحــلل المورفيم ويوصــف فى حدود ثلاثة فونيمات ، ولكن اذا لم ترتبط هذه المشابهات بمثيلاتها فى المعنى فإنه لا يمكننا أن ننسب أى معنى للمورفيمات ، ومن ثم فإن معنى الوحدة الصرفية إنما هو مجمــوع الخصائص الدلالية Sememes ، ويفترض اللغوى أن مجموع هذه الخواص تكون وحدة المعنى الثابتة

---

(1) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 92.

المحددة ، والتى تختلف عن كل المعانى الأخرى التى تشير الى مجموعات أخرى فى اللغة لكن لا يمكن أن ينشغل اللغوى بها (١) •

ويجمع الباحث بعد تصنيف الوحدات الصرفية الوحدات التى يتشابه بعضها مع البعض الآخر فى صفات تركيبية معينة ، فيمكننا مثلا فى اللغة العربية تجميع كل الأسماء التى يمكنها أن تأتى فاعلا سواء أكانت هذه الأسماء أعلاما مثل على وسعاد أم كانت أسماء متصلة بالألف واللام مثل الولد والبنت أم كانت خالية من أداة التعريف مثل ولد وبنت طالما أن كل هذه الوحدات الصرفية يمكنها أن تقع فاعلا كما فى نحو : نجح على أو الولد أو ولد ، أو نجحت سعاد أو البنت أو بنت ، ثم يمكن أن يستمر هـذا البناء المتدرج حتى يصل الى أعلى وحدة وهى الجملة ، ويمكن تمثيل هذا التدرج فى الشكل التالى الـذى أورده هيشن من اللغـة الألمـانية (٢) •



الأقسام الصرفيه — di: Ti:re Zauf en zu:D

الوحدات الفونيمية — di : ti : re zaufen zu : t

الأقسام الصوتية = di : thi : R , zaufen zu : t

التعبير = Die Tiere Saufen Sud « الحيوانات تشرب المغلى »

(1) Bloomfield : Language. pp. 161 - 162.

(2) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 95.

ويبدو من سير هذا التحليل أنه يتدرج من القاع الى القمة ، وقد تغير هــذا التحليل فى الدراسات البنائية الأمريكية التى جاءت بعد ذلك .

أما دلالة الرموز التى جاءت فى التحليل فيمكن الاشارة الى ما يقابلها فى العربية والألمانية بما يلى :

S = جملــة (Satz) NP = تركيب اسمى (Nominalphrase) ، VP = تركيب فعلى (Verbalphrase) ، Art = أداة التعريف (Artikel) ، End = نهاية ، V = فعل (Verb) ، N = اســم (Nomen) .

الفصل السادس

النظرية التجميمية ونظرية النحو الطبقى

النظرية التجميمية

قامت نظرية التجميمك Tagmemics رد فعل للبنائية الشكلية التى ازدهرت فى عصر بلومفيلد وتابعيه فى أمريكا ، على الرغم من وجـــود نقاط اتفاق كثيرة بين النظريتين ، بل يمكن القول بأن الوصف التجميمى يضرب بجذوره الى تراث بلومفيلد حتى لقد سمى بالوصفية البلومفيلديه الجديدة .

أسس نظرية التجميميك العالم اللغوى الأمريكى بايك Pike تلميذ سابير فى الأربعينات والخمسينات . وقد عرضها بالتفصيل فى إطار نظريته عن السلوك الثقافى الاجتماعى للانسان فى كتابه :

«Language in Relation to a Unified Theory of the Structure of Human Behavior».

ويعد الكتاب النموذج الرئيسى فى النظرية التجميمية . وقد طبعت أجزاؤه الثلاثة بين عامى ١٩٥٤ . ١٩٦٠ (١) .

يحتل علم التجميمك مكانا وسطا بين النظرية البنائية وعلم النحو التحويلى . وإن كان أقرب الى البنائية منه الى علم النحو التحويلى .

من المعروف أن البنائية الكلاسيكية وبخاصة فى أمريكا تهدف الى إبعاد المعنى اللغوى عن التصنيفات الشكلية أو فى توزيع الوحـــدات اللغوية ، أما علماء التجميمك فقد رأوا أن السلوك اللغوى ينبغى ألا ينحصر فهمه فى إطار اللغة فقط ، بل لابد من نظرية يمكنها وصف التشعش المتبادل بين السلوك اللغوى وغيره من أنواع السلوك الأخرى غير اللغويه دون انفصال بين النوعين . فلو أخذنا موقفا من الحياة كموقف الترحيب

(1) D. Gibbon : Tagmemik, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft. S. 276.

أو التحية عند اللقاء مثلا فإننا نجده يتضمن عناصر لغوية وهى الأصوات المنطوقة حينئذ من كلمات وجمل وعناصر أخرى غير لغوية ؛ فاللغوية مثل : أهلا — صباح الخير — السلام عليكم ... الخ . أما غير اللغوية فنحو : التعانق — التقبيل — المصافحة بالأيدى — الانحناء بالجسم ... الخ . ويتضمن هذا الموقف مجموعة من الفراغات التى تملأ بالنظر الى تتابع الأحداث فى السلوك بعناصر لغوية وغير لغوية (١) .

إن فى مثالنا هذا ؛ وفى الأمثلة المشابهة الأخرى . ترتبط عنصر الجانبين (اللغوية وغير اللغوية) بعضها بالبعض الآخر حسب درجة الشكلية أو الكلفة بين الشخصين . فمثلا يمكن أن ترتبط أهلا أو صباح الخير بالعناق ؛ ويمكن أن تكون رسمية شكلية بحتة لا تصاحب بأفعال غير لغوية . كما يرتبط نوع الحدث اللغوى من جهة أخرى بالعلاقة بين أصحاب الموقف . فأهلا أو صباح الفل مثلا لا يقولها مرءوس لرئيسه عادة فى سياق ما . ويعد أى انحراف عن هذا السلوك أو المعيار الطبيعى خروجا عن المقياس المألوف وله بالتالى قيمة إحصائية خاصة .

هكذا يراعى عند وجود حدث سلوكى ثلاثة جوانب متصلة :

١ — العناصر اللغوية وغير اللغوية المناسبة للموقف أو لهذا الحدث السلوكى مثل تعبيرات التحية والأفعال غير اللغوية المناسبة لها . ومن ثم تبعد عبارات مثل شكرا أو مع السلامة أو الأفعال غير اللغوية كالصفع أو اللكم مثلا .

٢ — أماكن الفراغات التى تناسب الموقف فى إطار النموذج السلوكى .

٣ — الصلة بين هذه الفراغات ونوع الأفعال السلوكية لغوية وغير لغوية (٢) .

---

(1) Albert Barrera - Vidal und Wolfgang Kühlwein : Angewandte Linguistik für den fremdsprachlichen Unterricht, eine Einführung, S. 26

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ .

وليس موقف التحية الذى أشرنا اليه إلا نموذجا من نماذج السلوك الانسانى التى يحدث فيها تتابع منظم من صياغة لغوية وعناصر غـير لغوية ، وهناك بالطبع نماذج أخرى كالفطور وسط العائلة أو مباراة فى كرة القدم ، وتتميز هذه المواقف بعضها عن البعض الآخر فى مجموع الأنشطة التى تشتمل عليها •

انشغل علم الانسان أو الأنثروبولوجيا بدرجة كبيرة بموضوعات خاصة بعلم اللغة ، وقـد عمـل جيـل كامل من علماء اللغـة وعلماء الأنثروبولوجيا الامريكيين فى مجال اللغات والثقافات الخاصـة بهنود أمريكا • وكان هدفهم دراسة اللغة وعلاقتها بالسلوك الانسانى ،وقد أثمرت تلك الدراسات فى الوصول الى نظريه تهدف الى ملاحظة اللغة وتحليلها فى إطار لسـلوك الانسـانى . وكانت هـذه النظرية « علم التجميك » . الذى طبق على مجموعة كبيرة من لغات غير معروفة فى أمريكا الجنوبية والوسطى . كذلك طبق على لغة أو اثنتين فى أوربا . كما أن النظرية نشرت فى عدد كبير من كتب التعليم وفى كثير من المقالات المتعددة •

المنهج التجميمى فى التحليل اللغوى :

يتكون البنـاء أو التركيب فى كل مستوى من مستويات الوصف البنـائى : الفنولوجيا ، القواعـد ، القاموس من العناصر التجميمية Tagmemes أو عناصر التركيب النحويه Syntagmatic Structurelementes . ففى تركيب القواعـد مثلا يتكـون التركيب من المستويات التالية : الكلمـة Word ، العبارة الاسمية Phrase . العبارة الفعلية Clause الجملـه Sentense حتى أكبر التركيبات الممكنه كالفقرة أو البحث مثلا •

ويتضمن كل مستوى من مستويات التحليل اللغوى مجموعة من مكونات Syntagmes مع تنوعاتها Allosyntagmes المختلفة . ثم يحلل كل مكون من هذه المكونات الى مجموعة متشابكة من التجميمات •

وتشتمل الوحـدة التجميعية على ثلاثة جوانب متعددة ، فلهـا توزيع محدد بناء على وظيفتها فى إطار التركيب ، وتتحقق بأشكال لغوية متدرجة من خلال نوع التوزيع المعين (على مستوى الجملة مثلا) ، كما أنها تتحدد بنوع من الصفات الخاصة بهذه الأشكال (١) .

وتناسب هذه الجوانب الثلاثة الحالات الثلاث لنظرية السـلوك و للغة عند بايك ، فالتجميم يتمثل فى تصوير التركيب رمزيا فى صورة شكل تجميمى tagmemical form وفى الوقت نفسه كموقع وظيفى (نحوى) functional slot . وكنوع جدولى يملأ هذا الموقع filler class (٢) .

ويمكن التمثيل لذلك من لإنجليزية هكذا :

S : N Pn P : Vt O : N/Pn

ويتكون هذا الشكل من ثلاثة تجميمات يمكن تحليلها كما يلى :

يشير أول الرموز من اليسار فى الشكل S : N Pn الى الوظيفة النحوية دائما . وهى فى هذا الموقـع وظيفة الفاعل (Subject) . أما الرمز الثانى والذى يقع على يمين النقطتين فانه يمثل الامكانيات المتاحة لتحقيق التجميم فى هذا الموقع . وهذا إما أن يكون اسما (N) «Noun» او ضميرا «Pronoun» (Pn) . ويشير الرمز الأول من اليسار فى الشكل الثانى P : Vt الى موقع الفعل او الخبر «Predicate» الذى يتحقق من خلال فعل متعـد «transitive» . أما فى الشكل الثالث O : N Pn فان الرمز الأول من اليسار يشير الى موضع المفعول به «Object» الذى يمكن

---

(1) D Gibbon : Tagmemik, S. 277, im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

وانظر أيضا :

Robins : Ideen und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 93

(2) D. Gibbon : Tagmemik, S. 277, im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

أن يتحقق كالفاعل من حيث الشكل ، أى إما أن يكون اسما أو ضميرا ، ولكن يمكن التمييز بينهما من خلال موقعية الكلمات فى الجملة أو بالإعراب فى اللغات المعربة (١) •

تقوم النظرية التجميمية ــ كما نرى ــ على الصلة بين الموقع أو الفراغ slot وما يملأ هذا الفراغ filler . ويشكل الفراغ وما يملؤه من أشكال لغوية وحدة تركيبية يمثل التجميم مكوناتها • وقد توصل بايك من خلال نظريته هذه الى نظرية أكبر وأشمل ألا وهى النظريه السلوكية التى حاول فيها أن يضع المحتويات أو الأفكار فى عناصر لغوية وظيفية emic وأخرى كلامية خالية من المعنى الوظيفى وتسمى عناصر مادية etic •

ويأتى التحليل اللغوى عند بايك ــ كما سبق القول ــ فى ثلاثه مستويات متدرجة هى : الفنولوجيا ــ النحو أو القواعد ــ القاموس . ويمثل التجميم فى هذا التحليل وحدة النظام أو الوحدة النظامية . ولتوضيح ذلك ينبغى أن نشير أولا الى بعض المصطلحات التى اكتسبت عند بايك مفهوما جديدا •

أولا : etic . emic

من المعروف أن المصطلح الأول يطلق فى الدراسات اللغوية الحديثة صفة على العناصر اللغوية غير الهامة . فهو ينتمى الى مصطلح الفوناتيك phonetics الذى يدل على بحث الأصوات ماديا دون اهتمام كبير بالوظيفة التى تؤديها الأصوات فى نظام اللغه . أما المصطلح الثانى فإنه يشير ــ على العكس من مفهوم المصطلح الأول ــ الى وصف العناصر اللغويه ومدى الوظيفة التى تؤديها فى نظام اللغة المعينة . فهو من

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

الفنولوجيا أو الدراسة الفونيمية phonemics • إنهما يخدمان الكلام واللغة بالمعنى الذى ورد عن دى سوسير (١) • أما بايك فانه يؤكد على وصف السلوك اللغوى عند الانسان من وجهتى نظر مختلفة ، فالأولى تدرس السلوك على أنه خارج النظام اللغوى المعين ، فهى لا تتعدى أن تكون بداية ضرورية للنظام المقصود بالبحث ، وهذه هى وجهة النظر التى سماها etic ، أما الثانية emic فانها تنتج من دراسة السلوك فى إطـار النظـام (٢) •

ثانيا : Tagma , Allotagma , Tagmeme

إن التجما tagma فى النظرية التجميمية إنما هو الوحدة خارج النظام ، فهو وحدة كلامية etic • وتتشـبه العـلاقة بين tagma , allotagma , tagmem العلاقـة بـين : morphe , allomorphe , morpheme ، فاذا كان الأول يدل على وحدة كلامية أو مادية فان الثانى يدل على تحقيق للتجميم فى موقع معين (٣) •

أما التجميم tagmeme فقد اختلف اللغويون فى تحديد مفهومه ، فيرى بلومفيلد أنه أصغر وحدة حاملة للمعنى فى الشكل النحوى ، واذا كانت معـانى المورفيم تسـمى الصـفات الدلالية sememes فان التجميمات هى :

«The smallest meaningful units of grammatical form may be spoken of es tagmemes and their meanings as episememes .... A tagmeme may consist of more than one taxeme».

---

(1) Carl Heupel : Taschenwörterbuch der Linguistik «emik , etik».

(2) D. Gibbon : Tagmemik, S. 282, im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(3) Lewandowski : Liuguistisches Wörterbuch «Tagma, Tagmem».

والتكسيم عند بلومفيلد أصغر صورة فى التنظيم : القواعد أو النحـــو :

«A simple feature of grammatical arrangement is a grammatical feature or taxeme. A taxeme is in grammar unit of form.(1)».

واذا كان التكسيم عند بلومفيلد أصغر صورة فى التركيب النحوى فان التجميم عنده قد يشتمل على أكثر من تكسيم .

ويرى زيرر Zierer أن التجميم إنما هو الشكل الخارجى للجراميم Grammem الذى يتكون من المحتوى Epism والشكل وهو التجميم Tagmeme . وهكذا فان الجراميم عند زيرر هو أصغر وحدة لغوية فى المستوى النحــوى .

أما بايك فانه يرى أن التجميم وحدة مركبة من وظيفة وشكل ، انه ارتباط الوظيفة بالشكل فى الجملة ، إنه صلة المواقع بالعناصر التى يمكن أن تحتل هذه المواقع :

«The correlation of a grammatical function, or slot, with the class mutually substitutable items that fill that slot».

ويمكن أن تكون التجميمات حسب التركيب إجبرية أو اختيارية ، جوهرية nuclear (من الجوهر) أو خارجية peripher ، يأتى فى موقعية ثابتة أو متغيرة ، إن التجميم كوحدة فى النظام اللغوى أو كوحدة لغوية emic يمكن أن يتحقق من خلال allotagmes . وتشـــكل التجميمات المركبات النحوية syntagmemes

إن هدف التحليل التجميمى إنما هو اظهار حقائق التركيب النحوى فى اللغات غير المعروفة ، فهو يصف بدقة اللغة المعينة ليظهر فى أبســط

---

(1) Lewandowski : Linguistisches Wörterbuch «Tagmem».

طريقة تركيب تلك اللغة ، إنه نظام لا يأخذ بالانفصال بين المستويات التركيبية المختلفة : الفنولوجيا — القواعد — القاموس (١) .

اعتمد التجميميون على الوصف السنكرونى مثلهم مثل كل اللغويين البنائيين فى تلك الفترة ، وأسسوا تحليلهم الفنولوجى والنحوى والقاموسى على هذا الوصف متدرجين من المستوى الأول الى المستوى الأخير فى إطار التدرج الذى ورد عنهم فى نظريتهم التجميمية ، وإن كان نجاحهم الأكبر تركز فى مجال النحو حيث لم يحققوا نجاحا مشابها فى الفنولوجيا أو فى الدلالة (٢) .

يكمن الفرق الكبير بين النظرية التجميمية والاتجاه البنائى عند بلومفيلد وأتباعه فى اهتمام التجميميين بالوظيفة وارتباطها بالشكل ، لذا جاءت طريقة الترقيم عندهم مزدوجة الرموز (مثلا : S : N P · V ، O : N ... الخ) على العكس من تحليل بلومفيلد وأتباعه الذين اهتموا كثيرا بالشكل على حساب الوظيفة .

وعلى الرغم من أن النماذج التحليلة عندهم تناولت مجموعات كاملة من جمل اللغات الطبيعية وتحقيقاتها من تجميمات معينة إلا أنه بقيت مجموعات من المسائل أو الموضوعات اللغوية التى لم تفسر حتى الآن . هذا مع القول بأن نظرية النحو التحويلى قد استفادت من النماذج التحليلية التى اتبعتها النظرية التجميمية فى التحليل النحوى ، فالشكل التجميمى التالى :

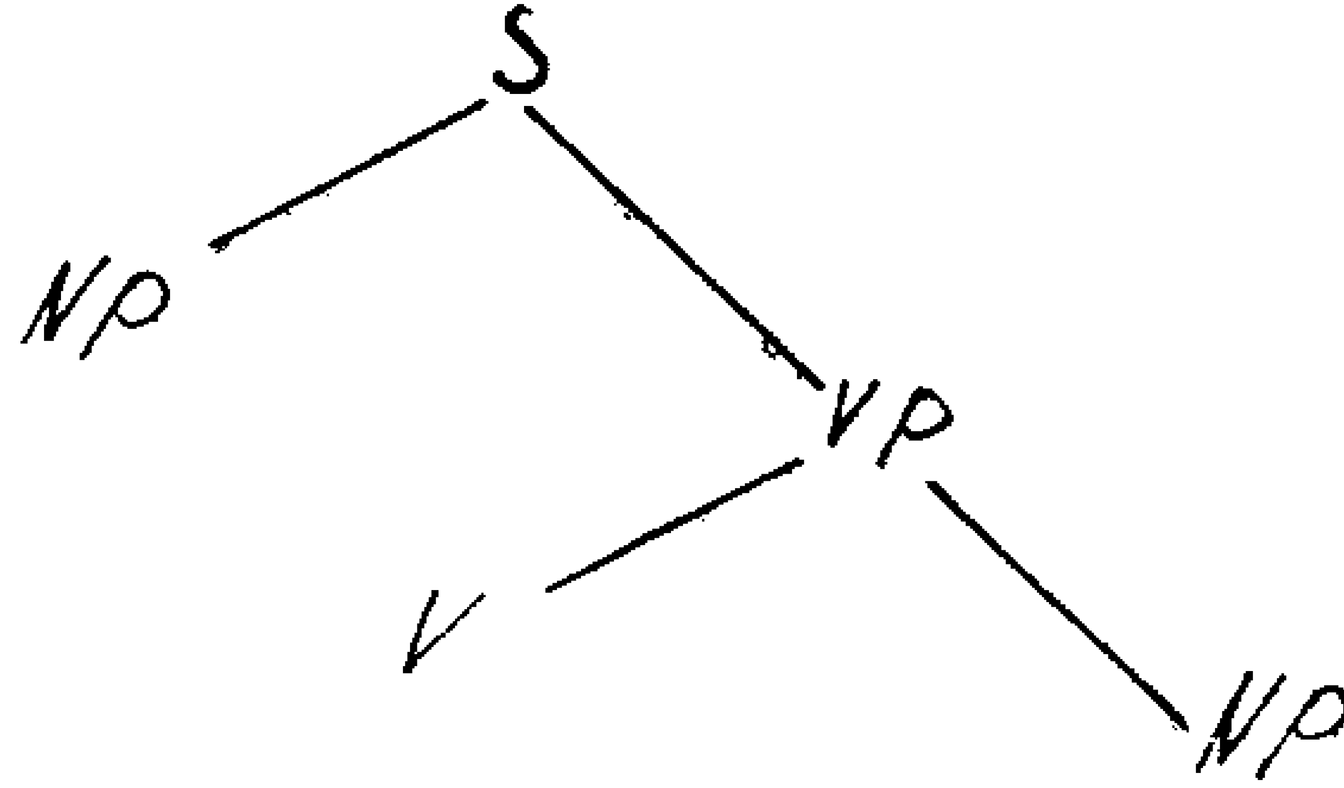
S : NP + P : tran. V + O : NP

---

(1) D. Gibbon : Tagmemik, S. 280 - 281, im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 96.

تناسب الشكل التحويلى : (١)



وبعـــد . فإن النظـرية التجميمية أصابها كثـــير من التغيـــيرات والتعديلات منذ أن أسسها بايك عام ١٩٥٨ ، ويشير كثير من اللغويين الى العالم لونجاكرى Longacre فى كتابه :

Grammar Discovery Procedures, den Haag 1964.

وفى مقالاته :

String Constituent Analysis, in : Lg. 36 (1960).

Some Fundamental Insights of Tagmemics, in : Lg. 41 (1965).

---

(١) المرجع السابق ص ٩٥ .

نظرية النحـــو الطبقى

يعد سيدنى لامب Sydney Lamb المؤسس الحقيقى لنظرية النحو الطبقى Stratificational Grammar ، وذلك من خلال مقالاته التى بدأها عام ١٩٥٧ وبخاصة فى بحثه عن مشروع الترجمة الميكانيكية الذى ألقاه فى جامعة كليفورنيا وسط مجموعة صغيرة من المهتمين بذلك عام ١٩٦٢ ، ثم كتابه الشهير Outline of Stratificational Grammar عام ١٩٦٦ الذى تضمن عرضا لنظريته الطبقية ، ثم تناول لامب عدة موضوعات مفردة فى مقالات متناثرة بين عامى ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ طبق فيها أسس النظـــرية على موضوعات متفرقة فى اللغة الإنجليزية (١) .

استنبط لامب اسم القاعد (النحـــو) الطبقية من الطبقـــات أو المستويات المتعددة Strata (مفردها Stratum فى الانجليزية ، ويرجع أصل الكلمة الى اللغة اليونانية) التى تنقسم اليها اللغة بناء على هـــذه النظرية ، والهدف من النظرية انما هو وصف اللغة أو ايجاد نموذج تحليلى يتم بناء عليه تحليل اللغة ودراستها .

واذا كان التحليل التجميمى للغة احتفظ فى المقام الأول بآراء وأهداف البنائيين الذين ساروا على نهج بلومفيلد ، فان نظرية النحو الطبقى عند لامب أو النحو المنظم Systematic Grammar عند هاليداى أو النحـــو التحويلى Transformational Grammar عند تشومسكى خرجت عن هذا النهج البلومفيلدى فى أنها اعترفت بدور المتكلم ومقدرته فى انتاج جمل جديدة وفى فهم تلك الجمل التى ينتجها متكلمون آخرون . كما أن هدف النظريات الثلاث انما هو بيان خصائص اللغات الانسانية والبحث عن نموذج عام يستعان به فى فهمها ، ولم يكن هدفها بأى حال من الأحوال

---

(1) Hans U. Boas : Stratifikationstheorie, S. 294 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

السعى الى ابراز الأساليب التى تهدف الى تجريد العناصر النحوية من المعارف والمعلومات التى يلاحظها الباحث ، ومعنى ذلك أن الباحث يراقب اللغة من الداخل ومن وجهة نظر المتكلم صاحب اللغة ، وليس من موضع الدارس الذى يجتهد فى أن يتعامل مع المعلومات اللغوية الخاصة بلغته كم يتعامل مع تلك المعلومات التى يحصل عليها من الرواة اللغويين أثناء بحث للغات أخرى غير معروفة لديه ، ومن هنا فان بعض الدارسين من أتباع هذه النظريات الثلاث طالب بأنه ينبغى أن يتطابق التمثيل النحوى مع تخمين المتكلم صاحب اللغة ، أما أتباع بلومفيلد فانهم لم يثقوا أبدا فى النظرية اللغوية التخمينية التى تأتى من خلال المتكلم صاحب اللغة •

ويوضح ألين W. S. Allen تلك الحقيقة قائلا : « ما يعبر به الراوى اللغوى عن لغته (وليس بها) ينبغى أن يعد خطأ » (١) ؛ ومن ثم نسب أتباع بلومفيلد الذين كانوا متأثرين بالاتجاه التجريبى فى مقابل الأفكار الفطرية أو المسلمات أو بنظريات التعلم والسلوكية الجزء الأكبر من اكتساب اللغة فى مرحلة الطفولة الى تشكيل القياس والمطابقة والى المقدرة على تنظيم المادة المختزنة فى الذهن •

أما أصحاب النظريات اللغوية الثلاث فانهم خرجوا عن هذا المنهج بقولهم انه يوجد فى العقل الانسانى نوع من النحو العالمى مثلما يحدث فى وصف علم الأصوات الفوناتيكى العالمى من خلال تركيب أعضاء النطق المكونة للأصوات اللغوية ، وقد أخذ جيلمسلف هذه العموميات الفوناتيكية وطبقها على العموميات النحوية عام ١٩٢٨ ؛ هكذا تخضع المعلومات الموجودة فى اللغة الأولى لطبيعة الاكتساب الموجودة فى ذهن الطفل ، ثم تختار النظم الفنولوجية والنحوية من هذه الطبيعة التى تتناسب مع المسموعات والتى تتضح حينئذ بصورة أفضل ، ولذا ينبغى أن يدرك الانسان أن

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 97.

اكتساب اللغة الأولى حدث تماما قبل القراءة والكتابة ، فتعلم القراءة والكتابة يفترض بالضرورة معرفة الطفل بلغة الأم المنطوقة (١) .

يتفق ممثلو النحو الطبقى مع كثير من أتباع النحو التحويلى فى اعتبار المعنى نقطة البداية للتركيب النحوى ولبناء الجملة ، واذا كان أصحاب النحو التحويلى يختلفون فى مكانة علم الدلالة فى النظرية اللغوية إلا أنهم يجمعون على أهميته ويعترفون له بمكانة عالية فى التحليل اللغوى ، كذلك يتفق أصحاب النظريات الثلاث فى استعمال مصطلح القواعد بمعناه الواسع حيث يتضمن الفروع اللغوية الثلاثة : النحو والصرف والفنولوجيا ؛ بل انه يتضمن عند لامب بالاضافة الى ذلك دلالة اللغة (٢) .

الطبقات اللغوية :

ينظم لامب الصلة بين المعانى والأصوات فى كل لغة طبيعية فى طبقات تركيبية كثيرة ، حيث يكون لكل طبقة تركيب خاص بها أو بعبارة أخرى تنظيم (Taktik = tactics بالانجليزية) معين فى إطار نظام من امكانيات الترابط ، ويتكون هذا التركيب اللغوى فى كل لغة من أربع طبقات ؛ وان كان يصل فى الانجليزية وفى بعض اللغات الأخرى الى ست طبقات يرتبط كل اثنتين منها بالمكونات الأساسية للتركيب فى الانجليزية وهى : الدلالة والقواعد (بمعناه الضيق) والفنولوجيا ، أما هذه الطبقات لست فى الانجليزية فهى : ما فوق الدلالية — الدلالية (ويتصلان بالمعنى) — الفونيمية — ما فوق الفونيمية (وتهدف أصوات اللغة) — القاموسية — الصرفية (ويرتبطان من خلال الفنولوجيا والدلالة) .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ ، وانظر أيضا :

H. V. Boas : Stratifikationstheorie, S. 294 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

إن التمييز بين الطبقة القاموسية والصرفية يناظر التمييز بين النحو والصرف فى الدراسات اللغوية التقليدية ، أما تقسيم الفنولوجيا الى طبقة فونيمية وما فوق الفونيمية فانه يرجع الى اختصاص كل طبقة منهما ، فالفونيمية يهتم تنظيمها ببناء المقاطع والكلمات الفنولوجية ، وتختص ما فوق الفونيمية بالعلامات الفوناتيكية من حيث أقسامها وتتابعاتها ، ويبقى بعد ذلك عدم وضوح مدى اختصاص الطبقة الدلالية وما فوق الدلالية (١) .

هكذا نجد أن الطبقات المشار اليها تتحدد من أعلى بعلم الدلالة ومن أدنى بعلم الفوناتيك ، وتتدرج الطبقات الأربع الأخرى بين المستويين . وان كان سمبسون لم يضف الطبقة السادسة (ما فوق الدلالية) وأحل مكانها معارف المتكلم والحوادث التى يطلق عليها معارف غير لغوية exralinguistic (٢) .

تعود نظرية التصور الطبقى عند لامب — حسب قوله — الى جيلمسلف مؤسس المدرسة الدينمركية والى البنائيين الأمريكيين وبخاصة هوكيت ، حيث يطالب جيلمسلف وهوكيت بمستويين : المحتوى والتعبير ، وبمستويى المورفيم بصفته أصغر وحدة حاملة للمعنى والفونيم ، ثم جاء لامب فأضاف عام ١٩٥٧ طبقة بين المورفيم والفونيم سماها طبقة « المورفوفونيمك » . ثم أوصلها الى خمسة عام ١٩٦٢ وذلك باضافة طبقة « الدلالة — الصرفية » ثم طبقة « الدلالة » . حتى اقترح أخيرا فى دراسته الانجليزية ست طبقات كما سبق القول .

ولما كان لامب يرى أن اللغة تتكون من نظام من العلاقات وأن هدف الوصف اللغوى انما هو نقل صورة دقيقة قدر الاستطاعة عن هذه

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩٥ .

الصلات المنظمة للمـادة اللغوية فانه يستخدم عند تحليله ترقيما وشكلا معقدا يشبه الأشكال المستخدمة فى دراسة الجبر ، وقد استفاد لامب كثيرا من مشروعاته التى كان يقوم بها فى مجال الترجمة الآلية ، ولذا فقد جاءت رسوماته مكونة من خطوط وعقد ، والمقصود بالعقد الأماكن التى تتقاطع فيها الخطوط ، وذلك من خلال ثلاثة أبعاد ، فإما أن تكون المقابلة باستخدام واو العطف (and) أو باستخدام أو (or) ، وإما أن تكون منتظمة أو غير منتظمة ، وأخيرا إما أن تكون الصـلة الى أعلى أو الى أسفل ؛ أى الى المستوى الدلالى أو الى المستوى الفوناتيكى ، ولا يسمح المجال هنا برسم النماذج أو الأشكال التخطيطية التى وضعها لامب ، ويمكن الرجوع اليها فى كتبه أو فى المراجع التى شرحت بالتفصيل نظريته المعقـدة (١) .

ينبغى أخيرا أن نشير ثانية الى أن هدف لامب فى نظريته كان إيجاد نموذج لغوى من خلاله نستطيع وصف قواعد اللغة ونظامها على أساس من الارتباط بين الأفكار أو المحتويات والأصوات التى تعبر عن هـذه الأفكار ، ويرى روبنز أنه وان كانت التجميمية قد اعتمدت الى حد كبير على البنائية البلومفيلدية فإن النظرية الطبقية أخـذت ميراثهـا بدرجـة كبيرة — وبخاصة فى مجال الفنولوجيا — من علم اللغة الأوربى وبصفة خاصة من مدرسة براغ ومن علم اللغة البنائى فى أمريكا (٢) .

---

(١) منها على سبيل المثال :

(a) Denneth D. C. : English prepositions, A stratificational approach (1968).

(b) Gleason : The organization of language, A. S. View. Monogr. Ser. on lang. and ling. 17 (1964).

(c) Hockett Ch. F. Language, mathematics and linguistics (1967).

(d) Lamb : Outline of Stratificational Grammar (1966)

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft. S. 107.

الفصل السابع

النحـــو التحويلى التوليدى
عنـــد تشومسكى

النحـــو التحويلى التوليدى

شهد النصف الثانى من القرن العشرين تطورا هائلا فى الدراسات اللغوية وبخاصة فى أمريكا حيث اهتزت دعائم المنهج الوصفى الذى كان سائدا ومستقرا فى الجامعات والمدارس العليا لا فى أمريكا وحدها بل فى جميع أنحاء العالم ، وذلك بعد أن أصدر نوم تشومسكى Noam Chomsky كتابه الأول « التراكيب النحوية Syntactic Structures » عام ١٩٥٧ ، وقد أخذت نظريته فى الذيوع والانتشار فى جميع أنحاء العالم وبين الجامعات المتعددة ووسط المحافل العلمية لمـــا جاءت به من منهج جديد أخذ يقوض دعائم المنهج الوصفى البنائى . وأصبح لا يخلو أى كتاب لغوى يعرض للدراسات اللغوية الحديثة دون أن يشير على الأقل الى نظرية تشومسكى فى النحو التحويلى Transformational Grammar ، بل إن كثيرا من علماء اللغة والباحثين طبقوا نظريته على ظواهر لغتهم .

هكذا كان ظهور كتاب تشومسكى الأول بداية لعلم النحو التحويلى الذى أضيف اليه صفة التوليدى generative . ويرمز له بالحروف G.T.G. . وقبل أن نتعرض لأهم مبادىء وأسس نظرية تشومسكى كما جاءت فى كتابه الأول « التراكيب النحوية » أو فى كتابه الثـــانى « جوانب النظرية النحوية Aspects of the Theory of Syntax » الذى ألفه عام ١٩٦٥ أو فى بحوثه ودراساته العديدة التى نشرها بعـــد ذلك وأهمهـــا :

1. Topics in the Theory of Generative Grammar (1966)
2. Cartesian Linguistics (1966)
3. Language and Mind (1968).
4. Some Empirical Issues in the Theory of Transformational Grammar (1972).
5. Deep Structure. Surface Structure and Semantic Interpretation (1972).
6. Studies on Semantics in Generative Grammar (1972).

أقول قبل التعرض لأهم مبادىء نظرية تشومسكى نود أولا أن نشير الى الأصول الفليسفية التى تعد المؤثرات الفعلية فى منهجه .

الأصـــول الفلسفية لنظرية تشومسكى :

اعتمد تشومسكى فى بناء منهجه اللغوى على نظرية النحو العالمى كما جاءت فى نحو بورت رويال وعلى الفلسفة العقلية التى كانت سائدة خلال القرن السابع عشر عند الفيلسوف الشـــهير ديكارت . إن نحـــو بورت رويال ــ كما سبق القول ــ كان امتدادا طبيعيا للمنهج العقـــلى Rationalism الذى يعد رائده الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى القرن السابع عشر فى مقابل المنهج التجريبى Empiricism أو الحسى Sensationalism . « فأصحاب المنهج العقلى يرون أن العقل قوة فطرية فى الناس جميعا . وهو مصدر كل معرفة يقينية تتميز فى المذهب العقلى الدجماطيقى Dogmatism بالضرورة والصـــدق المطلق ، فأحكامهـــا صادقة دواما وبصورة محتومة تتخطى الزمان والمكان والظروف والأحوال ، ففى العقل مبادىء فطرية لم تكتسب من خبرة حسية ولا تأمل عقلى ، كمبدأ عدم التناقض الذى يقول إن الشىء لا يمكن أن يكون موجودا وغير موجود فى آن واحد » (١) .

هكذا كانت تقوم فلسفة ديكارت فى المعرفة أساسا على رد المعرفة الحقيقية الى العقل حيث أكد على أن الأفكار الفطرية والمبادىء العامة لا تجىء اكتسابا ، ومن هنا كان الفكر عنده أهم صفة فى الانسان وهو السبيل الى اثبات أول حقيقة يقينية بعد رحلة الشك الطويلة حيث قال « أنا أفكر إذن فأنا موجود » .

ويختلف الانسان عن الحيوان عند ديكارت فى أن الحيوان آلة ،

---

(١) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ؛ نشأتها وتطورها ص ١٢٠ (الطبعة الأولى ١٩٦٠) .

أى يمكن تفسير كل ما يصدر عنه تفسيرا آليا mechanical explanation ذلك أن الأجسام المادية كلها تخضع للقوانين الآلية ، والحيوان جسم مادى لأنه لا عقل له ولا شعور ، وهو لا يتصرف واعيا بأغراض محـــدودة ، ويؤكد أن الحيوان ليست له مرتبة متدنية من العقل والشعور ، بل لا عقل له على الاطلاق ••• أما الانسان فيختلف عن الحيوان اختلافا جوهريا ، إنه ليس آلة ، ومن ثم لا يخضع للتفسير الآلى ••• ويركز ديكارت أهم فرق بين الانسان والحيوان فى القدرة على اللغة ، فالانسان قادر على اللغة ، والحيوان عاجز عنها » (١) •

« وهذا المنهج الديكارتى فى التفريق بين الحيوان والانســـان هو الذى أصل فكرة الجانب الخلاق فى اللغة creative aspect ، وهذه الفكرة بدت أكثر وضوحا ورسوخا عند المفكر الألمانى Humboldt ، الذى يراه تشومسكى صاحب فضل كبير فى ربط اللغة بالعقل ، وفى تقـــديم منهج توليدى لدراسة اللغة » (٢) •

هكذا كانت نظرة بلومفيلد السلوكية الى الانسان على أنه آلة من أوضح النقاط التى هاجمها تشومسكى على أساس الخلاف الجوهرى بين الانسان والحيوان ، فالانسان يمتلك الموهبة الخلاقة فى انتاج اللغة وفى تركيب كلمات الجملة ، تلك الموهبة التى يفتقدها الحيوان مهما أوتى من مهارة ونشاط •

واذاكان ديكارت قد اهتم بمشكلة العلاقة القائمة بين اللغة والفكر (أو العقل) نجد لدى تشومسكى اهتماما بالعودة الى تلك المشكلة التقليدية التى طالمـــا أغفلتها المدارس البنيوية فى علم اللغة ابتداء من دى سوسير حتى مدرسة جلمسلف وبلومفيلد وغيرهما • والمهم أنه اذا كان بلومفيلد

---

(١) د • عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ص ١٢٢ (دار نشر الثقافة ١٩٧٧) •

(٢) المرجع السابق ص ١٢٤ •

ومدرسته (مثلا) قد أرادوا ارجاع الرياضيات والمنطق الى علم اللغة ، فان نظرية تشومسكى فى « النحو التوليدى » قد أرادت استخلاص « النحو » من « المنطق » ، واستنباط اللغة من الحياة العقلية الأصلية » (١) ، حيث اعتمد على المقابلة بين التعبيرات اللغوية العقلية والتركيب المنطقى الكامن فى نظرية نحو بورت رويال فى تمييزه بين التركيب السطحى والتركيب العميق .

واذا عدت الفلسفة العقلية عند ديكارت فى القرن السابع عشر الأساس النظرى لمنهج تشومسكى فان تأثير هومبلدت كان كبيرا باعتراف تشومسكى نفسه : حيث يصرح فى مقدمة كتابه « جوانب النظرية النحوية Aspects of the Theory of Syntax » قائلا :

« إن فكرة أن اللغة تعتمد على نظام يحدد تفسير جملها الكثيرة غير المحددة ليست جديدة ، فقبل مائة عام كانت هذه الفكرة واضحة عند ولهلم فون هومبلدت فى المقدمة التى ألفها فى علم اللغة العام ، حيث يرى أن اللغة تنتج من وسائل محددة استعمالات غير نهائية ؛ كما أن القول بأن النحو ينبغى أن يصف العملية التى تسهل ذلك كان مجال الاهتمام فى وجهة النظر الإبداعية لاستعمال اللغة ، كذلك أيضا فى مجال الفلسفة العقلية عن اللغة والفهم » (٢) ، ثم يشير كذلك الى أن نحو بانينى نفسه يمكن أن يدرك أساسا على أنه جزء مما يفهم الآن من مصطلح النحو التوليدى (٣) .

ويتلخص منهج هومبلدت فى « أن اللغة إنما هى نتاج العقل وعمله فهى الصوت المنطوق نستطيع به أن نعبر عن الفكر ... وطالما أن اللغة هى عمل العقل فان هناك دائما عوامل تكمن تحتها أى ليست « على

---

(١) د . زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ص ٧٥ (طبعة مكتبة مصر) .
(2) Chomsky : Aspekte der Syntax - Theorie, S. 9.
(٣) المرجع السابق ص ٩ .

السطح » وهو ما أوضحه تحت ما أسماه شكل اللغة ، فيقول إن هناك شكلا خارجيا (آليا) وشكلا داخليا (عضويا) والشكل الداخلى العضوى هو الأهم لأنه يتطور من الداخل ، وهو الأساس فى كل شىء ، أو هو البنية العميقة لما يحدث بعد ذلك على السطح » (١) .

وينبغى ألا نغفل أخيرا دور العالم اللغوى الأمريكى هاريس الذى يعد مجهزا ومحضرا لنظرية تشومسكى من خلال إيجاده نموذجا بسيطا للجملة سماه الجمل الجوهرية Kernel Sentences ، كما كان نموذجه التحليلى IC - Analysis (= Immediate Constituent - Analysis) ذائع الصيت عندما رفضه تشومسكى واعتمد على نماذجه التحليلية التى جاء بها .

هذا وقد سمى منهج فريس Fries وهاريس بالنحو الجديد the new grammar ، والذى يندرج فى البنائية التصنيفية Taxonomic Structuralism التى كانت الحلقة الأخيرة فى تسلسل النظرية البنائية ، وقد اعتمد منهج فريس وهاريس على الأسس الرياضية والنظم المنطقية الشائعة في علم الكمية (٢) ، وهو العلم الذى يعتمد فى المقام الأول على التحليل الكمى quantitative analysis دون النظر الى الكيفية .

وفيما يلى أهم المبادىء التى جاءت بها نظرية تشومسكى اللغوية :

أولا : الكفاءة Compotence والأداء Performance :

إن اللغة عند تشومسكى مجموعة محدودة أو غير محدودة من الجمل

---

(١) د . عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ص ١٢٤ ـ ص ١٢٥ .

(2) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 31.

التى تتركب من مجموعة محدودة من العناصر ؛ وهنا فان كل لغة طبيعية تملك عددا محصورا من الفونيمات أو الحروف وهى الأبجدية ، وتمثل كل جملة تتابعا محدودا من هذه الفونيمات أو الحروف ؛ هذا على الرغم من أنه توجد فى تلك اللغة جمل كثيرة لا نهائية (١) •

إن العلاقة البارزة فى المرحلة الثانية لمدرســة تشومسكى إنما هى العودة الى العقلية Mentalism هذا بالاضافة الى أن هذه النظرية تعتد بامكانية انتاج جمل كثيرة غير نهائية وبامكانية فهم هذه الجمل ؛ كذلك أيضا الجمل التى لم يسمع بها قبل ذلك فى المجتمع اللغوى ، وهذا ما يســمى بالنظــرة الخــلاقة Kreative Aspekt (= creative aspect بالانجليزية) فى استعمال الانسان للغته ، ولمــا كانت الوسائل الموجودة فى رأس الانســان محدودة فانه ينبغى أن ينتج الانسان جملا لا نهائية من هذه الوسائل المحدودة (٢) •

وتمثل المجموعة المحدودة من الوسائل فى رأس الانسان المتكلم نوعا من المعرفة Knowledge عن نظاميــة لغته ، تلك المعرفة التى يستحضرها الانسان الناطق عند التنفيذ . ويسمى تشومسكى هذا النظام المركز العميق من المعرفة بالكفاءة أو المقدرة •

وليست المقدرة اللغوية المعرفة التى يستطيع بها المتكلم توضيح لغته . ولكن معرفته تعد أساسا يستخدمه فى استعمالاته وتطبيقاته اللغوية ؛ فليست المعرفة إذن قواعد يحكيها ولكن يستعملها فى صمت • إن التكلم أو النطق دون خطأ والتكلم عن الكلام شيئان مختلفان (٣) •

---

(1) Chomsky : Strukturen der Syntax, S. 15.

(2) Heeschen : Grundfragen der Lingnitsik, S. 108.

(3) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 40 - 41.

وتعنى الكفاءة عند المتكلم السامع :

١ — أن كل جمل اللغة السائدة عندهم ، كذلك الجمل التى لم تنطق ولم تسمع قبل ذلك يمكن انتاجها وفهمها •

٢ — انها تستطيع تمييز الجمل النحوية فى اللغة (أى التى جاءت حسب نظام اللغة وقواعدها) من الجمل غير النحوية ، كما يمكنها أن تتعرف على مدى صحة الجملة أو درجة النحوية بها •

٣ — أنها تتعرف على ما اذا كانت الجملة أكثر وضوحا فى مجال الدلالة من غيرها •

٤ — أنه يمكنها انتاج الجمل وتفسيرها فى اللغة بناء على طريقة فعالة (١) •

ويميل تشومسكى فى تحديد الكفاءة اللغوية الى أنها تسهيل للمتكلم السامع فى أن يخلق لغته ويفهمها على عكس البنائيين أتباع منهج بلومفيلد الذين يصفون اللغة من الخارج . حيث يقومون بتحليل الموجود فقط مع الاستفادة بالمادة العلمية المحدودة والمستمدة من نصوص أو تسجيلات معينة (٢) •

ويبدو مفهوم الكفاءة أكثر وضوحا من خلال مقارنته بالمفهوم الثانى المقابل وهو الأداء . فالأداء هو السلوك النطقى الحالى للانسان والذى يتوقف بدوره على وجود المقدرة . فبدون نظام للقواعد العميقة لا يمكن أن يوجد الأداء اللغوى . وإن كانت الكفاءة اللغوية لا تدرك فى الأداء

---

(1) Siegfried Kanngiesser H. L. Meyer : Generative Lingnistik. S. 194 im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(2) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft S. 119 - 120.

حيث توجهها ظروف وعوامل غير لغوية فى المقام الأول مثل معارف الذاكرة وطاقتها المعينة •

وفى مجال المقارنة بين الكفاءة والأداء يقول تشومسكى :

« نفرق إذن بين الكفاءة اللغوية (وهى معرفة المتكلم السامع بلغته) واستعمال اللغة . وهو الاستخدام الحالى للغة فى سياق معين » (١) •

إن تمييز دى سوسير بين اللغة والكلام يظهر بصورة ما فى تمييز تشومسكى بين الكفاءة والأداء . وقد أشار تشومسكى الى ذلك قائلا :

« إن التمييز الذى لاحظته هنا (وهو التمييز بين الكفاءة والأداء) استخدمه دى سوسير فى التفريق بين اللغة والكلام . ومن الضرورى أن يرى مفهوم دى سوسير عن اللغة على أنه قائمة من الوحدات المنظمة ويعود الى فهم هومبلدت للكفاءة الموضوعة أساسا كنظام للعملية التوليدية » (٢) •

ويبدو من المقارنة بين اللغة عند دى سوسير و لكفاءة عند تشومسكى وجود فرقين اثنين فقط ، هما :

١ — أن اللغة عند دى سوسير ترى كمقدرة عقلية مباشرة على العكس من مفهوم الكفاءة عند تشومسكى •

٢ — ليست الكفاءة شيئا ثابتا ، أى ليست مستودعا ساكنا من الرموز . لكنها نظام متحرك من القواعد والنظم (٣) •

---

(1) Chomsky : Aspekte der Syntax - Theorie, S. 14.

(٢) المرجع السابق ص ١٤ • ص ١٥ .

(3) Heeschen : Grundfragen der Linguistik, S. 110.

واذا كان تشومسكى قد تحدث فى كتابه الأول « التراكيب النحوية » عن الجمل التى تبدو مقبولة عند المتكلم لأنها جمل نحوية والأخرى غير المقبولة لخروجها عن قواعد اللغة ونظامها ، فإنه يميز فى كتابه الثانى « جوانب النظرية النحوية » بين الكفاءة وهى التى تتضمن كل الجمل النحوية والقبول وهو شىء من الأداء أو الاستخدام ، فقد توجد مجموعة كاملة من الجمل التى على الرغم من أنها نحوية فانها غير مقبولة مثل الجمل المعقدة أو التى تحتوى على صفات كثيرة ؛ ويتوقف قبول الجملة على الذاكرة الانسانية الوقتية (١) .

ثانيا : النحووالطرق التحليلية :

(أ) فى كتا بالتراكيب النحوية :

إن الهدف الأساسى من التحليل اللغوى للغة ما إنما هو تمييز التتابعات النحوية التى تكون جملا فى اللغة عن التتابعات غير النحوية فى تلك اللغة ، كذلك دراسة تركيب التتابعات النحوية ، إنه محتوى من العناصر والقواعد التى تتكون بناء عليها الجمل لنحوية (٢) .

يقيس نحو اللغة مجموعة التعبيرات الملاحظة المحدودة على مجموعة التعبيرات النحوية التى غالبا ما تكون غير محدودة . ويعكس النحو بهذا سلوك المتكلم الذى يمكنه آن ينتج على أساس معرفة محدودة باللغة عددا غير محدود من الجمل الجديدة وأن يفهم هذه الجمل . ويمكن أن يرى مفهوم النحوية فى اللغة فى هذا الاطار على أنه توضيح لجانب أساسى من السلوك اللغوى (٣) .

---

(1) Chomsky : Strukturen der Syntax, S. 10.
وانظر ايضا : Zarnikow : Einfuhrung in die Linguistik, S. 40.

(2) Chomsky : Strukturen der Syntax, S. 15.

(٣) المرجع السابق ص ١٧ .

لا ينبغى أن يتحدد مفهوم النحو مرتبطا بالمعنى أى بوجود كامل للمعنى ، فان الجملتين الانجليزيتين التاليتين لهما نفس المعنى ، ولكن يعترف متكلم الانجليزية بأن الأولى نحوية فقط ، وهاتان الجملتان هما :

1. Colorless green ideas sleep furiously.
2. Guriously sleep ideas green colorless.

كذلك لا يوجـد أى أساس دلالى فى تمييز الجملة رقم (٣) عن رقم (٥) ، أو رقم (٤) عن رقم (٦) ؛ وإن كانت الجملتـان رقـم (٣) ورقم (٤) جملا نحوية فى الانجليزية ، والجمل التى يقصدها تشومكى وذكرها فى كتابه هى :

3. Have you a book on modern music ?
4. The book seems interesting.
5. Read you a book on modern music ?
6. The child seems sleeping.

إن مثل هذه الأمثلة تجعل البحث عن أساس دلالى للنحو مضيعة للوقت . ثم يصرح تشومسكى قائلا : « وسنرى أنه توجـد الأسس العميقة (فى الفصل السابع) التى تميز الجملتين رقم (٣) ، ورقم (٤) من الجملتين رقم (٥) . ورقم (٦) (١) .

ولـما كانت اللغة نظاما متشابكا من الفونيمات والمورفيمات ثم من الكلمات والجمل فإن الوصف اللغوى ينبغى أن يقوم على أساس من المستويات المختلفة فى اللغة ؛ وعندما يتعلم الانسان لغته فإنه يتعلم بناء على التنظيم Disposition المعطى له الميكانيكية التى ينتج بهـا الجمل النحوية . ولذا سمى بالنحو المنتج أو التوليدى . إن ما يتعلمه صاحب اللغة ليس تخزين المـادة اللغوية . ولكن القواعد التى يستعملها عند الكلام وعند فهم الجمل التى يسمعها . ومن ثم غـير تشومسكى

(١) المرجع السابق ص ١٧ ، ص ١٨ .

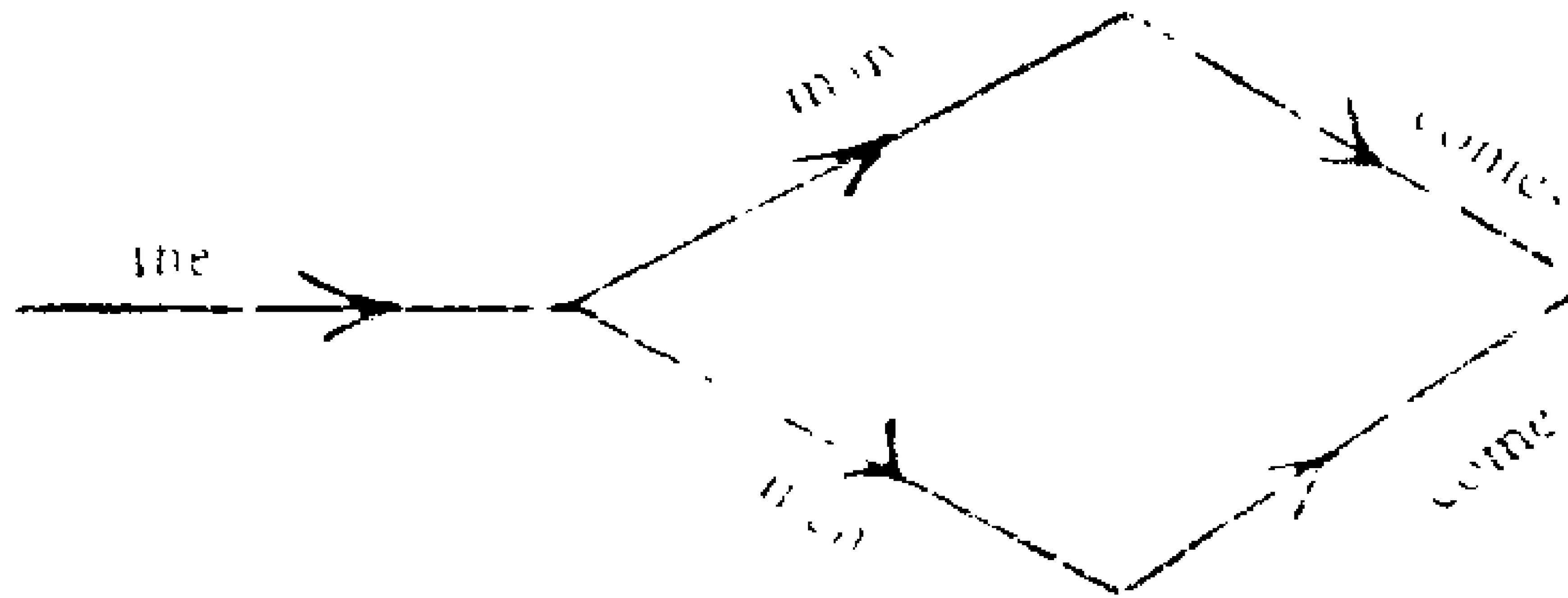
النحو البنائى الى نحو توليدى . وواجب عالم اللغة بدلا من تحـــديد تركيب الفونيمات فى جمل مباشرة إنمـــا هو ترتيب أجزاء أو عناصـــر المستويات الأعلى كالمورفيمات ثم يحدد العالم فى سلوك منفصل تركيب الوحدات الصرفية فى جمل وتركيب الوحدات الصوتية فى وحـــدات صرفية ، وهذا الوصف أسهل كثيرا من الوصف المباشر لتركيب الوحدات الصوتية فى جمل .

أما كيف يرتب النحو تتابع الوحدات الصرفية أو الكلمات فى جمل فإن هناك طرقا عديدة نستطيع من خلالها انتاج الجمل الممكنة فى لغة ما ، ويختلف النحو فى ذلك عن الآلة التى من الممكن أن تقوم بانتاج عـــدد محدود من الجمل . فلو أننا نملك آلة تستطيع أن ترتب الكلمات بنـــاء على حالات داخلية لغوية فإن هذه الجمل تكون محدودة للغاية ؛ وتسمى اللغة المنتجة بهذا الشكل لغة بحالات محدودة finite state language . ويمكننا أن نسمى الآلة نفسها بالنحو ذى الحالات المحددة finite state grammar . ويمكننا أن نوسع مدلول هذا النحو فى أن نجعله ينتج جملا أخرى وذلك بإضافة كلمة من الكلمات الى الجملة الموجـــودة بالفعل ؛ فالجملتان الانجليزيتان :

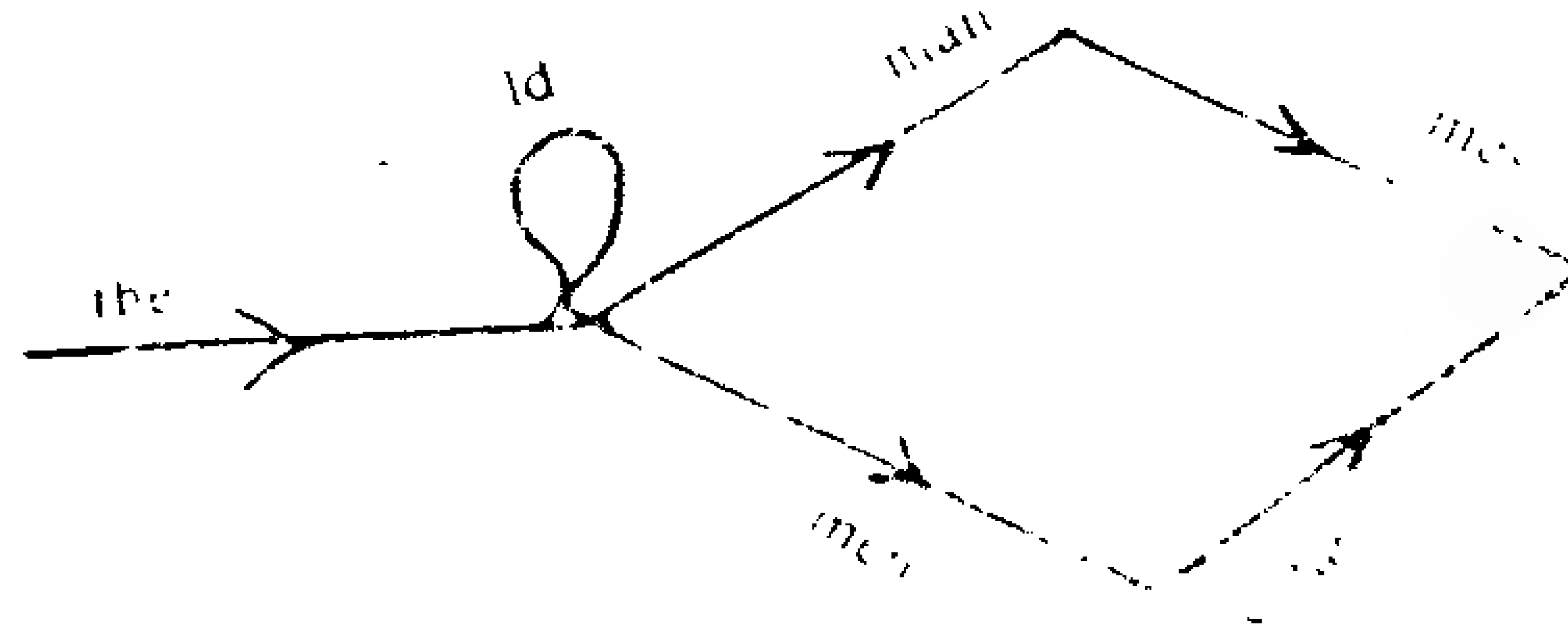
the men come

the man comes

التى يمكن تمثيلهما بالشكل التالى :



حيث نستطيع أن نجعلها جملا غــير محدودة بأن نضيف منحنى مغلق كما فى الشكل التالى :



هكذا تنتج بإضافة هذا المنحنى جملتان أخريان هما :

the old man comes

the old men come

ويناسب كل منحى فى الشكل حالة من الحالات الخاصــة بالآلة . ويمكن أن يوجد عدد من المنحنيات المغلقة فى كل امتداد . إن الآلات التى تنتج لغات بهذه الطريقة تعرف فى الرياضــة باسم markov processes .

ويمكن أن تسمى هذه الطريقة بطريقة الاختيار أو الاحتمال حيث يحتاج الى الاختيار فى الانتقال من حالة الى حالة أخرى . ففى بداية انتاج الجملة يبدأ المتكلم بالحالة الأولى وينتج الكلمة الأولى فى الجملة ثم تحدد الحالة الثانية الكلمة التالية فى الجملة . وهكذا تمثل كل حالة يمر بها التحديدات النحوية التى تعين اختيار الكلمــة التالية فى هــذه النقطة من التعبير .

ولا تصلح طريقة الاختيار هذه إلا فى اللغات التى تكون بحالات محدودة والتى لا توجد فى الواقع . فمن المعروف أن الانسان يحــدد اللغة على أنها أبجدية (وهذا يعنى أنها مجموعة محدودة من الرموز

تنتج منها الجمل المختلفة) وجمل نحوية ، ولو افترضنا مثلا وجود ثلاث لغات تتكون أبجديتها من حرفين فقط هما a , b فإنه من الممكن أن تتحدد جملها كما يلى :

1. ab , aabb , aaabbb . . . . .
2. aa , bb , abab , baab , aaaa , bbbb , aabbaa . . . . .
3. aa , bb , abab , aaaa , bbbb , aabaab , abbabb . . . . .

ويمكننا أن نقول ببساطة إنه لا توجد واحدة من هذه اللغات الثلاث لغة بحالات محدودة . وقياسا على ذلك لا توجد لغات أخرى يمكن أن نسميها لغات بحالات محدودة ، ويعنى ذلك أن هذه الطريقة لا يمكن استخدامها . وينبغى البحث عن طريقة أخرى تقوم بترتيب المستويات من أعلى الى أسفل . ويمكننا من خلالها انتاج كل التعبيرات التى نحدد فيها التتابعات المسموح بها من أجزاء المستويات الأعلى (١) .

أما الطريقة الثانية فى التحليل فهى التى سماها تشومسكى بنموذج Phrase Structure ويرمز لها بالرموز PS .

وقبل أن يشرح تشومسكى الطريقة الثانية فى التحليل فإنه يفسر الرموز المستعملة . وهى طريقة تنتمى الى مجال الرياضة والمنطق الشكلى ، وتتميز بأنها قصيرة وواضحة . وهذه الرموز هى :

١ — يشير السهم ← الى إبدال الموقع يسار السهم بما يأتى يمينه . ففى الشكل :

$x \rightarrow y + z$ تبدل x بـ y + z ، وهذا يعنى أن x تتكون من y + z

٢ — S = جملة Sentence

---

(١) المرجع السابق ص ٢١ — ص ٢٩ . وانظر أيضا : د . عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ص ١٢٩ — ص ١٣٤ .

٣ — Noun = N ٤ — Verb = V

٥ — Article = T ٦ — Noun Phrase = NP

٧ — Verb Phrase = VP

إن النحو يتكون من قواعد التكوين وقواعد القاموس التى تأتى فى شكل قواعد الابدال ، وتتضمن القواعد التالية (١) :

(i)	S	→	NP + VP
(ii)	NP	→	T + N
(iii)	VP	→	Verb + NP
(iv)	T	→	the
(v)	N	→	man . ball . .... ect.
(vi)	Verb	→	hit . took , ... ect.

وتتكون الجملة بهذا من مكونين هما : العنصر الاسمى والعنصر الفعلى . ويتكون العنصر الاسمى من أداة التعريف والفاعل ، أما العنصر الفعلى فإنه يتكون من فعل وعنصر اسمى ونلجأ هنا لما يسمى بقواعد القاموس التى تقدم الرموز التى تخص نوع الوحدات اللغوية ، وبناء على ذلك فإنه يمكننا أن نسمى تقسيم جملة « «the man hit the ball» فى الشكل التالى اشتقاقا derivation ؛ حيث تكون الأعداد يمين سطور التقسيم متصلة بقواعد النحو فى الشكل السابق . ويتضح تقسيم الجملة السابقة فى الشكل التالى :

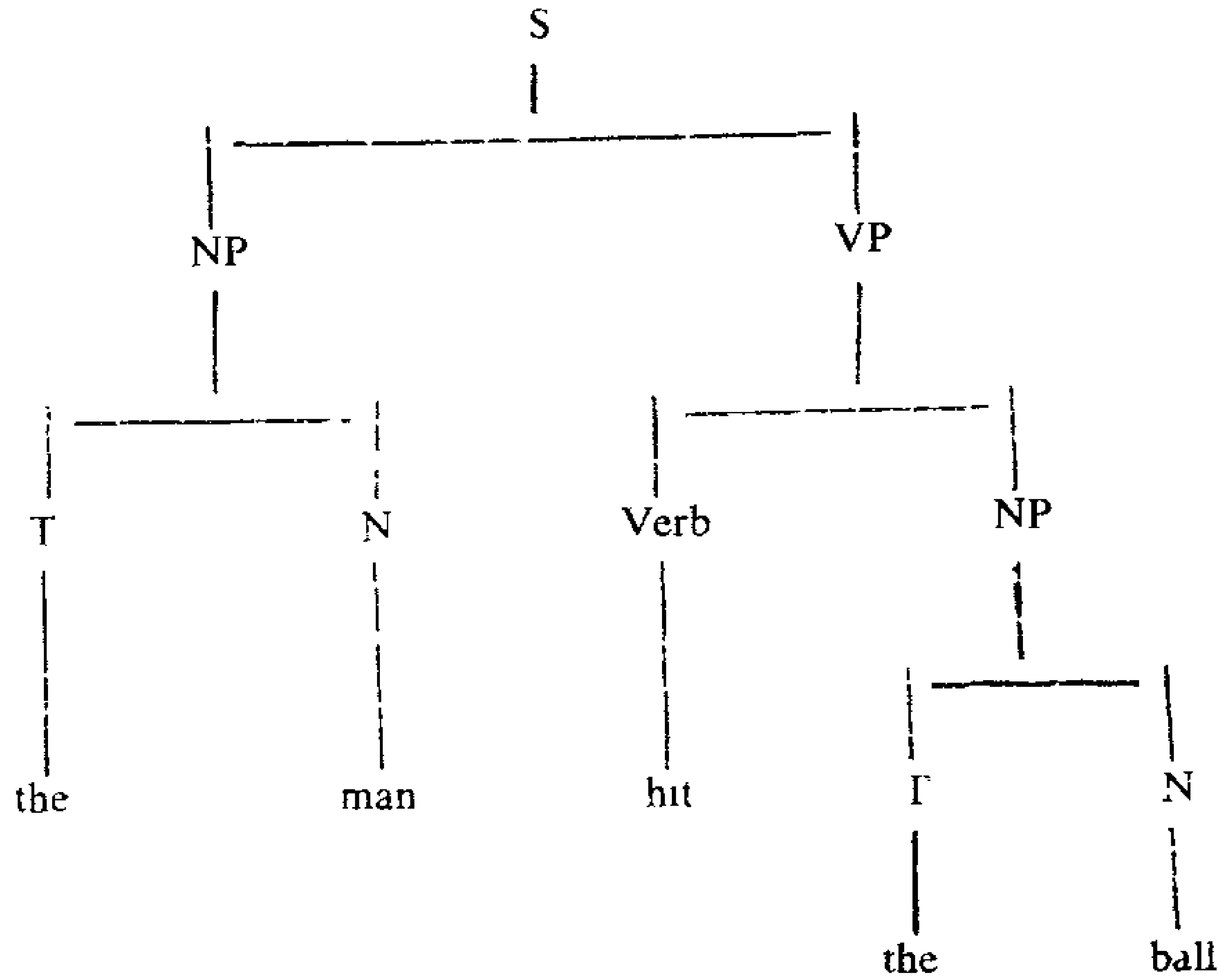
Satz (= Sentence بالانجليزية)

(i)	NP + VP
(ii)	T + N + VP

(١) المرجع السابق ص ٣٠ ، ص ٣١ .

T + N + Verb + NP (iii)
the + N + Verb + NP (iv)
the + man + Verb + NP (v)
the + man + hit + NP (vi)
the + man + hit + T + N (i i)
the + man + hit + the + N (iv)
the + man + hit + thc + ball (v)

والسطر الثانى فى الشكل السابق . وهو عبارة عن شكل NP + VP متطابق مع نظام (i) فى الشكل السابق ، كما أن السطر الثالث إنمــا هو شكل مأخوذ من السطر الثانى بإبدال NP بـ T + N الذى يتطابق مع القاعدة رقم ii فى الشكل السابق . وهكذا يمكننا تقسيم الشكل السابق بطريقة يمكن رؤيتها بسهولة هكذا :



ولمـا رأى تشومسكى أن طريقة التحليل هذه (PS) لا تشــير بوضوح الى التراكيب التى تتكون من أكثر من عضوين بطريقة متساوية مثل : حسن وعلى وأحمد . كما أنها لا توضح المورفيمات المشاركة (مثل

الأفعال المساعدة) ، هذا بالاضافة الى أن تمثيل الجمل المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول يأتى متساويا فى النموذج السابق (PS) دون أن يتمكن من التمييز بينهما فى الشكل التركيبى • إن نقطة الخروج من هذه المشكلة هى ما يسمى بالجمل الجوهرية كما جاءت عند هاريس ؛ وإن كان الخلاف بينهما يكمن فى أن هاريس اعتمد على التحليل المباشر IC - Analysis حيث تتغير التحويلات الى أخرى ، أى تصبح جملا جوهرية بعد ذلك ، أما عند تشومسكى فإن الجمل الجوهرية هى التى تفترض التحويلات الاجبارية (مثل تحويلات العدد والأفعال المساعدة) المتضمنة بناء على نحوية الجمل • هكذا تقوم المطابقة فى العدد والشخص بين المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل . أما التحويلات الأخرى فإنها اختيارية وهذا يعنى أنها غير مطلوبة فى كل حالة مثل تحويل المبنى للمجهول (١) •

إن جملة مثل « اشمأز الولد من موت العصفور » يمكن أن تمثل بطريقتين : ١ — اشمأز الولد عندما أمات العصفور ٢ — اشمأز الولد عندما مات العصفور . فالفاعل فى الأولى الولد وفى الثانية العصفور ؛ أى أن صلة الفعل « مات » بالفاعل تختلف من جملة الى أخرى ، وهذا يعنى أنه ينبغى لكل جملة أن تنتظم نوعين من التمثيل التركيبى وهما :

١ — التمثيل العميق deep structure

٢ — التمثيل السطحى surface structure

وعلى حين يمثل الأول الدلالة فإن الثانى يوضح التفسير الصوتى . وينتج التركيب العميق من أسس النحو . وتشتق التركيبات السطحية من التركيبات العميقة مباشرة من خلال قواعد التحويل (٢) •

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 36 - 37.
(2) Heeschen : Grundfragen der Linguistik. S. 113.

ويختلف هـذا النموذج فى انتاج التركيبات النحوية عن النموذج القديم ((PS)) فى النقاط التالية (١) :

١ ـ لا يتطابق الأساس الذى يقـوم عليـه مع نحو النموذج القديم ، حقيقة تعرض نظمه وقواعده جوهر قواعد الانتاج التى تكون نتيجتها تركيب الشجرة المتعارف عليه ؛ ولكنه يختلف عنه فى أنه يتوسع عن النموذج القديم بجهاز من القواعد التصنيفية المتضمنة وقواعـد الاختيار المتعددة ، فهناك قواعـد تختص بالأنواع القاموسية كأنواع الأسماء من تجريدية أو حية أو غيرها ، وذلك فيما يختص بشروط إتيانها مثل فعل « يموت » الذى ينبغى أن يكون فاعله حيا . وفعل « يأكل » الذى ينبغى أن يكون له مفعول به ، وتقوم وظيفة هـذه القواعد على أسـاس أن يوضع فى نهاية السلسلة التركيبيـة فى الشجرة العناصر القاموسية المناسبة بعضها للبعض الآخر . فإذا اتصل فعل مثل « يأكل » بمفعول تجريدى كالعدالة فإنه ينبغى أن يمنع ذلك أو يرمز لـه على الأقل بصفته خروجا عن النظام .

هذا وقد اعترف تشومسكى بأنه على الرغم من أن هذا النموذج يعتمد على النموذج السابق ((PS)) فإنه يختلف عنه فى وفرة طرق الاختيار حيث يشير الى أنه يمكننا توسيع اشتقاقات التركيب السابق فى امتلاك مسألة موحـدة لانتـاج التتابعات الفونيمية من بداية السلسلة وهى الجمـلة (٢) .

٢ ـ ارتبطت التحويلات فى النظرة القديمة قليلا أو كثيرا بالجمل . تلك الجمل التى يرتبط بعضها بالبعض الآخر (مثلا الجملة المبنية للمعلوم والجملة المبنية للمجهول) ، أما فى هذا النموذج فإن التحويلات تنقل

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ ، ص١١٤٠ .

(2) Chomsky : Strukturen der Syntax, S. 38.

التركيب العميق للجملــة الى التركيب السطحى ، إن وظيفتها ليست إلا وظيفة المرشح الذى يمرر التركيبات فقط اذا كان لها الشكل المحدد المسموح به فى اللغة المعنية .

٣ — إن التركيب العميق يغير فى ظل عدم وجود أى شروط الجملة السهلة ، فعندما يقول الانسان إن الجملة فى مثال (جـ) لها نفس التركيب العميق فى (أ) . (ب) فان هذا يعنى أنه اختصار لتعبير « إن جملة (جـ) لها نفس التركيب العميق الموجود فى (أ) . والموجود فى (ب) ، هكذا يمكن أن يتشابه التركيب العميق والتركيب السطحى معا ، فإذا قال الانسان إن جملة « الولد يشرب اللبن » يتساوى تركيبها السطحى مع تركيبها العميق فإن هذا ليس إلا اختصارا للتعبير الصحيح وهو : تؤدى التحويلات العادية التركيب من العمق الى السطح .

هكذا يرفض تشومسكى النموذجين السابقين : النموذج النظرى الاتصالى (= communicative Kommunikationstheoretische Modell theoretical modell بالانجليزية) الذى يعتمد على ادراك اللغة كقضية رياضية markov processes والذى يناسب نظرية اللغة البسيطة والنمــوذج (PS) الذى يقوم على تحليل الأجزاء مباشرة immediate constituent analysis ، وإن كان لا يناسب أيضا كثيرا من اللغات (١) .

إن تشومسكى استغنى تماما عن نمــوذج ((PS)) لأنه لا يمكنه توضيح المتشابهات صوتيا ، فهو لا يستطيع إلا أن يفسر المعنى المختلف لجملتين أو لأجزاء منهما التى تكون متشابهة صوتيا . ولكنه لا يشــير الى الاختلاف بينهما كما فى الجملة الانجليزية :

old men and women

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

حيث لا يمكن تحليلها بوضوح فى النموذج (PS) ، غير أنها ليست كذلك فى المستوى العميق ، فهى إما أن تعنى (old men) and women أو تعنى old (men and women) ، ويسمى تشومسكى مثل هذه الحالات بالمشترك اللفظى التركيبى constructional homonymity (١) .

وتهدف الطريقة الثالثة فى التحليل وهى النحو التحويلى TG الى تحليل البنية العميقة للغة باعتبارها الجانب المنطقى أو العقلى لها ، ثم تهدف الى تحليل البنية السطحية ، ومن ثم فإنها تحاول أن تصل الى عامل الحدس عند صاحب اللغة (٢) .

وقد جمع تشومسكى خطوات التحليل التى طبقها على الانجليزية فى كتابه الأول فى النموذج التالى والذى أضاف إليه بعض الرموز الضرورية التى كانت غير موجودة فى نموذج (PS) (٣) .

1. Satz → NP + VP (= Sentense بالانجليزية)

2. VP → Verb + NP

3. NP { NP. sing مفرد / NP. pl جمع }

4. NP sing → T + N + O (O = مورفيم الإفراد)

5. NP pl. → T + N + S (S = مورفيم الجمع)

6. T → the

7. N → man , ball , ...

8. Verb → Aux + V (Aux = الفعل المساعد)

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ ، ص ٣٣ ، ص ١٠٣ .

(٢) د . عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث ص ١٣٨ ، ص ١٣٩ .

(3) Chomsky : Die Strukturen der Syntax, S. 131.

9. V ⟶ hit , take , walk , read , ...

10. Aux ⟶ C (M) (have+en) (be+ing) (الزمن = C)

11. M ⟶ will, can, may, shall, must

هكذا يمكن القول بأن نظرية النحو كما جاءت فى كتاب تشومسكى الأول تتكون من ثلاثة أجزاء متصلة يقوم الباحث بعملها بعضها وراء البعض الآخر وهى (١) :

١ — قواعد التركيب وقواعد القاموس التى تأتى فى شكل قواعد الإبدال التى تولد كل المورفيمات الضرورية فى الجملة كنهاية للسلسلة .

٢ — قواعد التحويل وتعنى التوجيهات الضرورية للتحويل ، وتعمل فى إخراج السلسلة النهائية وتنتجها بناء على قواعد التركيب وقواعد القاموس .

٣ — القواعد المورفيمية التى تحل المورفيمات الموحدة والمحولة فى نهاية السلسلة الى سلسلة منطوقة . وتسمى الشرح أو التفسير (٢) .

وكما يقول روبنز : « كان الكتاب الأول بسيطا نسبيا . لقد تضمن مجموعة من قواعد التحويل الأساسية البعض منها إجبارى والآخر اختيارى والتى تستخدم بناء على القوانين التركيبية الأساسية . كما تضمن مجموعة من القوانين الصرفية الفنولوجية فى سلسلة تتكون بناء على ذات القواعد التركيبية الأساسية ، وتؤدى الى تتابع فونيمى وصوتى فى النهاية . وعندما نسس تشومسكى الجزء الفنولوجى فى تحليله على نتائج الوصف النحوى والصرفى فإنه يكون قد أفرد للفنولوجيا مكانة

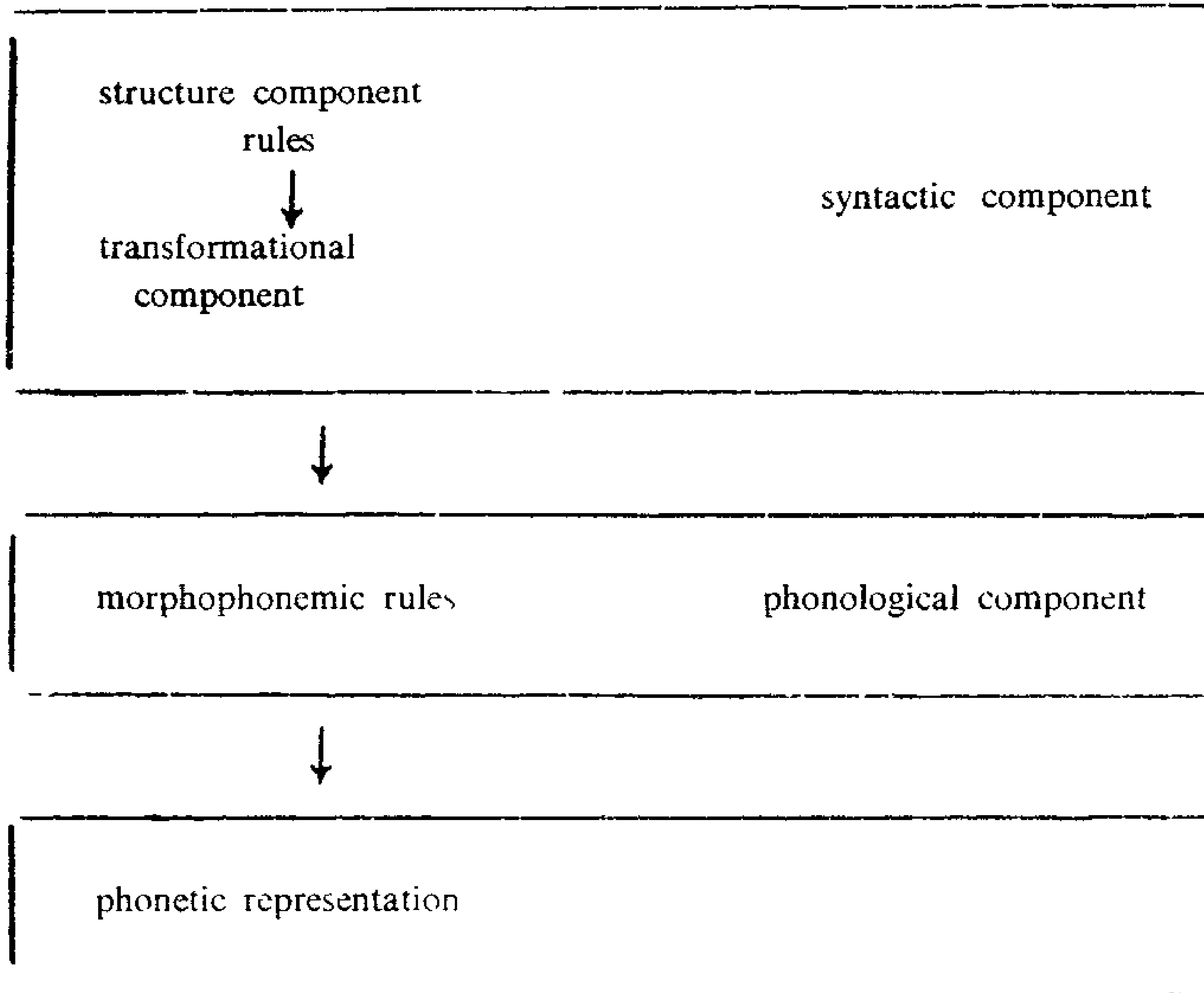
---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik. S. 37.

(٢) انظر ص ٢٠١ من هذا الكتاب .

فى مجال علم اللغة الوصفى ، تلك المكانة التى تناقض مكانتها فى البنائية التوزيعية » (١) •

ويمثل الشكل التالى نظرية النحو التحويلى فى المرحلة الأولى (٢) :



وقد تطور هذا النموذج الى ما يسمى بالنظرية المثالية Standard theory أو نموذج phrase marker (P. Marker) وهو ما يمثل المرحلة الثانية من نظرية تشومسكى •

---

(1) Robins : Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, S. 123 - 124.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٤ . وقد غيرنا المصطلحات الألمانية الى ما يقابلها فى الانجليزية .

(ب) فى المرحلة الثانية :

يحدد تشومسكى فى كتابه « جوانب نظرية النحو » شكل النحو قائلا :

« فيما يلى نقترح شكلا للنحو . وذلك بأن يتضمن عنصرا تركيبيا وعنصرا دلاليا وعنصرا فنولوجيا ؛ ويعد الأخيران عناصر تفسيرية ولا يؤديان دورا فى إعادة إنتاج تركيب الجملة ؛ ويتكون العنصر التركيبى من أساس وعنصر تحويلى ، ويتكون الأساس من عنصر تصنيفى جزئى ومن القاموس . وينتج هذا الأساس التركيبات العميقة التى تعطى فى العنصر الدلالى وتحصل بالتالى على التفسير الدلالى . ثم تتشكل فى التركيب السطحى بناء على قواعد التحويل والتى تقدم من خلال العنصر الفنولوجى التفسير الفوناتيكى » (١) .

واذا كان تشومسكى أبعد علم الدلالة فى كتابه الأول فإنه يؤكد على ضرورة صلة النحو بعلم الدلالة من الناحية التعبيرية فى كتابه الثانى . إن نحوه يتضمن الآن بناء جديدا . فلم يعد نحوا تركيبيا تعبيريا (PSI) . كما أبعد تماما تحليل هريس IC - Analysis الذى كان يحلل التعبيرات الموضوعيه . لأنه لا يتناول إلا التعبيرات السطحية فقط ؛ ومن ثم فإن النحو الآن يميز بين التركيب السطحى والتركيب العميق . كما يميز بين المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول . واذا كانت التحويلات فى الكتاب الأول تقوم على التراكيب النحوية فى جمل التركيب السطحى فإن قواعد التحويل لها الآن واجب آخر ، إنها تعمل فى التركيب العميق (٢) .

إن تشومسكى فى كتابه الثانى عام ١٩٦٥ لم يأت بتعديل للنحو التوليدى الذى ظهر عام ١٩٥٧ ؛ لكنه اقترح تفسيرا له ، وأصبح النحو

(1) Chomsky . Aspekte der Syntax - Theorie, S. 179 - 180.
(2) Zarnikow : Einführung in die Linguistik, S. 40 - 41.

فى الطوز الثانى يدل على المقدرة فى أنه يمكنه أن يذكر كل التتابعات المتاحة لعناصر اللغة من مورفيمات وكلمات ، وهذا يعنى أن يذكر نظام الانتاج ، ذلك النظام الذى يؤكد كل الجمل الممكنة فى اللغة ، ويمثل هذا الواجب صعوبة كبيرة للنحوى لأن كل لغة طبيعية يمكنها أن تشكل جملا كثيرة وصحيحة من الناحية النحوية (١) .

تحت عنوان « بناء النحو التوليدى » فى الكتاب الثانى « جوانب نظرية النحو » يوضح تشومسكى ذلك قائلا :

« ونعود مرة أخرى الى موضوع الكفاءة اللغوية والنحو التوليدى الذى يقوم بوصفها ونؤكد ثانية أن المعرفة باللغة تتضمن المقدرة فى فهم جمل كثيرة غير محدودة . ومن هنا فإن النحو التوليدى ينبغى أن يكون نظاما من القواعد التى يمكنها أن تعيد انتاج العدد الكبير غير المحدود من التراكيب ، وينقسم هذا النظام الى ثلاثة مكونات رئيسية تنتمى الى النحو التوليدى :

١ — عناصر تركيبية (نحوية) .

٢ — عناصر فنولوجية .

٣ — عناصر دلالية (٢) .

وتتضمن العناصر التركيبية عنصرا أساسيا يتكون بدوره من ثلاثة أجزاء هى :

---

(1) Siegfried Kanngiesser H. L. Meyer : Generative Linguistik, S 187 . 188 . 189 . im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft.

(2) Chomsky : Aspekte der Syntax - Theorie, S. 29.

١ — قواعد التفريع branching ، وهى التى تقوم بتفريع الجملة الى أجزائها المختلفة مثل التفريع الذى يبدو فى الشكل التالى :

S → NP + V

NP → N + T

الى آخر هذه التفريعات المعروفة . وتعمل هذه القواعد من الناحية الشكلية دون ارتباط بالسياق .

٢ — قواعد التصنيف الى الأدنى subcategorization rules . وتعمل مرتبطة بالسياق وغير مرتبطة به ، وتتفرع هى الأخرى الى :

(أ) قواعد التصنيف الصـــارم strict التى تقوم بنـــاء على السياق التصنيفى النحوى اختيار نوع الكلمة للمورفيم المختار .

(ب) قواعد الاختيار التى تحدد كل وحدة النوع القاموسى . وذلك بناء على الخصائص النحوية syntactic features مثل الكلمات التى لها صفه التعدادية أو التجريدية ... الخ .

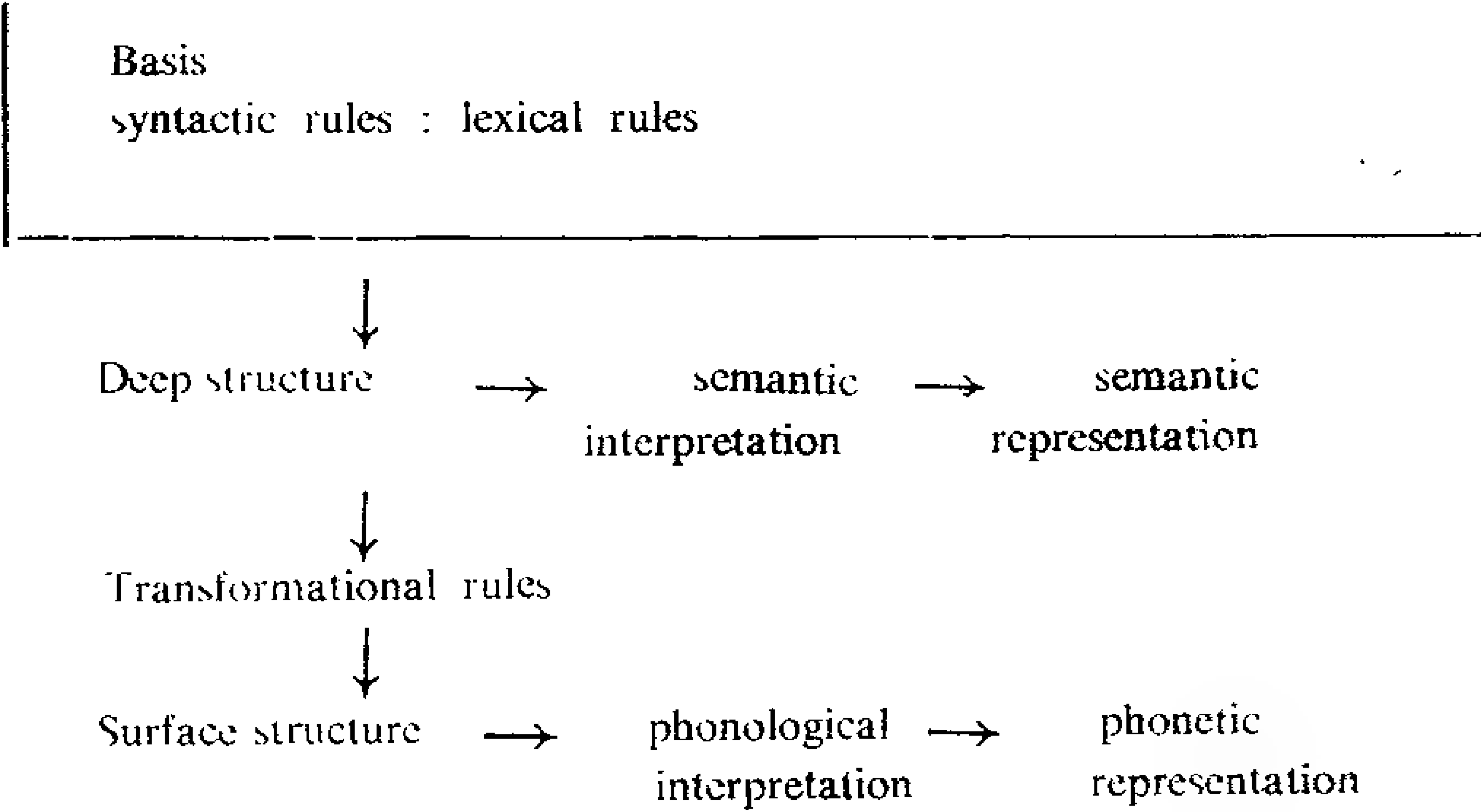
٣ — التسجيل القاموسى . ولا يعنى ذلك اختيار المورفيمات بناء على الصفت فى رقم (٢) فقط ، بل بناء على الامكانيات الدلالية وفى إطار من النحو : ومن ثم لا تتولد الجمل الخالية من المعنى .

أما العناصر الفنولوجية فهى التى تفسر الجمل فنولوجيا حسب نظامها التحويلى فى التركيب السطحى : وهذا يعنى أنها تلحق المورفيمات بأشكالها الصوتية (إنه يتعامل مع اللغة المنطوقة) ، وتفسر العناصر الدلالية التراكيب العميقة المولـــدة . فهى تلحق المورفيمات بتراكيبها الدلالية (١) .

---

(1) Zarnikow : Einführung in die Linguistik. S. 43 - 44.

ويتمثل بناء النحو التحويلى التوليدى كما شرحه تشومسكى فى كتابه «جوانب نظرية النحو» ، وكما عرضه روبنز فى الشكل التالى (١) :



ثالثا : مكانة علم الدلالة فى النظرية التحويلية :

أدى الخلاف بين العلماء فى المكانة التى ينبغى أن يحتلها علم الدلالة فى النظرية التحويلية الى وجود مجموعتين من العلماء : فالمجموعة الأولى ترى أن علم الدلالة إنما هو عنصر تفسيرى له قوانين دلالية تؤثر على التراكيب العميقة (كما يتضح فى النموذج السابق) ، كما تؤثر القوانين الفنولوجية على التراكيب السطحية .

وينتمى تشومسكى وبعض أتباعه الى تلك المجموعة التى تقوم آراؤهم على أساس النظرية النموذجية على حين ينتمى روس J.R. Ross ولاكوف G.P. Lakoff ومكولى J.D. McCawley الى المجموعة الثانية

---

(١) انظر كتاب روبنز « تاريخ أفكار علم اللغة وقضاياه » ص ١٢٥ . وقد غيرنا المصطلحات الألمانية الى ما يقابلها فى الانجليزية تيسيرا على القراء .

لا يمكن أن ينفصلا . كما أن دوره يتكون من قوانين التحويل وتقييدات الاشتقاق ، حيث إنه يربط التمثيلات الدلالية بما يماثلها من التراكيب السطحية » (١) .

تقوم وجهة نظر لاكوف — كما هو واضح — على أنه يمكن إحداث فصل بين العناصر النحوية العميقة وعناصرها الدلالية فى داخل نموذج النحو التحويلى التوليدى ، وإن حدث ذلك فإنما يؤدى الى إخلال بالمعنى بناء على الأسس التجريبية والنظرية ، وما ينبغى مناقشته إنما هو واجب القواعد التحويلية أو كما سماها لاكوف تقييدات الاشتقاق derivational constraints . حيث يرى أن واجبها تشكيل التراكيب الدلالية فى الجمل بناء على تراكيبها السطحية الفنولوجية والصرفية . وبصفة عامة ارتباط التركيب الدلالى للجملة بتركيبها الفنولوجى (٢) .

ويحتل القاموس فى علم الدلالة التوليدى مكانة مغايرة لما يحتله فى علم الدلالة التفسيرى . حيث إن الوحدات القاموسية لا تندرج فى التراكيب العميقة قبل استعمال القوانين التحويلية . وإن كانت تفهم فى معظم الحالات على أنها نتيجة لهذه القوانين (٣) .

أما كاتز Katz وتشومسكى فإنهما يمثلان الرأى القائل بأن النحو ينبغى أن يستقل عن التمثيلات الدلالية ، أى يجب أن توجد قواعد تشكيل للتراكيب العميقة التجريدية والتى تفسر نتائجها الاشتقاقية

---

(١) نقلنا كلام لاكوف عن روبنز فى المرجع السابق ص ١٣٥ .
(2) Herbert E. Brekle : Semantik, S. 117 (2. Auflage 1974).
(3) Robins : Ideen - und Problemgeschichte .... S. 135 - 136.

(المعروفة بتراكيب العبارة ps أو بأشكال الشجرة) كمكونات دلالية تفسيرية من خلال عمليات أخرى بناء على وجهات النظر الدلالية (١) .

وقد حاول تشومسكى وكاتز عام ١٩٧١ الاشارة الى أن المتضمن فى النظرية النحوية فى تقديرهم يتطابق مع وجهة نظر لا كوف فى علم الدلالة التوليدى ، وإن كان هـذا القول لم يزل مجال جـدل ونقاش . وذلك لاختلافهما الواضح فى النظرة الى مكانة علم الدلالة فى النظرية التحويلية التوليدية .

رابعا : التركيب السطحى والتركيب العميق :

يرى تشومسكى أن العنصر الفنولوجى عنصر تفسيرى ، كما أن العنصر الدلالى عنصر تفسيرى أيضا ، واذا كان كل واحد منهما يستعمل المعلومات الضرورية عن المكونات أى صفاتها الملازمة لها والصـلات المتبدلة فى الجملة المعطاة ، تلك المعلومات التى ترد من العنصر النحوى ، فإنه بنـاء على ذلك ينبغى أن يخصص العنصر التركيبى للقواعد فى كل جملة تركيبا عميقا deep structure الذى يحدد تفسـيره الدلالى وتركيبا سطحيا surface structure الذى يحدد تفسيره الفوناتيكى ، انهما يتطابقان دائمـا .

إن الأفكار الأساسية للنحو التحويلى متميزة ، ويتحدد التركيب السطحى من خلال اعادة استعمال العمليات الشكلية المحددة ، أى من خلال التحويلات النحوية ، وينبغى أن تولد المكونات النحوية التراكيب العميقة والتراكيب السطحية والتى يرتبط بعضها بالبعض الآخر (٢) .

هكذا يمكن القول إن التركيب السطحى يتشكل من خلال إعـادة

---

(1) Herbert E. Brekle : Semantik, S. 117.
(2) Chomsky : Aspekte der Syntax - Theorie, S. 29 - 30.

الاستعمال للتحولات النحوية ، فالفاعل النحوى للجملة إنما هو فاعل بالنظر الى التركيب السطحى للجملة ، كما أن المعلومات عن وظائف الكلمات المفردة فى الجملة تثبت أو تتغير بناء على المعلومات القاموسية .

أما التركيب العميق عند تشومسكى فإنه :

١ — التركيب الشكلى والتجريدى الذى لا يتصل مباشرة بالأصوات ولكن بالمعنى ؛ إنه يحدد التفسير الدلالى للجملة .

٢ — التركيب الذى يكون عقليا خالصا وينقل التكوين الدلالى للجملة .

٣ — نظام من الافتراضات المنتظمة بطرق مختلفة ؛ أى افتراضات أولية لشكل المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل أو غيرهما .

٤ — الشكل الأساسى التجريدى الذى يحدد معنى الجملة .

ويختلف مفهوم التركيب العميق عند لاكوف قليلا عن مفهومه عند تشومسكى فهو :

١ — الصلات الأساسية النحوية كذلك الوظائف الرئيسية النحوية مثل صلة المبتدأ بالخبر .

٢ — تنظيم الوحدات القاموسية فى أنواع مناسبة .

وبعد عام ١٩٦٥ تعرض مفهوم التركيب العميق لمناقشات كثيرة ؛ ويمكن تصور مدى النقد الذى وجه للمفهوم القديم من خلال نقد لاكوف له فى كتابه « علم اللغة والمنطق الطبيعى Linguistics and Natural Logic » ؛ حيث أصبح التركيب العميق عنده يفسر على أنه :

١ — التركيب المنطقى للجملة .

٢ — محتوى الجملة .

٣ ــ الاستعمالات الممكنة للجملة •

٤ ــ سياقات الاستعمالات الممكنة •

وبذا أصبح التركيب الدلالى للجملة عند أصحاب علم الدلالة التوليدى إنما هو تركيبها المنطقى •

هذا ؛ وقد استعمل بعض العلماء مصطلحات أخرى بديلة عن التركيب العميق . فقد استخدم Wittgenstein مصطلح النحو العميق Tiefengrammatik (= deep grammar بالانجليزية) ، كذلك استعمله هوكيت فى مؤلفاته •

المراجـــــع

اولا : المراجع العربيـــة :

١ — ابراهيم السامرائى (دكتور) : فقه اللغة المقارن (الطبعة الثانيه ١٩٧٨) .

٢ — ابراهيم أنيس (دكتور) : من أسرار اللغة (مكتبة الأنجلو — الطبعة الثالثة ١٩٦٦) .

٣ — ابن جنى : سر صناعة الاعراب جـ ١ . تحقيق : مصطفى السقا وآخرون (١٩٥٤) .

٤ — أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم (الطبعة الثانية ١٩٧٤) .

٥ — أحمد مختار عمر (دكتور) : البحث اللغوى عند العرب (دار المعارف ١٩٧١) .

٦ — أرسطو طاليس : الخطابة ، الترجمة العربية القديمة د. عبد الرحمن بدوى (١٩٥٩) .

٧ — الخليل بن أحمد : كتاب العين جـ ١ ، تحقيق : د. عبد الله درويش

٨ — السيوطى : المزهر فى علوم اللغة وفروعها ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥/١٣٢٤ .

٩ — أولمـــان (ستيفن) : دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة د. كمال بشر (الطبعة الثانية ١٩٦٩) .

١٠ — تمام حسان (دكتور) : (أ) الأصـــول . دراسة ابيستيمولوجيه لأصول الفكر اللغوى عند العرب (١٩٨٢) .
(ب) اللغة العربية معناها ومبناها (دار الثقافة . الدار البيضاء) .

١١ — توفيق الطويل (دكتور) : الفلسفة الخلقية . نشـــأتها وتطورها (الطبعة الأولى ١٩٦٠) .

١٢ — جوزيف نسيم (دكتور) : تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها (مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٤) .

١٣ — خليل يحيى نامى (دكتور) : دراسات فى اللغة العربية (١٩٧٤) .

١٤ — رمضان عبد التواب (دكتور) : (أ) المدخل الى علم اللغة (١٩٨٠) .
(ب) التطور اللغوى ، مظاهره وعلله (مكتبة الخانجى ١٩٨١) .

١٥ — زكريا ابراهيم (دكتور) : كانت أو الفلسفة النقدية (دار مصر للطباعة ، الطبعة الثانية ١٩٦٣) .

١٦ — سيبويه : الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون (١٩٧٧) .

١٧ — صلاح فضل (دكتور) : نظرية البنائية فى النقد الأدبى (مكتبة الأنجلو ، الطبعة الثانية ١٩٨٠) .

١٨ — عبد الرحمن أيوب (دكتور) : اللغة والتطور (١٩٦٩) .
● سيبويه والمذهب الشكلى ، مجلة كلية الشريعة (العدد الثانى) .

١٩ — عبد الرحمن بدوى (دكتور) : المثالية الألمانية (١) شلنج (دار النهضة العربية ١٩٦٥) .

٢٠ — عبده الراجحى (دكتور) : النحو العربى والدرس الحديث ، بحث فى المنهج (١٩٧٧) .

٢١ — على النجدى ناصف (دكتور) : سيبويه امام النحاة (الطبعة الثانية ١٩٧٩) .

٢٢ — على عبد الواحد واف (دكتور) : علم اللغة (الطبعة السابعة ١٩٧٣) .

٢٣ — كمال بشر (دكتور) : (ا) دراسات فى علم اللغة ، القسم الأول (دار المعارف ١٩٦٩) .
(ب) علم اللغة العام ، الأصوات (دار المعارف ١٩٨٠) .
(ج) دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى (دار المعارف ١٩٦٩) .

٢٤ — ماريو باى : أسس علم اللغة ، ترجمة د. أحمد مختار عمر (الطبعة الثانية ١٩٨٣) .

٢٥ — محمود السعران (دكتور) : علم اللغة مقدمة القارىء العربى (دار المعارف ١٩٦٢) .

٢٦ — محمود حجازى (دكتور) : أسس علم اللغة العربية (دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩) .

٢٧ — ميشال زكريا (دكتور) : الألسنة (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية (١٩٨٤) .

٢٨ — نايف خرما (دكتور) : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، عالم المعرفة (١٩٧٨) .

٢٩ — يوهان فك : العربية ، دراسة فى اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة د. عبد الحليم النجار .

guistik für den ...
(1975).

2. Bloomfield : Language (1976).

3. Brekle E. Herbert : Semantik, 1972 Wilhelm Fink Verlag, München.

4. Brockelmann : Stand und Aufgabe der Semitistik (Beiträge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, 1944).

5. Chomsky : a. Strukturen der Syntax, Mouton, the Hague, 1973.
   b. Aspekte der Syntax - Theorie, Akademie Verlag, Berlin 1969.

6. De Saussure : Grundfragen der allgemeinen Sprachwissenschaft, 2. Auflage, Berlin 1967.

7. Gibbon D. : Tagmemik, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft. Band 2 : Sprachwissenschaft (1974).

8. Hans U. Boas : Stratifikationstheorie, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft (1974).

9. Heeschen : Grundfragen der Linguistik, zweite Auflage, 1974.

10. Herwig Krenn und Klaus Müller : Distributionalismus, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft (1974).

11. Karl - Dieter Bunting : Einführung in die Linguistik (10. Auflage, 1983).

12. Kunk - Kolleg : Sprache, 1, 2. Eine Einführung in die moderne Linguistik, Fischer Taschen Verlag, 1979.

13. Martinet Andrié : Grundzüge der allgemeinen Sprachwissenschaft (5. Auflage 1971).

14. Moscati : An introduction to the comparative grammar of the semitic languages, 1964.

15. Owen Thomas : Transformational Grammar and Teacher of English (1965).

16. Pinborg J. : Antike Grammatiktheorie, eine Artikel im Buch : Grungzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft (1974).

17. Robins : a. Ideen - und Problemgeschichte der Sprachwissenschaft, Athenäum Verlag, 1973.
b. A short history of linguistics, third impression 1976.

18. Rolf Dietrich : Sprachwissenschaft im 19. Jahrhundert in Deutschland, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft (1974).

19. Siegfried Kanngiesser H. M. Meyer : Generative Linguistik, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft (1974).

20. Spillner Bernd : Linguistik und Literaturwissenschaft, Stilforschung, Rhetorik, Textlinguistik, Stuttgart, 1974.

21. Suzette Haden Elgin : What is Linguistik ? second edition 1979.

22. Winfried Linders : Universalgrammatiken des Rationalismus, eine Artikel im Buch : Grundzüge der Literatur - und Sprachwissenschaft (1974).

23. Zarnikow Annemarie : Einführung in die Linguistik, Verlag Moritz Diesterweg, 2. Auflage 1974.

ثالثا : القواميس :

1. European Literatur by Anthony Thorlby, 2 : Edited by Anthony Thorlby, First published 1969.

2. Lateinisch - Deutsch Wörterbuch Von Haas / von Kienle Verlags - Gmb H Stuttgart.

3. Linguistisches Wörterbuch von Theodor Lewandowski, 3. Verbesserte und erweiterte Auflage.

4. Taschen Wörterbuch der Linguistik von Carl Heupel, List Verlag München, 1973.

محتويات الكتاب